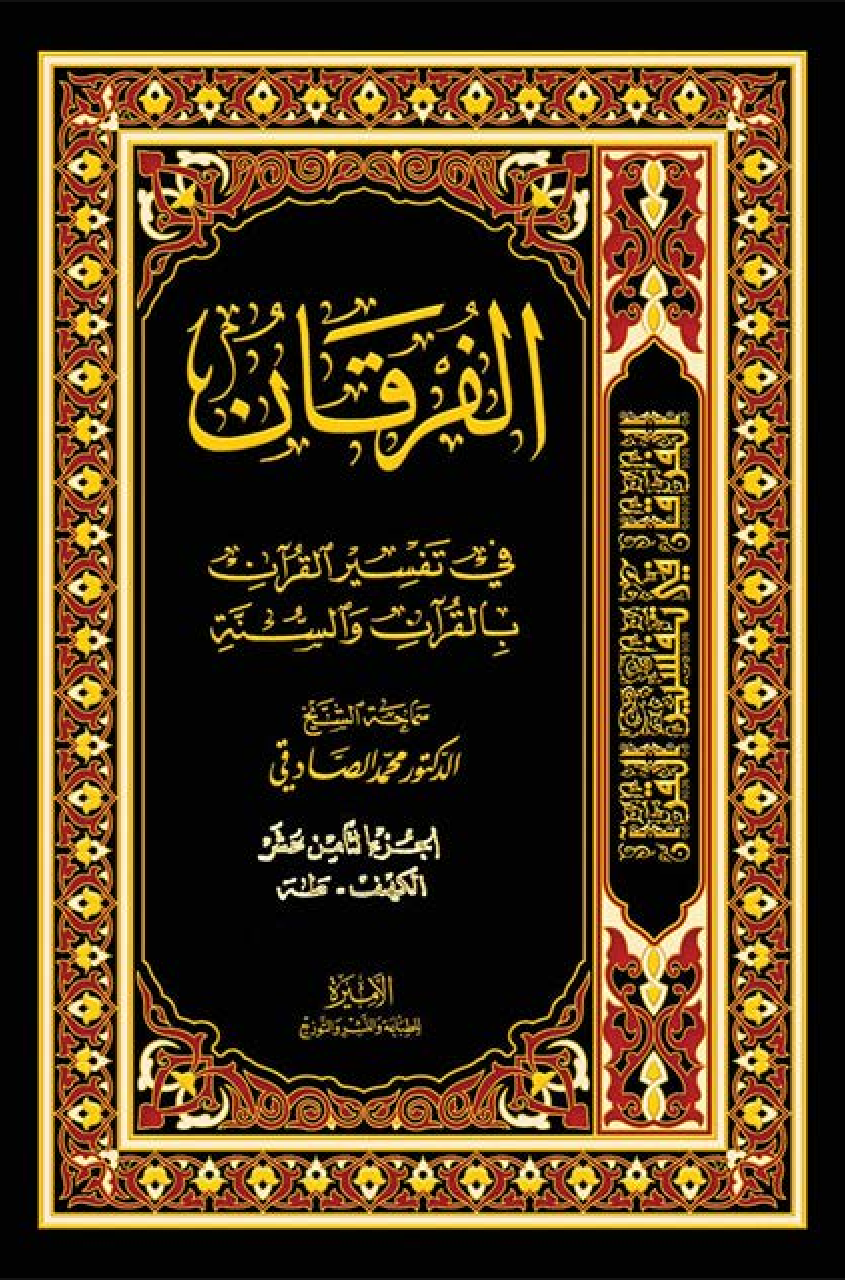

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثامن عشر
الكهف - طه
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الثامن عشر

تتمة سورة الكهف - سورة مريم

سورة طه

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



١٨

تتمة

سُورَةُ الكَهْفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

صرف للرسول ﷺ عن القيل والقال والإصغاء إلى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط، والالتحاد إلى الرب وكلماته، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعونه، ماشياً على صراط الحق، متمسكاً بصراح الحق فتعم الثواب ونعم المرتفق!

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

أصل التلاوة هي المتابعة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝﴾[1] فلا شأن لك ولا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة وتفهماً وتفهيماً وإبلاغاً وتطبيقاً، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾... لا ما أوحاه عقلك أمّن سواك، وإنما ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن العظيم، دون أن تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم الجواب ناسياً ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ودون الالتحاد إلى أي وحي أو استفتاء أو استيحاء، وإنما ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فحسبك ربك وكتاب ربك إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: ربك ولا كتابه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ﴾: ربك ولا كتابة ﴿مُلْتَحَدًا﴾.

فهما وصفان متلاحمان «لربك» و﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ والقرآن أفضل كلماته، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ وملتحده الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كل ما تحتاجه، ملتحد تكويناً وملتحد تشريعاً لا مبدل لهما!

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخاً إلا تحريفاً في غير القرآن: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2] وكلماته الأخيرة القرآن، لا مبدل لها إطلاقاً إذ تمّت ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] لا مبدلاً من غير الله تحريفاً وتجديفاً، مهما كان لغير القرآن تحريف وتجديف، ولا مبدلاً إلهياً نسخاً وتبديلاً كشرعة تنسخ وتتبدل، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مر الدهور والأعوام إلى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات الله وكتاباته.

و﴿مُلْتَحَدًا﴾: متمايلاً يجير إليه، أولاً هو الله لأي ملتحد وعلى أية حال

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

إجارة وجواراً: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ. . .﴾[1] ومن ثم لن أجد ملتحداً من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين، فهنالك الله وهنا كتاب الله ثم لا سواه ولا سواه.

هنا ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتاباً لا نسخ له ولا تحريف، إذاً فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت!

ومن ثم ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ تحيل ملتحداً من دون القرآن كما تحيله من دون الله، ضرباً إلى أعماق الزمن ما بقي الدهر، فمهما غاب شخص الرسول ﷺ لا تغب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو أوّل العابدين «لن تجد. . .» فغيره أحرى أن «لن يجد» فـ «لن تجد» وإن كان خطاباً لشخص الرسول ﷺ ولكنه بإحالة «لن» وأوّل العابدين في «تجد» يطوي كل زمان ومكان وكل إنس وجان حتى القيامة الكبرى. فتحيل أي ملتحد طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾:

ولماذا ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ دون إضافة وبتمييز جمع ﴿سِنِينَ﴾ خلاف القاعدة المطردة من إضافتهما إلى مفرد؟

الآن ﴿سِنِينَ﴾ نزلت بعد ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ حين سئل الرسول: أياماً أو شهوراً أو سنين؟[2] ونزولها دون سنين إهمالها في إجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان!

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢١٨ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ. . .﴾ [الكهف: ٢٥] قيل يا رسول الله ﷺ أياماً أم شهوراً أم سنين؟ فأنزل الله: سنين وازدادوا تسعاً.

أم إنها بدل عنها فلا إضافة إلى مفرد خلاف التميز، فثلاثمائة هي سنين مُضمّنة معنى التمييز؟ وهذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فإنه - دوماً - التمييز!

أم إنها قاعدة راجحة أو مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعاً، فالتمييز أيضاً لجمعه، أو مفرد للمضاف إليه «مائة» والقرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعراً أو نثراً؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظياً كما هو معنوياً نبراساً لكل قاعدة وفائدة.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾:

نفس مطمئنة يروّضها ربها بالتقوى إيناساً بربها ووحيه، وصبراً مع الذين يدعونه يريدون وجهه، ويرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره واتّبع هواه وكان أمره فرطاً.

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم ونهي أن يعدو عيناه عنهم ونهي ثانٍ أن يطيع غفلان القلوب، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية على بساط الفقراء إلى الله، دون الأثرياء الأغبياء الأغنياء في حسبانهم عن الله، مهما طالت وعودهم وأبرق وقودهم: «لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم حادثناك وأخذنا عنك»[1] وكما كان يقول أضرابهم للأنبياء

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٩ - أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، وعنده عيينة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله ﷺ: وجلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف -=

قبله من نوح مفتتح الرسالات: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾[١] وإلى غيره من رسل الله!

يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر الله قائلاً: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات»[٢] ولقد كان يجامل فقراء المؤمنين ويكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم.

وهل أن الرسول ﷺ حدثته نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في إيمانهم كما يدعون؟ هذا بعيد عن ساحته وغريب عن أخلاقه وسماحته ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣] وكيف يطرد المؤمنين رغبة في إيمان المستكبرين، ثم وأين إيمان من إيمان لو صدقوا وآمنوا! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!.

إنما يأمره ربه بما يأمر وينهاه عما ينهى تثبيتاً للمؤمنين وتنديداً

= جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله: «ورتّل ما أوحي».. إلى قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١١١-١١٤.

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن سلمان قال: قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال: .. وأخرج عبد بن حميد عن سلمان قال: نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي ﷺ ومعي شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال: تنح حتى ألقاني على البساط ثم قال: يا محمد! إنّا ليمنعنا كثير من أمرك هذا وأضرباءه أن ترى لي قدماً وسواداً فلو نحيتهم إذا دخلنا عليك فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت، فلما خرج أنزل الله ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ - إلى - فُرُطًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن ذر عن أبيه أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من أصحابه منهم عبد الله بن رواحة يذكّرهم باللّه فلما رآه عبد الله سكت فقال له رسول الله ﷺ: ذكّر أصحابك، فقال: يا رسول الله ﷺ! أنت أحق! فقال ﷺ: أما إنكم الملأ الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم ثم تلا ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ...﴾.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

بالمستكبرين، وتبعيداً لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين، لا أنه طرد ثم نهي! فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾(١) ﴿... وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾(٢) ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وهـو ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ...﴾(٤)! ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥)!.

فإنه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها إيقاناً وإيماناً مهما كانوا فقراء دون من يعتورونها متاجرين بها يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فإذا محّصوا بالبلاء قلَّ الديانون!.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وكيف «نفسك» مفعولاً والصبر لازم حيث يتعدى بواسطة؟ إن الصبر وهو الحبس متعدٍ إلى مفعول محبوس به، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه أو عليه أو معه أم ماذا؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها وحرماناتها ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ صبراً في الله ولله وإلى الله!.

كل إمساك واحتباس في ضيق صبر، منه ممدوح ومنه غير ممدوح، والصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات وتحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الإيمان بمواصلة المجاهدات وتحمل الحرمانات!.

وما هي النفس المحمدية المأمورة بالصبر معهم؟ إنها كله ﷺ من روحه وجسمه، بعقله وصدره وقلبه، في حله وترحاله، وعلى كل حاله،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦١.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

فكما يصبر في الله في أوامره ونواهيه وفي قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه، يحملهم ويتحملهم يهديهم ويذود عنهم، يجاريهم ويداريهم ولا يفضِّل عليهم ولا يسوي بهم!

أجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

ولماذا تطردهم وهم مؤمنون؟ أرغبة في إيمان من يتأنفون عنهم، والإنذار لا يفيدهم ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢]!.

ترى وماذا تعني ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ حيث يدعون بهما ربهما؟ لأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرفي النهار كما في مكيات أخرى ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[٣] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ...﴾[٤]؟ ولا بد في سمة الإيمان دوامتها والفرض في المدينة خمس وعلى طول الخط، فليقل: مع المصلين لتشمل الفرض مكياً ومدنياً! وآية العشي والإبكار لا تخص المكي، بل والمدني أيضاً ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[٥] وكما الكهف علّها مدنية أو البعض من آيها وعلها منها!

أم لأن الغداة هي الوقت الذي يتنقل فيه الإنسان من نومه إلى يقظته، والعشي تنقلاً من يقظته إلى نومه، وهما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة، وهما ركنا أوقات الليل والنهار. فذكرهما أهم الذكر!

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥١.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

إذاً فهما يعنيان أهم الأوقات من الليل والنهار، فالغداة صباح والعشي عصر إلى ليل، وكما هما في الجنة والنار ركنان في رحمة وعذاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١] ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[٢] فهما أهم أوقات الذكر وسواه وفيما مضى كما هنا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٣] لا فحسب الإنسان فالجبال أيضاً: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[٤].

ثم وفي ردف العشي بالإشراق والغدو بالعشي - على كونهما ركني الأوقات - عطف إلى ما بينهما من أوقات الليل والنهار، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ وعذابه، فالغداة والعشي في ذكر الرب ودعوته تعني الغداة إلى العشي والعشي إلى الغداة كما يقال «أنا دارس صباح مساء» أو «ضارب أعداء الله ظهر بطن».

فدعوة الرب هي حالهم ومقالهم، حلهم وترحالهم، غداتهم وعشيهم بما فيها الفرائض الخمس[٥] كأركان الدعوات وتلحقها سائرها، كما الغداة والعشي من أركان الأوقات وتلحقها سائرها.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ وماذا يعني «وجهه»؟ هنا وجه

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ١١.
(٤) سورة ص، الآية: ١٨.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم ومجاهد في الآية قالا: الصلوات الخمس وفي نور الثقلين ٣: ٢٥٨ عن تفسير العياشي عن زرارة وحمران وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله: ﴿وَاصْبِرْ... بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] قال: «إنما عنى بها الصلاة».

الرب كما في عديد سواه[١] وهناك وجه الله كما في عديد سواه[٢] وبينهما فرق كما بين وجه الله وسواه.

والوجه من كل شيء ما يواجَه شيئاً أو يواجَه بشيء، فيختلف حسب اختلاف الأشياء والمواجهات، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه، كما لا تقاس إقامة الوجه إليه وتسليمه لديه بسائر الوجه.

فوجه الرب هو الوجهة التربوية التي يواجه الله بها خليقته يوم الدنيا والآخرة، ويواجهونه بها في الدنيا والآخرة، فبوجه الله من الوجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة والعشي، وبهذه الدعوة يريدون الوجهة التربوية ليوم الدنيا تقرباً إليه وتكرماً لديه، وحظوة مما عنده من حياة إيمانية، فالمؤمن دنياه آخرة! وليوم الآخرة الوجهة التربوية ثواباً عند الرب وزلفى، واجهات خمس هي كلها وجه الرب[٣] حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة والعشي! كما ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٤] يعني الوجهة التربوية الأخروية التي تخصها دون الدنيا، والدنيوية تخصها دون الأخرى! فليس وجه الرب وجهاً عضوياً لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، ولا من المشبهة المجسمة، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضاً مؤلّفة وأعضاء مُصَرَّفة، ومن ثم لوجه الله معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجه.

---

(١) كما في ١٣: ٢٢: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ - و٥٥: ٢٧: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ - و٩٢: ٢٠: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - و٦: ٥٢: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ - فالمجموع خمسة موارد.

(٢) كما في ٢: ١١٥: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ - و٢: ٢٧٢: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ - و٣٠: ٣٨: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ و٢٨: ٨٨: الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

(٣) فللرب وجه يوم الدنيا: شرعته - التقرب إليه بها - الحظوة بهما يوم الدنيا - ووجه يوم الآخرة - قرباه الحظوة الثواب.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

فلأنك كأول العابين وكرسول لا تعني من الحياة جاهاً ولا متاعاً ولا عرضاً من الحياة الدنيا، وإنما وجه ربك، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه، تناسباً فتناسقاً وتناصراً في هذه السبيل.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾:

العينان لهما عدوٌ ومد، وعينا أهل الله لا تمدان إلى غير الله وأهله، وما سوى الله كله الحياة الدنيا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ﴿...مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

وإنما هما ناضرتان ناظرتان إلى الرب والذين يدعونه يريدون وجهه، منحصرتان بهم منحسرتان عمن سواهم.

وهل ﴿عَيْنَاكَ﴾ هما الظاهرتان الباصرتان؟ ومدَّهما إليهم دون رعاية ورقابة ومرحمة ليس مد الرسول ﷺ! أم هما عينا عقله وقلبه، فبعقل الوحي يعقلهم عما لا يحمد، وبعين القلب يحبهم أم ماذا؟ ولا يكفيان مداً، والباصرتان الظاهرتان تعدوانهم إلى سواهم! أم هما عينا القلب بما معه، والقالب بما معه، أن يكرّس نفسه بطاقاتها وإمكانياتها نظرة ناضرة إليهم، مراقبة عليهم؟ وهو جمع جميل والله على ما نقول وكيل!.

﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾:

وهل أن إغفاله سبحانه قلباً يعني وجدانه غافلاً فهو في الحق غافل عاطل، كما يقال «لله دركم يا بني سليم! والله لقد قاتلناكم فما أجبناكم

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

وهاجيناكم فما أفحمناكم وسألناكم فما أبخلناكم» أي: لم نجدكم جبانين عند النزال ولا أعياء عند المقال ولا أبخال عند السؤال[1].

وذلك احتشاماً عن أن يُغفل الله قلباً وهو مذكر لا مُغفِل؟ ولكنما الصحيح والفصيح للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص كـ (وجدنا قلبه غافلاً) كـ ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2] دون أصبرناه.

ثم الإغفال لا يختص المسيَّر، أن يُغفل الله قلباً دونما اختيار منه وتقصير، بل إنه غفلة معمَّدة ثم إقفال ومن ثم إغفال فامتناعاً للذكر بتعمد واختيار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[3] ﴿... وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[4].

فالمتغافلون الغافلون الدائبون في غفلتهم وغفوتهم ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[5] أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فأغفل الله قلوبهم عن ذكره طبعاً عليها وختماً.

ثم ترى أن إغفاله لقلوبهم هو تركه لهداها أن ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6] وفي غيهم ووعيهم يترددون، فـ ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: تركناه غفلاً من السمات والكتابات الإيمانية، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم

---

(١) مجازات القرآن وتلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص ٢١٢.
(٢) سورة ص، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة النحل، الآيات: ١٠٦ - ١٠٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1] وهم خلو القلوب منها، وكما يقال: أغفل البعير: تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات، اللهم إلا الطبع والختم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]؟ ومجرد الترك وإن كان ينتج بقاء الغفلة ولكنه ليس إغفالاً، فإنه إيجاد للغفلة بعد الذكر، أم غفلة على غفلة!

أم إنه مزيد في غفلة معمدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاءً وفاقاً في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم: إن الله أقفل قلوبهم عن الذكرى فأغفلها استمراراً فيها فمزيداً عليها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ بعد الإغفال كما قبله وأكثر دونما تفكير في هداه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل الإقفال والإغفال، حيث الغفلة المعمَّدة دركات بعضها فوق بعض، فإغفالها على حسبها دركات بعضها فوق بعض، آخذة من ترك التوفيق، فختم وطبع فدفع إلى مزيد من الغفلة وهو الدرك الأسفل من الإغفال.

وقد يعني ﴿أَغْفَلْنَا﴾ هنا كل هذه مترتبة: إن وجدنا قلبه غافلاً عن عمده فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته وحتى شرح بالكفر صدراً فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته، إذ كان له قبل طبعه الرجوع إلى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل أن أغفلنا قلبه واتَّبع هواه من قبل ومن بعد في تزايد دركاته، وما أجمله جمعاً بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ وواقع المعنى!.

اتِّباع الهوى على غفلة معمَّدة وأمر فُرُط مضيع يتبعه جزاءً له إقفال القلب فإغفاله فاتِّباع مفرط للهوى وأمر فرط في اتّباع الهوى! ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾[3] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[4]!

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٩.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

لا تطع - وإن كانت رجاء لاهتدائهم - من غفلوا عن أنهم عبيد وهو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطامنوا من نخوتهم ولا خففوا من غلوائهم، ولم يستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله العباد إلا من التُّقى أو هو أتقى!.

ذلك القلب المقلوب، المليء من الشهوات والطنطنات، في أمر إمر من فرطات، إنه ليس قلب إنسان، بل هو مربض الحيوان ومزبل الشيطان! «لا تطع...».

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

آية محكمة تحكم عرى الاختيار وتجتث جذور الإجبار «فمن شاء... ومن شاء» فمشية الإيمان والهدى تجلب زيادة الهدى من الله واستمراريتها: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] كما مشية اللاإيمان والردى تجلب غفلة دائبة أو زيادتها بإغفال من الله.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حيث يربيكم دلالة فتوفيقاً للهدى فمن شاء وتقبَّل الحق يثبته عليه ويزيد، ومن لم يشاء وأعرض عن الحق يختم على قلبه ويغفله، فإنه ظالم في نكران الحق، يظلم نفسه ويظلم الحق وأهله، ليس الحق ملكاً لأحدٍ ولا مخولاً فيه لأحد حتى يجامل فيه فيماري ويداري ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾! فالحق - إذاً - لا يعتز ولا ينتصر بمن لا يبغونه إلا عوجاً، وإنما يعزّ وينصر من يبغونه خالصاً بلا تجوير ولا تحوير، والذي يترفع عن الذين يبغونه ناصحاً ناصعاً لا يرجى منه أي خير ولا لنفسه فضلاً عن قبيل الإيمان!.

إنه لا حقَّ لائقاً غير زائغ ولا خليطاً بغير حق إلا من ربكم، والخطأ

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

جائر كائن لغيره أياً كان إلا من عصمه ربه بوحيه، فلا تطلبوا مني دَخِلاً في حقه ولا بخلاً وانحصاراً في مواجهة حقه - وهذا ختام الكلام ومن ثم.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ . . .﴾:

السرادق هو الفسطاط وسرادق النار هو زبانيتها المحيطة والمشتملة على أهلها. فلا ينجو منها ناجٍ ولا يطلق منها عان حيث ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1] حبساً يحصرهم وطولاً يقصرهم فـ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾[2] فسطاط من نار هي حصير مؤصدة: مغلقة مطبقة.

هذا وكما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات وحصرتهم في دنيا الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الأخرى.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ على إياسهم من مُغيث، ولكنما الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾: دردي الزيت المغلي ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ بمواجهته قبل شربه، وهل يشربونه. وهو كالمهل؟ أجل[3]! لأن الإغاثة ليست فقط عرضاً للماء وإن لم يشربوا بل هي إشراب

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨.

(٢) سورة الهمزة، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٦٠ ح ٧٩ في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قال: تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل: إنهم يومئذٍ في شغل عن الأكل والشرب؟ فقال عليه السلام له: إن ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب، أهم أشد شغلاً أم هم في النار فقد استغاثوا ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ وحميم يغلي به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً.

لهم، ولأن سرادق النار يضطرهم لشرب أياً كان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[(١)] ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[(٢)] ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾[(٣)]!.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ماءه كالمهل ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكئاً يعتمد عليه بالمِرفق، كما المرفقة هي المخدة، وكما ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[(٤)] هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق؟!

شراب كالمهل «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه»[(٥)] مشويّاً، حرقاً من حرارته وحرقاً من ثخونته، أو فضة مذابة وهي أحر وأحرى أن تشوي الوجوه[(٦)]!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾:

﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لا فقط إيماناً، وإنما عمل الإيمان، حيث ينبثق العمل

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] قال: كعكر الزيت وفي تفسير القمي قال أبو عبد الله عليه السلام: المهل الذي يبقى في أصل الزيت المغلي.
(٦) فلعل التشبيه بعكر الزيت لأنه المشهود لهم دون الفضة المذابة، ووجه التشبيه هو الثخونة بحرارة وإن كانت أكثر من الدردي بكثير، بل ومن الفضة المذابة أيضاً.
وفي الدر المنثور ٤: ٢٢١ أخرج جماعة عن ابن مسعود أنه سئل عن المهل فدعا بذهب وفضة فأذابه فلما ذاب قال: هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار.

من الإيمان، لا إيماناً دون عمل، ولا عملاً دون إيمان، وإحسان العمل هو أن يعمل الصالحات: التي تصلح انبثاقاً من الإيمان، وتصلح لساحة الربوبية قولاً بعمل، وقولاً وعملاً بنية، وقولاً وعملاً ونيته بإصابة السنّة!

لا ضياع هناك في حساب الله لا إيماناً: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[1] ولا عملاً ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا إحساناً أياً كان في عمل أم إيمان ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

لا تجد في سائر القرآن إيماناً صالحاً إلّا قرناً بعمل صالح، كلما ازداد الإيمان ازداد عملاً صالحاً، وكلما ازداد صالح العمل ازداد إيماناً، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواءً صافية ضافية تصلح لطائره كدحاً إلى ربه فملاقيه!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾ بساتين تجنّ أشجارُها أرضها، تجري من تحتهم الأنهار» تحت الأرضية أم سطح الأرضية، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بأرضها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حلية الرجولة للرجال، وحلية الأنوثة للنساء «من أساور»[3] جمع سِوار: حلية المعصم، أم: دستواره الفارسية «من ذهب» فمهما كانت هي محرَّمة يوم الدنيا للرجال ولكنها حِلية محلّلة يوم الأخرى، إلّا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية وتمس من كرامة

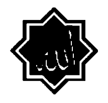
(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٣) الدر المنثور ٤: ١١ - أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي ﷺ قال: لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوؤه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم أقول يعني شمس الآخرة ونجومها فلا يرد عليه أنها مكورة أو مطموسة وفيه أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً.

الربوبية ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾: مارق من ديباج و«إستبرق»: ما غلظ منه وقد حلّت لهم بعدما حرّمت[١] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السرائر الأريكة[٢] ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ خلاف ما للظالمين في النار ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق!

في مرتفق الجنة تنعُّم حلوٌ قرير، وفي مرتفق النار تهكُّم مرير: لأولاء نار معتدة مؤصدة في عمد ممددة، ولهؤلاء حلية من أساور وثياب خضر من سندس وإستبرق، أولاء يستغيثون من ظمأ النار وحريقه فيغاثون بما يزيدهم ظمأً وحريقاً ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فكيف بالحُلوق والبطون، وهؤلاء لهم بهجة المنظر واعتدال النسيم ولهم فيها ما يشتهون نزلاً من غفور رحيم!



(١) المصدر أخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهل الحلية والحرير ويقول: إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا وفيه أخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر وقال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلقاً تخلق أم نسجاً تنسج؟ قال: بل يشقق عنها ثمر الجنة.

(٢) المصدر أخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سريراً بغير حجلة لم يكن إريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة، وفيه عن الحسن قال: لم نكن ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبر أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير وأخرجه مثله عن قتادة وعكرمة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ لقبيل الإيمان والكفر، أهل الجنة والنار ﴿مَّثَلًا﴾ يمثل حالتهم وحوارهم وجوارهم، مبدأهم ومنتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها، نفس فقيرة مفتقرة إلى الله، ونفس ثرية مستغنية عن الله، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى الله، وتلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضائه، حيث يذكر الله ويذكر نفسه أنه عبد مفتقر إلى الله!

والقرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ وحقه قصّاً صالحاً عما سبق، وتذكيراً بها صالحاً فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ، أم تاريخية لا تأثير لها تربوياً في إبناء التأريخ.

وها هي قصة الجنتين، لهما ميزات أربع تجعل لهما جمالاً راقياً وثمراً رابياً:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلولا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنساً، لا جمعاً: ﴿أَعْنَابٍ﴾.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ حفاظاً على الأعناب، وتجميلاً للجنتين، وردفاً لما يثمر كثمرها، غذاءً وإداماً وشراباً، وعلّ النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[1] وجمعاً: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[2] إذاً ففيهما ألوان النخل والأعناب، حافة ومحفوفاً بها.

٣ - ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ يزيدها ثمراً وجمالاً فوق جمال وثمر، وعلّه

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة ق، الآية: ١٠.

مختلف الثمر كمختلف النخل والأعناب، فإن يكن واحداً جيء بصيغته، حنطةٍ أو شعير أماذا؟.

٤ - ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ خلالاً بينهما يفصلهما عن بعض، وخلالاً في كل منهما سواقي تجري من تحتهما، كما تجري من تحت الجنة أنهارٌ!

جنتان مثمرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف النخيل، بينهما زروع، ونهر متفجر، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة وجمال رائع ومال جامع!:

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ من أعناب ونخل وزرع عدلاً.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ لم تنقص من أكله شيئاً، حيث الظلم هو الانتقاص أياً كان ومن أيٍّ كان، جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، مهما اختلفت إرادةً وشعوراً أم دونهما، اختياراً أو اضطراراً، أم بينهما كما النحل حيث تنحل بيتاً وعسلاً غريزياً دون اختيار تام أو اضطرار!

ولكنما الجنة دون النحل اثماراً وتركاً، والظلم في الأصل من الأفعال الاختيارية القبيحة، ولا تُقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، وإنما حسن التعبير عن هذا المعنى اللا اختياري ولا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فإذا أخذ حقه منها على كماله وتمامه حسن القول: إنها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ حيث لم تمنع منه مستحقه، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها، ولأن الظلم أصله الانتقاص اختيارياً أم دونه قبيحاً أم سواه حسب اختلاف الفواعل شعوراً وسواه في درجاته، تكليفاً وسواه في درجاته، فهو إذاً حقيقة أم استعارة لطيفة جميلة!

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ما يزدادها بهاءً وثمراً وارتياعاً!.

ومما يزيده جمالاً مقابلة اللّاظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة

حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر، وقد امتلى نفسه بالجنتين وازدهى النظر إليهما، إحساساً بالزَّهوْ، وتنفشاً كالديك، واختيالاً كالطاووس، تعالياً على صاحبه وهو يجاوره ويحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أمّاذا من كلام فاضٍ أجوف أخوف.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾: لما جعلناه له من جنتين - لصاحب الجنتين - لا كُل الجنتين - أو للنهَر ﴿ثَمَرٌ﴾ وكلها معنية - وعلّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عِدة وعُدة ومُدّة أماذا من ثمر - وقد تلمح «كان» بسابق الثمر زمناً متداوماً، أم وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا...﴾.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ الذي يصاحبه مِلكاً أو شغلاً أماذا من صحبة وتعارف ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ حول شؤون الحياة ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ حيث ﴿لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ من ولد وخدم وأعوان مناصرين لأن لي مالاً وثمراً!

وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حواره هذا، وتفخيماً لجانبه وتذليلاً لصاحبه، وتغافلاً عن ربه، ظلماً مثلثاً يرجع إلى نفسه فنكراناً للنشأة الأخرى!:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وكيف دخل؟ وكيف هي جنته وهي جنة الله حيث أعطاها إياه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾؟

إنه دخل على رعونة وكبرياء، وطنطنة وخيلاء، متحسِّباً أنها منه وله دون الله، وكما قاله أخوه قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[١] وتلك الجنة أم أي

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

مال ومنال لأيٍّ كان وأيان هي من الله ابتلاءً، امتحاناً أو امتهاناً، فكم من كادح كثيراً لا يفيده إلّا قليلاً، وكم من كادح قليلاً أو مرتاح يستفيد كثيراً!.

فهي - إذاً - جنته إذ جعله الله مستخلفاً له فيها ردحاً باختيار، وهي جنة الله لأنها من الله فلا قوة إلّا بالله.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ انتقاصاً لها تناسياً عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه ربه وهو معترف به: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ تأبيداً لجنته وهي بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وماذا يعني هذا الأحمَق النكد البَطِر من أبد جنته؟ هل البقاء دون فناء! بقوته أم قوة الله؟ والدنيا بحذافيرها دار فناء! أم البقاء ما هو باق، وماذا الذي يضمن له ذلك البقاء، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناءً! أم ماذا، مما يشهد على أية حال أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ في قولته الخواء البتراء!.

ومن خلفيات هذا الأبد نكران الساعة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ترى وما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد، إن هي إلّا جنة الثراء من ثمره وجَنته، فـ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ في جنونه المعمَّد المختار، تسامحاً عن عقله.

وجِنّة ثالثة من جنته ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ كاحتمال أخير على بعده فما يضرني إذاً حيث ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ تخيلاً بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة بأحرى من جنة هذه الساعة! وما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟

هذه ظِنَّة الجاهلين من أثرياء وفقراء أن من أوتي الحياة الدنيا فهو في الآخرة أحرى ممن لم يؤتها، ويكأن الله يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والثراء بما طغوا وبغوا، يجازيهم في الأخرى ثواباً بدل العقاب، فما أظلمه إذاً من إله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(١)]!.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء، والفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من الله وعطاء، إذاً فلتكن الطغوى بديل التقوى يُستحق بها ثواب الآخرة بعد الأولى!.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وكيف وبماذا؟ ألأنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الأولى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[(١)] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٢)].

أم لأن الله يخافكم فيفضلكم فيها كما فضّلكم - بحسبانكم - في الدنيا - وهو يُخاف منه ولا يَخاف!

أم لأنه يُخلِف وعده جهلاً أم ظلماً أو عجزاً أم ماذا؟ وما ذلك إلّا جهالة وجِنة ممن أترَفَته الحياة الدنيا، تنفّخاً منها وتنفّجاً فيها!.

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر، ولكنه غني بالله، فقير المال غني الحال، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال، غني المال، كواعظ منبّه، تنديداً به في حواره، وتهديداً له في بداره:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ[(٣)] وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾:

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٣) قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ [الكهف: ٣٧] - ومن قبل - فقال لصاحبه، حيث يعبر عن كل من الموحد والمشرك أنه صاحب للآخر يدلنا على أن لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الإيمانية أو الشركية، وإلّا لأصبح هنا المؤمن مشركاً والمشرك مؤمناً، فاستدلال إخواننا بآية الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] أن أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول الله إنه مخدوش بآيتي الكهف، فالثابت من الصحبة ليس إلّا صحبته في الغار وأما الصحبة الإيمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلّا قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ =

هل أنت كافر بمثلث: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ وأنت مقرٌّ أنه ربك ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾!.

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حواره صاحبه الكافر النكير، فلا يبالي مالاً ولا نفراً، ولا يداري ثراءً ولا بطراً، ولا يماري إلّا مراءً ظاهراً وجدالاً بالتي هي أحسن بصامد الإيمان وخالص اليقين والاطمئنان، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره، تزييفاً لموقفه الكافر وتثبيتاً لموقفه المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ لا سواه من آلهة مختلفة مختلقة، هو ربي في حلي وترحالي، في كافة أحوالي، تتمثل ربوبيته الوحيدة فيَّ على أية حال، دون أن أوحّده في لفظة القول ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ ثم أشرك به في الفعل: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا ﴿٣٦﴾﴾ كأنه رب لربه يملكه، دون أن يملكه ربه.. لكنا..

﴿لَّٰكِنَّا۠... وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ في أي مقال أو حال، في ماض أو مستقبل أو حال!

أترى ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الإيمان؟ وقد يصح لفظياً ومعنوياً ثم يبعده ﴿رَبِّى﴾! أم هي مدغمة «لكن أنا» وهو أقرب، إعراضاً عن الإنية والأنانية المشركة لمحاوره الكافر وتعريفاً بكيانه كمؤمن، ف ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ بيانٌ واف لكيانه «أنا» وأين «أنا» من كافر و«أنا» من مؤمن؟!

الكافر يجعل «أنا» محوراً رئيسياً وحتى لربه وكما قال ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ كأنه يملك ربه، والمؤمن يجعل «أنا» لا شيء إلّا ما ربّاه ربه «لكن أنا»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾!

= [التوبة: ٤٠] حيث اختص سكينته بالرسول ﷺ دونه وهو بحاجة حين يحزن إلى السكينة وقد ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] و(٤٨: ٢٦)! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج: ٢٦.

هنالك ثالوث من «أنا» أنحسه دعوى الألوهية من غير الله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾(١) ثم دعوى الوحدة الحقيقة مع الله «أنا هو وهو أنا» ثم أنا المحور والله الحائر حول هذا المحور، ثالوث الانحراف والانجراف إلى الإنية والأنانية.

وصالحه «أنا هو الله ربي» حيث ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الأصل الأصيل ولا خبر عني «أنا» إلا ما هباني ربي، فأنا صفر الوجود وهو صرف الوجود، أنا مبتدئٌ هو مُبدِئه وخبره ومبتدئه ومنتهاه ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ وما أحلاه توحيداً(٢).

أترى أن صاحبه كان مشركاً ناكراً للمعاد لمكان الظِنَّة الكافرة ذات أبعاد ١ - ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ تأبيداً للحياة الدنيا ٢ - ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ترديداً في الحياة الآخرة ٣ - وتنديداً بوعد الله للمؤمنين ووعيده لغير المؤمنين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي...﴾!.

أم إنه لم يكن مشركاً وثنياً يعبد أصناماً، حيث المشركون ينكرون المعاد وهو متردد ﴿مَا أَظُنُّ...﴾ ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ ولهم أرباب متعددون وهو يقول: ﴿رَبِّي...﴾ وهم بعاد عن ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلّا أن يؤمنوا، وقد رجاه صاحبه أن يقوله!

فهو إذاً أشرك بربه بزهوة الثراء والخيلاء كما هو للأغنياء الأغبياء ذوي الأنفة والكبرياء، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في تمنّيه بعد الحسبان تنديد بنفسه أن حسب قوته وجنته تكفيان بقاء بإدرار واستمرار لثمره من دون الله، وهذه حالة شركية تتمثل لكل من جَنَّتُهُ الثراء وإن كان من الموحدين في قوله الخواء. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٢٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً».

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ...﴾:

«لولا.. قلت: ما شاء الله كائن لا ما شئته أنا ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ دونني أنا، فأنا إنما أمشي وأمضي على هامش مشيئة الله، دونما استقلال في نفسي ولا استغلال لمشيئة الله، و﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعم المشيئة التشريعية والتكوينية سواء، لا شريك له فيهما سواء، فلا شرعة صالحة إلّا من الله، ولا تكوين أياً كان إلّا من الله، من خير ف «الخير كله بيديه» ومن شر ف «الشر ليس إليه» لأن تكوينه - أياً كان - ينتهي إلى إذنه، فلولا إذنه أخيراً بعد اختيار المختار لم يحصل إذ «لا مؤثر في الوجود إلا الله»: فإنه «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

ليست الاختيارية في فعل إلّا بمقدمة أو مقدمات اختيارية، لا إنه بمقدماته كلها اختيارية، مهما اختلفت الأفعال الاختيارية ثواباً وعقاباً بقلة أو كثرة في مقدماتها الاختيارية والاضطرارية، فما يشاءه الله من شرٍ أنت تفعله باختيارك لا يصبح اضطرارياً لأنه شاءه، إذ ما شاءه إلّا بعدما شئته ولكي لا تجبر على ترك الشر كما ولا تجبر على فعله وفعل الخير أو تركه، مهما يمتاز الخير بتوفيق من الله، وليس الله بموفق شريراً في شره:

ف ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين والتشريع، إذ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فإن كل قواتك من الله، وهي لا تكفي حولاً عن معصية الله وقوة في طاعة الله إلّا بالله، فهما بُعدان متناصران في قوةٍ بالله، ثم ولا تكفي فعلاً لمعصية الله وتركاً في طاعة الله إلّا وأخيراً بقوة الله، فبقوته أعطاك امتحاناً ما تشاء التخلف عنه، ثم بقوة منه أخرى يشاء ما تشاء مما لا يرضاه تشريعاً، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعاً، ليس لأنه مغلوبٌ في عصيانه، بل تحقيقاً لواقع الاختيار الامتحان.

وقد يعني ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»[١] حيث القوة في ترك المعصية حولٌ عن معصية الله، والقوة على الطاعة قوة بالله، فـ «لا حول عن معصية الله إلّا بقوة الله ولا قوة على طاعة الله إلّا بعون الله»[٢].

وإنها باب من أبواب الجنة[٣] وكنز من كنوز الجنة[٤] ودافعة كل آفة حتى تأتي المنية[٥] ومبقية لكل عطية إلّهية[٦] وتزجر الشياطين بها الملائكة[٧]

---

(١) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ قال: ما هو؟ قال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»:

(١ - ٢) المصدر - أخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: أخبرني جبرئيل أن تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله أنه...

وفي معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: سألته عن معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال: معناه: لا حول لنا عن معصية الله إلا بعون الله ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بتوفيق الله عز وجل.

(٣ - ٤) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ وأخرج نصه أو ما في معناه جماعة آخرون.

(٥) المصدر أخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩] إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

(٦) المصدر أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أقول: وقد فسره الرسول ﷺ بإضافة الحول كما قدمناه وهنا وقبله يستدل لها بالآية وليس فيها «حول».

(٧) نور الثقلين ٣: ٢٦١ ج ٨٥ في محاسن البرقي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال لي: إذا خرجت من منزلك في سفر أو حضر فقل: بسم الله آمنت بالله توكلت على الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوهها وتقول: ما سبيلكم عليه وقد سمى الله وآمن به وتوكل على الله وقال «ما شاء الله ولا قوة إلا بالله»؟!.

ودواء من كل بلية[١] مهما كانت حرقاً أو غرقاً[٢] أم أية بلية! فـ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ و﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]:

فليقل الموحد ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وليفعل ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ وليعتقد ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ...﴾! فيصبح بكيانه ككل ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ لا في لفظة القول دون فعل واعتقاد أم وفي أي منهما أم فيهما دون لفظة القول.

أنت وكل فاعل مختار إنما تعمل بقوة الله، منك المشية والاختيار وتقديم ما عندك من طاقات وإمكانيات، ومن الله التوفيق بإزالة الموانع وتهيئة ما لا تسطع من الأسباب فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين»!.

﴿... إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾:

لك جنة قد يرسل عليها ربي حسباناً[٤] من السماء خلاف حسبانك فيها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾! ولي جنة خيرٌ من جنتك هي لا تبيد أبداً ولا يرسل ربي عليها حسباناً من السماء إلّا رحمة متواصلةً ورضواناً، فأين جنة من جنة، وأين عقلية إيمان وجِنة؟:

(١) الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا حول ولا قوة بالله» دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٦٠ ج ٨٤ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أربع لأربع - إلى قوله: والثالثة للحرق والغرق: ما شاء الله ولا قوة إلا بالله وذلك أنه يقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] - قول - وقد أحرقت جنته بحصبان من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٤) الحسبان هو الحساب وهو هنا ما يحاسب عليه فيجازى وهو الظن، فالحسبان الأول في المتن هو الثاني والثاني، هو الثالث، فقد يكون عذاباً بحسبان أو رحمة بحسبان فليس الحسبان إذاً - فقط - حسبان العذاب.

و«عسى» هنا ترجٍّ دون تردد تأدباً أمام وعد الله الحق، علّه يؤهل له! أنا هنا أقل منك مالاً وولداً وهنالك في يوم الله أكثر بل ليس لك هنالك إلّا حسبان بدل الجنة والرضوان، وأنت هنا أكثر مني مالاً وولداً قد يُرسلُ عليها حسبان كما لك هنالك حسبان، وأين حسبان من رضوان.

جنتك قد تصبح بكفرانك صعيداً زلقاً: لا ماءَ فيها ولا كلاء ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾!

فقد تصطدم الجنة ببرودة أم حرارة زائدة فتيبس ثم تجبر حيث تعمّر، ولكنما الحسبان من السماء يجعلها غير قابلة الزرع والإنماء - إذ ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: دحضاً لا نبات فيه.

أم قد يقل الماء المتفجر أم يُسد بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية، ولكنما الغور إبعاد له أو إفناء ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾!.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾:

لقد حصل فعلاً ما أنذره صاحبه حيث ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بما أحاط الله ثمره بحسبان من السماء أمّاذا، فاستأصل ثمره ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وقد تكون هذه الإحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ...﴾[1] والإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها ولا مخلص منها: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: ثمر مدمَّر من كل جانب وكأنه لم يكن له ثمر، حيث لم يبق له أثر إلّا ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ و﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الإنفاق النادم حيث تهدّر دون أي ثمر ﴿وَهِىَ﴾ الجنة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مهشمة محطمة تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً «وهو يقلّب كفيه» أسفاً على ماله الضائع بحاله

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.

الضائعة ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ ولات حين مناص وفرار عما قدّمه، ومن ورائه جهنم وبئس القرار! ترى ولماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة: آتت - أكلها - لم تظلم - جنته - هذه - منها - جنّتك - من جنتِك - عليها - فتصبح - ماءها - فيها - عروشها -؟

علهما لأنهما أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل بينهما جدارٌ من نخل، فدخوله في قسمٍ منها دخول فيهما، أو أنه دخلهما.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾:

ورغم نفره من ولد وسواهم ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أحاط الله وقد كان يعتز بمال ونفر ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وبمن ينتصر؟ بمن لا ينصرونه أو ينصرونه؟ أمن الله؟ ولا قوة إلّا بالله! أو من حسبان السماء؟ وليس إلا أمر الله! فـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ لا لسواه إلّا باطلاً.

وماذا تعني ﴿هُنَالِكَ﴾ حيث تخص بها الولاية لله؟ وكيف يوصف الله بالحق ولا إله إلّا الله الحق؟ ثم ثوابه وعقبه خيرٌ من أيٍّ كان ولا خير إلّا منه؟

فهل ﴿هُنَالِكَ﴾ تشير إلى مكانة الحيطة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلّا الله حيث تعني الولاية النصرة، فمهما كانت الإصابة من غير الله تُدفع بغير الله، فالإصابة الخاصة من الله لا دافع عنها إلّا الله الحق، دون الآلهة الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه، فحين تتقطع الأسباب وتحار دون الحيطة الغيبية الألباب، تصرخ الفطرة أن لا إله إلا الله، و﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ دون سواه!

ولكنه على صحته في نفسه لا يناسب ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ حيث الموقف هنالك هو العقاب وليس الثواب!

أم إن ﴿هُنَالِكَ﴾ البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى، فالولاية النصرة والمالكية للتدبير هي ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ دون الآلهة الباطلة ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من سواه لو كان لهم ثواب ولا ثواب لسواه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ عاقبة من سواه لو كان لهم عُقب ولا عقب لسواه، أو إن ﴿خَيْرٌ﴾ مقابل الشر فليس هنا تفضيلاً، فليس الخير ثواباً وعقباً إلّا له، ولمن سواه الشر ثواباً وعقباً!

وهذا على حقه في نفسه، وبالنسبة لثوابه وعقبه قد لا يناسب الحيطة المدمرة الإلهية، اللّهم إلّا وهو أشد تنكيلاً وعقاباً!

أم إن ﴿هُنَالِكَ﴾ يجمع بين الموقف يوم الجمع ويوم الدنيا حين يحاط بالإنسان فيجمع بين المناسبتين، فإذا كانت ولاية النصرة والتدبير لله الحق دون آلهة الباطل، ففروا - إذاً - إلى الله الحق، فهل تريدون من الآلهة إلّا ثواباً وعقباً فهو ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾!

إن الولايات الهامشية الاختيارية لمن سوى الله ليست إلّا من قبل الله كما ولّى استخلافاً دون تخويل، فلا تركنوا إليها اللّهم إلّا إلى حقها[1] دون باطلها، تذرعاً إلى تحقيق أمر الله، والزلفى إلى ولاية الله، ولتكونوا على نُبهة دائبة ألّا ولي إلّا لله، ولا ثواب ولا عُقب إلّا من الله، ففي ظل ولاية الله تتوارى الولايات كلها، و﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾!

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾:

(١) ومن حق الولايات الهامشية ولاية الرسول ﷺ وفي ظلها ولاية علي عليه السلام والأئمة المعصومين من ولده، وقد تبرز ولاية علي عليه السلام تأويلاً لـ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] كمصداق مختلف فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما رواه في الكافي بإسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] قال: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ورواه مثله عن عبد الله عبد الرحمن بن كثير عنه عليه السلام.

هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس أكثر تفصيلاً: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

ألا إن الدنيا «كروضة اعتمّ مرعاها وأعجبت من يراها، عذبٌ شربها، تمج عروقها الثرى وينظف فروعها الندى، حتى إذا بلغ العشب أبانه واستوى بنانه، هاجب ريح تحت العروق، وتفرق ما اتّسق، فأصبحت كما قال الله ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(٢) فهي إذاً «لا تعدو إذ تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾(٣).

أترى ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ قد لا يناسبها، فإنه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات الأرض!

أم هي أدنى الحياة العقلية إلينا وأقربها، من ورائها الحياة البرزخية والأخرى وهما العليا؟ ويناسبها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولكنما العاقبة ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا...﴾ قد لا تناسبها! -

أم هي الدنيا بمعنييها حيث يناسبان موضعيها «ماءً وهشيماً»؟ وهذا أنسب وأحرى!

فكما الماء النازل من السماء طاهرٌ في نفسه، عالٍ في مكانه ومكانته، وحين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت، فلولا الماء فلا نبات ولا كلاء،

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) نور الثقلين ٣: ٣٦٢ ح ٩٢ في روضة الكافي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام حديث طويل في الزهد في الدنيا وفيه يقول عليه السلام: «فهي كروضة..».
(٣) عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

كما لولا بذور النبات لم يفد الماء، ومن ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر بزخرفاته يصبح هشيماً تذروه الرياح، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات.

كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض البدن ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾(١) وأرض الأرض: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٢) فاختلط به نبات الأرضين زينة وزخرفة، ثم يصبح البدن ومن ثم أرض البدن بنباته هشيماً تذروه الرياح! والهشيم: الكسير الرخو، والذرو: التفريق، فالرياح تفرِّق كسير النبات ورخوها كأن لم تكن شيئاً!

مشهد للحياة الدنيا، خاطف قصير يلقى في النفس لها ظل الفناء في مثلث نزول ماء السماء وخلطه وهشيمه، فلا بقاء إذاً لدنياها، والباقي هو ماء السماء، روح الإنسان بعد تهشُّم البدن بدنياه، فليتزود نازل السماء من منزل الأرض زاداً لأخراه.

ألهذه الخليطة الهشيمة، الحطيمة اليتيمة الزهيدة، القصيرة الوهيدة، لهذه تتنافس، فتتقاعس عن واجب الحياة، عن أخراها إلى أولاها، لحدٍّ تظن ألّا تبيد هذه أبداً؟!

حتى متى الغفلة والغفوة عن حق الحياة وحاقها، إلى باطلها وزائلها ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٣).

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾:

أترى أن زينة الحياة الدنيا محرَّمة على أهلها؟ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ

---

(١) سورة السَّجدة، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الروم، الآية: ٧.

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾[١]!.

فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، ومنها زائلات طالحات لا خير فيها ولا ثواب إلّا شرٌّ وتباب!

الأعمال كلها باقيات أقوالاً وأفعالاً ونيات، من صالحات وطالحات باغيات، فالصالحات خير عند ربك ثواباً كما الطالحات شرٌّ لا تخلِّف إلّا عقاباً، والصالحات خيرٌ أملاً يأملها فاعلها في الدارين، والطالحات شرٌّ أملاً في الدارين: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[٢] وإذا كان الإنسان يتعلق بالمال والأولاد ثواباً وأملاً ومرداً، فالباقيات الصالحات منهما وسواهما خير ثواباً وخير أملاً وخير مرداً!

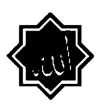
وزينة المال والأولاد قد تكون باقية صالحة لحد توخذ في كل مسجد ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٣] حيث تشمل المال إنفاقاً له في كل مسجد والأولاد تعبّداً كأمثالكم في كل مسجد، فيصبحان على زينتهما من الباقيات الصالحات، فزينة المال والأولاد كسائر الزينة في الحياة الدنيا هي زينة الله حيث زينها الله وجعلها وسيلة للحياة الأخرى، ولكنما الشيطان يزينها زينة أخرى أنها دائبة تُرغَب في نفسها فتزلُّ فيها قدم بعد ثبوتها، أو تضل حين ورودها لمن أبصر إليها فأعمته ولم يبصر بها فبصرته: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾[٤] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

فللزينة قيمةٌ ما تزيد في قيمة الإنسان وهي الباقية الصالحة، وليست لها قيمة ما تنقص من قيمة الإنسان وتجعله كحيوان، وهي الباقية الطالحة، وما أهونها وأحونها زينة تسلب قيمة الإنسان بدل أن تجلب قيمة للإنسان!



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾:

وترى أين وأنى يبرز خير الباقيات الصالحات ثواباً وأملاً ومرداً؟:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ...﴾ وهنا يجمع ردفاً بين يومي القيامة إماتة: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ...﴾ وإحياءً: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ...﴾ جمعاً للموتى في الحياة فحساباً وجزاءً وفاقاً!

وبماذا يعطف ﴿وَيَوْمَ﴾ في بروز الباقيات الصالحات والطالحات؟ علّه قبله يوم البرزخ فإنه دار جزاءٍ برزخ، وقبله الدنيا حيث يُرى فيها الباقيات الصالحات والطالحات بشيء من آثارها، مثلث من الحياة في كلٍّ حسبها يُرى آثار الصالحات والطالحات، وكما آية السعي تسعى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] كضابطة عامة تبتدىء من الدنيا ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2] انتقالاً إلى البرزخ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[3] إلى الحياة الأخرى، فليست المساعي والصالحات موقوفة في ثوابها وأملها ومردّها في الحياة الأخرى، بل تبرز بدرجات أو دركات في مثلث الحياة.

و﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ هي قيامة الأرض بما فيها وعليها، باقتلاع الجبال عن أصولها وتسييرها سريعة لحد ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ببروز قواعد الجبال

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النجم، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النجم، الآية: ٤١.

والأتلال، وسراباً: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[(١)] حيث «تذل الشم الشوامخ والصم الرواسخ فيصير صلدها سراباً رقراقاً ومعهدها قاعاً سملقاً» ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾[(٢)] أرضاً مستوية ملساء دون انخفاض فيها ولا ارتفاع.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ في قيامة التعمير بعد قيامة التدمير، ولكلٍّ رجفة تناسبه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾[(٣)] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾[(٤)] ولعلّ من بروز الأرض إشراقها بنور ربها حيث تطوى ظلمتها وظلاماتها طياً، كما وأنها تبرز أثقالها المخبوءة فيها ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[(٥)].

وإنه الحشر العام والتام دون إبقاء: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ من الأوّلين والآخرين: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[(٦)] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾[(٧)].

حشر تبدى فيه الأرض بارزة عارية من أتلال وأشجار وجبال وعن بنايات أمّاذا من حواجز وفواصل بروزها صافية مستوية، فالقوة التي تسيّر الجبال وتصيّرها كالعهن المنفوش، ماذا ترى تفعل بما دونها من أتلال أم ماذا؟: فللأرض بروز أوّل رفعاً لحواجزها، وبروزٌ ثانٍ إخراجاً لأثقالها،

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٠.
(٢) سورة طه، الآيات: ١٠٥ - ١٠٧.
(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧.
(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٦٨، ٦٩.
(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٢.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٩٩.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

وبروز ثالث إشراقاً بنور ربها، ومن ثم جمعٌ على ظاهرها الساهرة ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[(١)] والمغادرة هي المشاركة والإخلال بالشيء، فلا متاركة مع أحد ولا إخلال بأحد!

تتكشف الأرض وتتكشف خبايا من يُحشر على الأرض فلا تخفى منها ولا منه خافية:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

أترى أنهم لم يكونوا بمعرض ﴿رَبِّكَ﴾ حتى ﴿وَعُرِضُوا۟﴾ بعد حشرهم، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[(٢)] في الدنيا والآخرة، ثم ومن هذا المطلع عليهم قبل ﴿رَبِّكَ﴾ حتى يعرضهم على ربك؟

إن الكون كله بمعرض الله أياً كان وأيان، ولكنما العرض على ﴿رَبِّكَ﴾ عرض على ربوبية، فهنا عرض أوّل طول الحياة الدنيا على ربوبية التكليف وهو أمانة الرب على العواتق ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٣)] وهناك عرض على ربوبيته الجزاء ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ولا يعرضهم إلّا ربك أو من يعرضهم من عمّاله بإذنه لموقف التساؤل والحساب فالجزاء، دون أن

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٥ ج ١٠٦ في كتاب جعفر بن محمد الدرويستي بإسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] غشي عليه وحمل إلى حجرة أم سلمة فانتظره أصحابه وقت الصلاة فلم يخرج فاجتمع المسلمون فقالوا: ما لنبي الله؟ قالت أم سلمة: إن نبي الله عنكم مشغول، ثم خرج بعد ذلك فرقى المنبر فقال: أيها الناس إنكم تحشرون يوم القيامة كما خلقتم حفاة عراة، ثم قرأ على أصحابه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]:

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

تخفى منهم خافية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[١] فليس العرض كما الأشهاد لأنه خافٍ عليه خافية ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٢].

ولأن العرض فيه الهول المطّلع، وآياته تخص عرض الظالمين، فهو - إذاً - خاص بغير المؤمنين، وأما هم فوافدون إلى ربهم وفد الكرام إلى الكريم.

﴿وَعُرِضُوا﴾... ﴿صَفًّا﴾ فهم بصفهم في عرضهم يزدادون هولاً، فهنا صف هائل لأهله، حيث لا حكمة فيه إلّا هوله، وفي القتال صف هائل للعدو ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٣] وأين صف من صف! ثم الخطاب الهائل لذلك الصف والعرض الهائل: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ ويكأنه خطاب حاضر، لا مستقبل، تجسيماً وتحضيراً لموقف الخطاب العتاب!

وترى كيف المجيء بمعرض الرب ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ لقد خُلقنا فرادى دون ما خُوِّلنا ولا شفعاء وكذلك نجيئه كما خلقنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٤] هذا مجيءٌ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومجيء آخر معه ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[٥] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٦] فكما خلقناكم فرادى جئتمونا

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٨.
(٣) سورة الصف، الآية: ٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

فرادى، وكما خلقناكم من تراب جئتمونا عائدين كبدئكم من تراب، كما خلقناكم أوّل مرة جئتمونا ثاني مرة:

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1] زعمتم إحالة موعد العرض والحساب، وحسبتم عبث الخلق وعدم الرجوع والإياب، ولذلك اثاقلتم إلى الأرض ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة!:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾:

ذلك الكتاب هو كتاب الأعمال الصوتية والصورية أمّاذا كما استنسخه الله ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] استنساخاً لنفس العمل كأعمال ف ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ﴾ «كأنه فعله تلك الساعة»[3] فلو لم تكن نفس الأعمال وكانت حكاية أخرى غيرها لم يجدوا ما عملوا حاضراً! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أن يكتب ما لم يعمل من سوء، أو يكبت العامل أزيد من استحقاق جزاءً غير وفاق، أم لا يكتب سوءً أو ينقص من سوء ظلماً على تاركي السوء أمّاذا؟.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ بمعرض المحشر حيث يراه ويسمعه ويفهمه صاحبه

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٦٦ في تفسير العياشي عن خالد بن نجيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة رفع الإنسان كتابه ثم قيل له: اقرأه - قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنه يذكره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم إلّا يذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وفي نقل آخر وقال عليه السلام: يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه كأنه فعله تلك الساعة - ثم استدل عليه السلام بالآية.

وسواه، وواويلاه من هذا العرض وذلك الوضع، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم يتأملونه ويتملّونه فإذا هو جامع لما أجرموا دون إبقاء ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين على حبه، حبّاً لأنه منهم، وخوفاً من عقباه الحاضرة، فالإشفاقُ «من» يزيد خوفه على حبه، والإشفاق «في» يزيد حبه على خوفه، فلأن إشفاقهم خالٍ عن رجاء فخوفه زائد على حبه، بل ولا حب بعد هُنيئَة يرون جزاءً ما فيه ويتمنون فراقه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والهين حائرين آسفين ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما له من قوة ضابطة حافظة، لهذا الشريط والمسجلة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ معصية ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[2] إحصاءً لنفس الصغيرة والكبيرة ورسمها لا اسمها، وكل مسجلة أم شاشة تلفزيونية إنما تحضر ما تلقته إذا سلمت وبقيت على حالتها الأولى حين سجّلت، وهذا الكتاب، المسجلة الأرضية بفضائها، والبدنية بأعضائها أماذا، نراها تودي أمانتها بعدما تمزقت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ... يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا... بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[3] ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ بما سجله الله وأحضره ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ...﴾! وليس حضور العمل حضوراً لما يحكي عنه من قولة حاكيه أم كتابة، اللهم إلّا حضوره نفسه وقد انقضى أم تجسّمه وهو

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ - أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي ﷺ: اجمعوا من وجد عوداً فليأت به ومن وجد عظماً أو شيئاً فليأت به، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً فقال النبي ﷺ: أترون هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل لا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه.

(٣) سورة الزلزلة، الآيات: ١-٥.

تجشُّم! إذ ليس انقلاب العمل - وهو صورة - إلى جسم - على فرض إمكانيته ليس هو هو أو صورته، ثم لا مبرر لهكذا قلب للعمل ولا يجدي نفعاً!

إن العمل أياً كان يُستبقى دون عامله بزمانه ومكانه، ويستنسخ منه صور أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]: ف ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعني أصل العمل المستمر وزيادة هي ما استنسخ منه في كتب صوتية وصورية أخرى من أرض بفضائها، ولا حضور للعمل معقولاً هو حجة على العامل إلّا نفسه، وتزيده ما معه من صور مستنسخة أخرى، إذا فتجسُّمه تجشُّم وليس به، واللفظ أو الكتاب الحاكيان ليسا نفس العمل، فلا معنى صحيحاً ممكناً هو حجة على العامل إلّا حضور العمل، أم حضور صورته التي استنسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سواء أكان عمل القلب أو القالب، في مثلث من الصور المعنوية والصوتية والصورية، كذلك الله يفعل ما يشاء، حجة عينية حاضرة، وصورة حاذرة، وحصَباً في سيرته، فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] مثلثٍ من الأهداف العادلة الكافلة لما يرام من العمل يوم القيامة! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾!

في ذلك الكتاب مربع من الشهادات، عينية سجلتها الأرض:

١ - والأعضاء، ٢ - وقوليه، ٣ - يشهد بها الشهداء من الأنبياء، أمّاذا، ٤ - كتبها الكرام الكاتبون، يعلمون ما تفعلون، علّه قولة أم كتابة التعبير، أم تسجيلة لصور الأعمال وأصوات الأقوال في سجلات الأرض والأعضاء أمّاذا؟

وعلّ هنالك كتباً ودواوين منها ديوان السيئات كما الحسنات والنعمات

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الطور، الآية: ١٦.

على حدّ المروي عن الرسول ﷺ [(١)] فالكتاب الموضوع جنسه الشامل لها، يشمل كل كتاب يحصي الأعمال كما يشمل كتاب كلٍّ من العمّال!:

وترى هذه الكبيرة تُحصى في كتاب الأعمال فما بال الصغيرة تحصى وهي مكفَّرة؟

إن الصغيرة مكفرة إذا تُركت للذين آمنوا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[(٢)] ولكنما الصغيرة التي تعمل مع الكبيرة، أو لغير المؤمنين لا تكفر! ويكفي الكفر كبيرة تحصى معه كل صغيرة وإن لم يأت بكبيرة أخرى!

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾:

لقد كرمكم ربكم إذا أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأهانكم إبليس إذ فسق عن أمر ربه، ثم أنتم هؤلاء تتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو، وترفضون ولاية ربكم، فاذكروا فيما تذكرون... ﴿وَإِذْ قُلْنَا...﴾.

وترى أن إبليس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فلم يكن من الملائكة، كيف - إذاً - يشمله ضمن الملائكة الأمر بالسجود لآدم؟

أجل إنه لم يكن من الملائكة - قطعاً - فإنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[(٣)] ويفعلون ما يؤمرون- «إن الملائكة معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بألطاف الله تعالى»[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٢٩ - أخرج البزاز عن أنس عن النبي ﷺ قال: يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله عليه.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٦٧ ج ١١٧ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في هاروت =

إنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ وكان مع الملائكة وكانت الملائكة تراه أنه منها، وكان الله يعلم أنه ليس منها فلما أمر بالسجود كان منه ما كان»[١] «فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب»[٢].

نتلمح كتصريحة من عدم اعتراضه على الله: «لم يشملني الأمر إذ لم أكن من الملائكة» وإن الله أمره بخصوصه أم في الملائكة ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٣] إنه شمله الأمر ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهو أعقل من أن يتحول إلى قياسٍ باطل بدل البرهان! فقد ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كوناً، ومن الملائكة كياناً ومحتداً في ظاهره حتى تبين أمره حين تخلّف عن أمر ربه!

وقد فرّع فسوقه عن أمر ربه بكونه من الجن، ولو كان من الملائكة لم يفسق.

أم ويعني معنى ثانياً: كان ممن يجن ويستر عن الملائكة كونه من الجن وكونه كافراً ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فتبين لهم أنه كان من الجن وأنه كافر، وعلى المعنيين معنيّان وما أجملهما جمعاً ومما يلمح لثانيهما «كان» حيث الأوّل كائن ما كان دون حاجة إلى صيغة المضي، ولكن إخفاءَه عنهم كوناً أو كينونة هو الذي «كان» ثم ﴿فَفَسَقَ﴾ تفريع للأول، وعطف ترتيب للثاني!

= وماروت وفيه بعد أن مدح عليه السلام الملائكة وقال: معاذ الله من ذلك أن الملائكة.. بألطاف الله تعالى - قالا: قلنا له عليه السلام: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً: فقال: لا - كان من الجن أما تسمعان الله تعالى يقول: ﴿... كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] فأخبر عز وجل أنه كان من الجن وهو الذي قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٧ ج ١١٩ في تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة وهل كان يلي من أمر السماء شيئاً؟ قال: لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من أمر السماء شيئاً كان من الجن...

(٢) المصدر ج ١١٨ في أصول الكافي عنه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الملائكة كانوا يتحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم فاستخرج:

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

فسق عن أمر ربه لأنه لم يكن من الملائكة وهم معصومون بل كان من الجن الوارد منهم الفسق، وكان ممن يجن حالته الكافرة، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١) ففسق عن أمر ربه بالسجود إذ لم يتمالك نفسه العاتية المستكبرة أمام آدم! ثم و﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ علّه استثناء منقطع إذ كان من الجن، وأمره بالسجود يخصه كما أمرهم يخصهم، أم متصل عُني من الملائكة الكيان الملائكي في واجهة الأعمال الإيمانية الملائكية، إذ كان معهم يعبد الله بضعة آلاف من السنين لحد اعتبروه منهم ولأقل تقدير كياناً، أم أمر بأمرين يخصه ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾(٢) ويعمه مع الملائكة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وعله أجمل حيث المتمرد بحاجة إلى تأكد من الأمر، فليُؤمر بأمرين!

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ حيث لم يسجد لآدم، وعدوٌ لله حيث عصاه - تتركوني وأنا ربكم وتتولونه وهو عدو لكم ولربكم ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ! وماذا تعني ولاية الشيطان وذريته؟ قد تعني الولايات الإلهية كلها حسب مختلف دركات العقائد في اتخاذ الشيطان وذريته أولياء.

من ولاية العبادة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٣) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾(٤) ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾(٥) فمن الناس من يعبد الشيطان خوفاً منه وتقية لكيلا يضره، وعبادته أضر الأضرار، فراراً أخبث من الحفرة بدخول البئرة.

ومن ولاية الطاعة ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٤١.

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾(٢).

ومن ولاية التكوين والتدبير والتشريع والتقدير، بمختلف العقائد الشاردة المارِدة عن صراط الحق في ذلك البدل البعيد السحيق و﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾! ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(٣):

وترى كيف انتشاء الذرية وانتسال الأنسال من إبليس؟ أمن زواج الزوجين؟ ولم يأت ذكر ولا إشارة في الذكر الحكيم عن شيطانة، وقد ذُكرت إنسانة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(٤)!

ولكن التعبير بـ ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(٥) يلمح أن فيهم أيضاً نساء حيث الرجولة والأنوثة من المضايفات، كلٌّ تطلب الأخرى، فلتكن الذرية منهم بين رجال ونساء، دون أن تباض بيضات كما في بعض الروايات!

و﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هنا هم من القدة غير الصالحة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾(٦) فلا موقع للقول: لعل التناسل هو بين صالحي الجن دون مَن دون ذلك! مع أن الصلاحية هنا لا تعني صلوح التناسل، وإنما العقيدة والعمل، ووحدة الجنس بين الصالحين ودون ذلك الشامل للشياطين، إنها تحكم بوحدة الكيفية في انتسال الأنسال!

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.
(٥) سورة الجن، الآية: ٦.
(٦) سورة الجن، الآيتان: ٦، ٧.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾:

أترى من «هم» في ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ و﴿أَنفُسِهِمْ﴾؟ أهم فيهما إبليس وذريته كما هما محور البحث في آية السجود من عصيانه النكير وولايته بذريته! فسلب الأشهاد في الخلقين لزامه سلب ولايتهم الإلهية كيفما كانت؟ حيث الولاية التامة لزامها الإحاطة العلمية وفي القدرة، أن يحيط فيهما بخلق السماوات والأرض، أم - وعلى أقل تقدير - بخلق أنفسهم، فيصبحوا إذاً من أعضاد الربوبية، بُعدان بعيدان عمن سوى الله أياً كان!

فلو كان الإشهاد بإحضارهم على علم، فليكونوا كائنين قبل كونهم، وقد خُلقوا بعد خلق السماوات والأرض فكيف يُشهَدون خلقهما، وقد خُلقوا ولم يكونوا شيئاً مذكوراً فكيف يُشهدون خلق أنفسهم؟

وإن كان إشهاداً دون إحضارهم، بأن عرّفهم حقيقة خلقهما وخلقهم أنفسهم بعد خلقهما وخلقِهم، كأنهم كانوا حضوراً حين الخلقين، فأحاطوا بهما علماً وقدرة، فلهم الولاية إذاً بما أُشهدوا؟ ولكن الله ما أشهدهم! ولو أشهدهم لكانوا يعلمون غيب السماوات والأرض كما الله، أم وغيب أنفسهم كما الله، فكانوا قادرين عليهما وعلى أنفسهم كما الله، حيث العلم التام هو القدرة التامة! وهي الولاية الإلهية على سواء.

ثم لو أمكن اعتضاده تعالى بعضد مستحيل في بعدين كالأول، أم في بعد واحد كالثاني، لكان يعتضد بعدول هادين دون المضلين ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾!

إن الله تعالى يحيط بعض الشيء كإشهاد ثان بعض عباده شيئاً من كونه أو كله، إراءة للملكوت، وولاية جزئية دونما اعتضاد لنفسه ولا تخويل لهم، ولكنهم هداة وفي قمة العبودية والعدالة، وأما أن يتخذ المضلين عضداً

﴿وَمَا كُنتَ﴾ منذ بدء التكوين ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ولماذا عضد لمن هو على كل شيء قدير ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾(١)؟ ولماذا المضلين وشأنه الرحمة والهداية؟!

إذاً فأيّة ولاية إلهية بعيدة عن الشيطان وذريته في أبعاد عدة، بعد الاستحالة في نفسه كما الإشهاد الاوّل أم في ساحة الربوبية كما الثاني!.

ثم ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ كما هم أعداء الله، فكيف يتخذهم عضداً، اللّهم إلّا لمزيد إضلال فيما الله يعجز عنه فيعتضد بالشيطان وذريته! فسبحانه سبحانه وتعالى عما يشركون!

فهل يتخذ الله من غير المضلين عضداً حتى يتخذهم وهم مضلون عضداً صيغة صائغة مجاراتاً لأوهام المشركين لاستئصالها ببرهان مكين متين!

إنه لا عضدَ لله يعتضد به، وإنما له أولياء في شرعته بما أشهدهم إياها: ولاية شرعية، دون ولاية تشريعية، أن لم يشهدهم جذور مصالح التشريع حتى يشرعوا بل هو الذي ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾(٢) دون أن يخوّلهم تشريعاً اللهم إلّا حكماً بشرعته جماعياً وفردياً وفي كافة الحاجيات المختلف فيها بين الأهواء والعقول وفي مختلف الحقول!

وأما ولاية التكوين، فهي منحصرة في الله في أصلها: التكوين لا من شيء، وقد يمنحها الله في فرعها: التكوين من شيء كآيات النبوات بقلة في إراءة الملكوت كإحياء الموتى فيما تطلّبه إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ﴾(٣) وبكثرة فيما هم فيها مظاهرُ لفعله كخلق الطير للمسيح فإنه في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

جسمه بإذنه، وفي روحه بإذنه، دون تكوين للمسيح إلّا خلق الطين كهيئة الطير في صورة، وأما هيئته في حقيقته ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ فضلاً عن روحه ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾[1] فإنما هما من تكوينه تعالى لا تكوينه!

فلا ولاية إلهية هي من خلفيات العلم المحيط بالكون، لأحد من خلقه، اللّهم إلا شرعية بما أوحى، أو تكوينية كأداة صورية لا حقيقية!

ثم لـ «هم» في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ و﴿أَنفُسِهِمْ﴾ وجوه ثلاثة أخرى وما قدمناه أصح وأحرى.

١ - إنهما راجعان إلى من يتولون الشيطان وذريته في كل ما مضى من إشهاد وهو في نفسه صحيح، لا لهم فحسب، بل ولمن سوى الله ككل، حيث ما أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم - ولكنه لا يناسب ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ حيث المتولون هؤلاء لم يدّعوا كونهم أنفسهم أعضاد الله، وإنما الشيطان وذريته حيث يتولونهم كأنهم أعضاد لله!

٢ - إن الأول راجع إلى الشياطين والثاني من يتولونهم، أن الشياطين ما أشهدوا خلق الكون ليُتخذوا أولياء، وهم ما أشهدوا خلق أنفسهم، أنها في الكيان بحيث يتخذونهم أولياء؟ ولكنما التولي هكذا لا يحتاج هكذا إشهاد لخلق أنفسهم، وإنما وحي أو كتاب أو أثارة من علم أمّاذا؟ ثم يكفي سلباً لهذا التولي ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

٣ - عكس الثاني أن المتولين الشياطين ما أُشهدوا خلق السماوات والأرض، والشياطين ما أشهدوا خلق أنفسهم، فإذ لا يحيطون علماً بالسماوات والأرض فكيف يتخذون الشياطين أولياء من دون الله، أتخرصاً

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

على الغيب أن الله اتخذهم لهم أولياء وأذن لهم؟ أم علماً بالغيب ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ وما أشهدت الشياطين خلق أنفسهم أنهم خُلقوا أولياء؟ ولكنما الولاية الإلهية يكفيها الإعلام، دون إشهاد لخلق أنفسهم!

أو يقال: إذا لم يشهدوا خلق أنفسهم فأولى ألّا يشهدوا خلق السماوات والأرض، فأنّى لهم الولاية الإلهية ولزامها العلم التام والقدرة؟

وهذا في نفسه صحيح، ولكنه بنفسه غير فصيح، ولا تتحمله لفظ الآية، حيث ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ عطف على ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ فـ «هم» فيهما - إذاً - جماعة واحدة، حيث اللفظة الصحيحة الفصيحة لاختلافهما «ولا أشهدتهم خلق أنفسهم» بل «ولا أشهدت هؤلاء...»! ٤ - وقد تعنيهما الآية جمعاً بين الحجتين.

ووجه خامس ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض سناداً لولايتهم، ولا أشهدت المتولين لهم خلق أنفس إبليس وذريته ليحيطوا علماً بتأهُّلهم لتلك الولاية!

ووجه سادس يجمع بين الوجوه الصحيحة في نفسها.

وأولى الوجوه هو الأول، ثم هي بين غلطٍ وصحيح مّا ضمن الأول، والجمع بين الصحيحة هو أصح الوجوه!:

إنه تعالى ما أشهد الشياطين ولا المتولين لهم ولا المؤمنين ولا أولياءه المكرمين، خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، لا إشهاد الحضور حيث لم يكونوا حضوراً، ولا إشهاد الإحاطة علماً وقدرة، فإنه ولاية إلهية لا تثنى ولا إشهاد الإطْلاع للمتولين الشياطين أن لهم ذلك التولي! أو لشياطينهم تلك الولاية - ولا أنه يعتضد بمن سواه، ولو كان معتضداً لم يكن بالمضلين ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ -.

فالرسول ﷺ وهو أوّل العابدين وآخر المرسلين ليس عضداً ولا وكيلاً

ولا وليّاً تكوينياً ولا تشريعياً عن رب العالمين: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾[2].

وإشهاد خلق السماوات والأرض وإشهاد نفس المشهود له لنفسه ككلٌّ فيه علم الغيب كله، والقدرة على الغيب كله، فإذ لا ولاية عامة لأوّل العابدين الهادين فكيف إذاً حال أوّل المضلين؟ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾!

وكما أن للعضد الخير الهدى درجات كلها منفية لله، كذلك للعضد الشر الضلال دركات وأحرى أن تكون منفية عن الله، من عضد الولاية الإلهية، أو الرسالة وما دونها من دعوة إلهية بمراتبها، ثم وغير العضد المستحيل لله أياً كان، من أنصار لله فيما صح وأمكن، ليس إلّا لمن هو على هدى ويهدي إلى الحق ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3] ذلك اعتضاد مستحيل لله على أية حال ولندرس منه حرمة اعتضاد المضلين فيما أمكن على أية حال كما لم يتخذ الإمام علي معاوية عضداً[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٦٨ ج ١٢٢ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى جبلة بن سحيم عن أبيه قال: لما بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بلغه أن معاوية قد توقف عن إظهار البيعة له وقال: إن أقرني على الشام أو الأعمال التي ولانيها عثمان بايعته، فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين! إن معاوية من قد عرفت وقد ولاه الشام من كان قبلك، فولِّه أنت كيما يتسق عرى الأمور ثم اعزله إن بدا لك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟ قال: لا! قال: لا يسألني الله عز وجل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبداً ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. =

إن المضلّ وإنْ في جهة من الجهات أو وجه من الوجهات - ما صدق عليه مضل - لا يعتضد، كما لم يعتضد الإمام الحسين عليه السلام من تأبى عن نصرته بنفسه، وعرض عليه فرسه وسيفه(١).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾:

هنا يوم يتجاهلون أن شركاءهم لا يجيبونهم إذ يدعون، وهناك يوم لا يستطيعون تجاهلهم... ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ...﴾ موقف بائس كارث لا تجدي فيه دعوى بلا برهان حيث الديان يطالبهم قائلاً: ﴿نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وهل يقدرون أو يجسرون ألّا ينادوهم لأنهم يعلمون أنهم لا يستجيبون؟

= وفيه ١٢٤ في كتاب الخصال عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وقد ذكر معاوية بن حرب: وأعجب العجب أنه لما رأى ربي تبارك وتعالى قد رد إلي حقي في معدنه وانقطع طمعه في أن يصير في دين الله رابعاً وفي أمانة حملناها حاكماً كر على العاص بن العاص فاستماله فمال إليه ثم أقبل به بعد أن أطعمه مصر وحرام عليه أن يأخذ من الفيء دون قسمته درهماً، وحرام على الراعي إيصال درهم إليه فوق حقه، فأقبل يحيط البلاد بالظلم ويطأهم بالغشم، فمن تابعه أرضاه ومن خالفه ناواه، ثم توجه إليّ ناكثاً علينا مغيراً في البلاد شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً، والأنباء تأتيني، والأخبار ترد علي بذلك فأتاني أعور ثقيف فأشار عليّ أن أوليه البلاد التي هو بها، لأداريه بما أوليه منها، وفي الذي أشار به الرأي في أمر الدنيا لو وجدت عند الله عز وجل في توليه لي مخرجاً، أو أصبت لنفسي في ذلك عذراً، فأعملت الرأي في ذلك، وشاورت من أثق بنصيحته لله عز وجل ولرسوله عليه السلام ولي وللمؤمنين، فكان رأيه في ابن آكلة الأكباد رأي ينهاني عن توليته، ويحذرني أن أُدخل في أمر المسلمين يده، ولم يكن الله ليراني أن أتخذ المضلين عضداً!

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٨ ح ١٢٣ في كتاب مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف أن الحسين عليه السلام قام يتمشى إلى عبد الله بن الحر الجعفي وهو في فسطاطه حتى دخل عليه وسلم عليه، فقام إليه ابن الحر وأخلى له المجلس فجلس ودعاه إلى نصرته فقال عبيد الله بن الحر: والله ما خرجت من الكوفة إلا مخافة أن تدخلها، ولا أقاتل معك، ولو قاتلت لكنت أوّل مقتول، ولكن هذا سيفي وفرسي فخذهما فأعرض عنه بوجهه فقال: إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]:

كلّا! ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أصناماً لا يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أو طواغيت يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ نداء من زعموهم بدعائهم شركاء حيث تبلى السرائر ولا تخبأ الجرائر، أم صلحاء من ملائكة وأنبياء، أمّن ذا وحاشاهم أن يستجيبوا نداء المشركين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ يعلم هؤلاء وهؤلاء أنهم ما كانوا أيّاهم يعبدون فقد كانوا يعبدون أهواءهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾: مهلكاً يهلك رباطاً بينهم كانوا يزعمون ويهلكهم بما كانوا يزعمون، ويهلك غير المؤمنين من شركائهم أوثاناً وطواغيت: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2]:

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾:

ترى وإذا ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ وهم عارفون أنهم أهل النار وهم يرونها، فكيف ظنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ ولم يستيقنوا؟

إن مواقعة النار وهي الوقوع من جانبي النار وأهل النار، هي دخولهم في النار واشتغال النار بهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ...﴾[3] هذه المواقعة رغم أنها واقعة لهم دون شك، ولكنهم حيث يترجون مهلة لهم بين رؤية النار ومواقعتها من ناحية، ويرونهم قريبين إليها من أخرى ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أو أنهم على احتمال النجاة من النار أن يجدوا عنها مصرفاً كما يرجو كل مجرم ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ حال أنهم ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: صرفاً أو مكاناً أو زماناً للصرف عنها، خلاف ما ظنوه من مصرف أياً كان وأيان.

فليس الظن هنا ولا في غيرها علماً كما العلم أياً كان ليس ظناً، فأي

(١) سورة يونس، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

منهما ليس بفصيح ولا صحيح حتى إذا قرن بقرينة وليست في أيٍّ منها! والحديث الوارد في ظن اليقين مطروح أو مؤول(١).

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٦٩ ج ١٢٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] يعني أيقنوا أنهم داخلوها ورواه في الاحتجاج مثله عنه عليه السلام وقد يكون بعض ظن الكافرين يقيناً وذلك قوله ﴿وَرَءَا...﴾ [الكهف: ٥٣].

أقول: قد يعني كون ظنهم يقيناً إنما يظنونه متيقن الوقوع وإن كانوا يظنونه دون تيقن كما نرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يرى ظنهم ففي الدر المنثور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة ما لم يعمل في الدنيا وأن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم».

أقول: فظن المواقعة من هذه المسيرة كما قلناه: أنهم يرونهم قريبين إليها من جهة وبعيدين من أخرى فظنوا قربها ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] فاسم الفاعل دليل الوقوع حالاً رغم استقبال الوقوع مسيرة أربعين سنة في مرآهم!

ففي ٦٢ موضعاً من القرآن ذكر فيها الظن بمختلف صيغة لا نجد ظناً بمعنى اليقين كما العلم واليقين لا نجدهما في سائر القرآن بمعنى الظن، ولماذا يستعمل كل في الآخر أحقيقة وليس بها أم مجازاً ولا مجوز محسناً له ودون أية قرينة، وحتى لو كانت ما كانت محسنة لمجازه!.

ولو تأملوا فيها تأولوه بالعلم واليقين لرجعوا إلى معنى الظن دون تأويل وإليكم موارد من ٦٢ موضعاً:

(١) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] - ظن بربه خيراً أن لن يضيق عليه بذهابه عن قومه مغاضباً، فلا موضع هنا لليقين، حيث المقام محتمل الضيق جزاءَ ذهابه عن قومه، ولكنه ظن لحسن ظنه بربه، ف ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]!

(١) ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] وهو ظن من أوتي كتابه بيمينه وملاقاته حسابه هو لقاء ثوابه، وظنه تواضع منه وحسن ظن بربه، فاليقين منه كان مطالبة حق ثابت.

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة: ٢٤-٢٥] - فإنها ترجو رجاءً كاذباً ألا يفقرهم العذاب تنحياً عن فقاره أم عن أصل العذاب.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] في وصف الخاشعين وهو ظن القلب حيث الخشوع فعل القلب، وظن القلب يوازي يقين العقل ثم وفي ثالث اليقين ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] يصبح يقيناً في القلب كما في العقل وقد يعنيه:

(٤) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ =

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[1] [2]:

ومهما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً فـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكل جدلٍ مثلاً يواصف المقصود بما يمثّله ويقرّبه إلى الأفهام تحقيقاً للحق المرام.

فأية صورة من جدل الإنسان لا تقوى دحضاً لمثل القرآن حيث يضرب إلى أعماق البرهان، فطرة وعقلاً وحساً حيث لا تبقى باقية، مهما بغت جدال الإنسان باغية، فأين مَثَلٌ من جدل، وهَطلٌ من وحلٍ!

هنا نعرف مدى جدل الإنسان في حق أو باطل، فهو ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من شيء الملائكة في حق ومن شيء الجن في حق أو باطل، ومن شيء كائن يوازي الإنسان أياً كان!

إنسان الحق يجادل في التفتيش عن الحق وتحقيقه بكل مثل، وإنسان الباطل يجادل في تهديم صرح الحق وتحقيق الباطل، وأمثال القرآن تحلّق في أجواء الباطل لإبطاله، وفي أجواء الحق لإحقاقه، دحضاً لحجج الباطل دون إبقاء، وقفزاً لتحقيق الحق دون إبقاء.

إن مثل الحق صيغة سائغة للتصريف بمختلف الصيغ، والله يصرف مثل الحق إلى كافة الصيغ السائغة لتنظيم جدل الإنسان فتقويم حقه وتحطيم باطله!

= ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أفهل يكون صحيحاً أو فصيحاً حمل الظن في هذه الخمس على اليقين دون قرينة إلا عدم التأمل ضمن ٦٢ موضعاً من القرآن العظيم؟

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

(٢) مضى تفسيرها في الإسراء فلا نفصله هنا -.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾:

موانع مخيَّرة لا مسيَّرة تصدُّ عن الإيمان والاستغفار، من أمنعها التّرف والاستكبار: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١) سنة بئيسة تعيسة للأوّلين منهم والآخرين، طيلة الرسالات الإلهية حتى الأخيرة، في جدال بالتي هي أسوأ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٢) ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾(٣) ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٤) وأضرابها من الأعذار اللّامعقولة حيث تمنعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم.

ومن هذه السنَّة مطالبة العذاب إن كانت الهدى حقاً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٥).

ولكن هذه السنَّة أو تلك كائنة للمستكبرين ككل وهنا ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ ومن أين تأتيهم وكيف وهي لزام لهم عندهم؟

قد تدخل في هذه السنَّة أو هي الأصل هنا، سنَّة الأولين في عذاب الاستئصال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٦) فعدم إتيان عذاب الاستئصال، أو عدم إتيانه قبلاً كان من موانع الإيمان في زعمهم إلى سائر موانعه! وعند تحقق سنَّة الأوّلين عذاباً واقعاً لا يبقى مدعي الإيمان حينه حتى

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

يؤمن! وعند رؤية العذاب قبلاً لا يفيد الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا. . . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾(١) حيث خيل لهم أن مانعهم عن إيمانهم عدم إيقانهم، فبرؤية البأس يوقنون فيؤمنون.

فإتيان سنَّة العذاب المستأصل أو العذاب قبلاً - ولمّا يأت - هو في عداد موانع الإيمان والاستغفار، موانع حمقاء، ليست إلّا أعذاراً أسوأ من حماقات الطغيان.

وليس إتيان سنَّة العذاب قبلاً أو استئصالاً لإثبات الحق من سنَّة الرسل وإنما هم يبشرون وينذرون حجاجاً وجدالاً بالتي هي أحسن دونما حاجة إلى عذاب أمّاذا؟ ثم العذاب أو الثواب من الله:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

هذه الآية وكثيرة أمثالها تحصر رسالة المرسلين في التبشير والإنذار وتحسرها عما سواها مما يتعنته الكفار من الإتيان بما يتطلَّبون من آيات وما يتكلَّبون خلاف الرسالة الإلهية من أصحاب الرسالات، أمّا يتمناه الرسل فيتحسرون إذ لا ينالون من هدي من لا يهتدي، فتتواتر الآيات قارعة متطلبات المتفتّي، متصدية لتسلية خواطر المرسلين ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ولكن:

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ. . .﴾ فقد يكون الجدال بالحق، وبالتي هي أحسن تفتيشاً عن الحق وتثبتاً للحق فواجب على أهل الحق ودعاته، وقد يكون لتزييف الحق أو تضعيفه، بالباطل كان أم بالحق(٢)، وكلاهما جدال بالباطل لدحض الحق، فحرام مطلق!

وأصل الدحض الزَّلَق، فهم أولاء يجادلون بالباطل ليُزلقوا الحق بعد

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) كأن يجادل ويستدل بقرآن أم سنَّة ليًّا لإبطال القرآن والسنَّة وهو من أنحس الجدال، وهو =

ثباته، ويزيلوه عن مستقراته، فيكون كالكسير بعد قوته والمائل بعد استقامته ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾: آيات الرسل وآيات الرسالات، وما أنذروا من مُخلَّفات التكذيب بتلكم الآيات، اتخذوها هزواً، يجادلون بالباطل: طريقة باطلة لا تعني حقاً، وإنما هزأً ولعبة لتوهين الحق وتهوينه أمام العالمين وهم أظلم الظالمين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾:

هنالك قلوب مفتَّحة لاستقبال الحق، تفتحها أصحابها فزادهم الله تفتُّحاً ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وهنا قلوب مقلوبة مغلقة عن تقبل الحق بإعراض أصحابها عما ذكروا بآيات الرب وتناسي ما قدمت أيديهم فزادهم الله إغلاقاً جزاءً وفاقاً ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾!

فكنّ القلوب عن استقبال الحق ووقر الآذان عن استماعه ووعيه هما بما أعرضوا وقدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد.

هنالك تذكير بآيات الرب ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ لكي يهتدوا ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ولكنهم بدل أن يتذكروا ويهتدوا ويشكروا نعمة ربهم بالذكرى والهدى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: عناداً وتعمداً ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: نسيان التناسي المتعمد ما قدمت يداه من إعراض عن آيات الرب وخلفياته، لحدّ قد يحسبه يحسن صنعاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

= جدال بالباطل حيث الاستدلال لإبطال الحق بمادة الحق وصورته، بتحريف في كيفية الجدال هي من أضل المزال للاقدام.

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

فهنالك - إذاً - الطامة الكبرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أكنة بما قدموها ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بما وقروها فما وقّروها، اثنان باثنين في وفاق عدداً وعُدَداً، ثم النتيجة العاجلة ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ثم الآجلة هي أشد وأنكى!

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾:

﴿الْغَفُورُ﴾ هو معدن الغفر والستر ومنبعه، فهو إذاً ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة ما وجد لها سبيل، لا الرحمة الفوضى التي هي زحمة على الصالحين وراحة للطالحين! ﴿لَوْ﴾ أنه ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ هؤلاء البغاة الطغاة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ آخذة عاجلة ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ في الأولى قبل الأخرى ﴿بَل﴾ كضابطة عامة لا تستثنى ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ لمؤاخذتهم بما كسبوا منذ الموت إلى يوم يقوم الحساب ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾: مخلصاً.

ثم وموعد آخر لمن تمادى في الطغيان يوم الدنيا ومن أمثاله «تلك القرى» الغاربة في عمق التأريخ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حيث الظلم ليس ليُصبر عليه مهما كانت الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ بألسنة رسلهم، فلا يغرنكم إمهال الله لهم فإنه إملال، وإن موعدهم آتٍ في مستقبل أم حال، وسنَّة الله لا تتخلف على أية حال.



وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى
ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ
أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ
ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ
عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى
فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا
فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ
وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ
بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا
فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ

شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

حلقة منقطعة النظير في القرآن كله عن سيرة موسى عليه السلام مع من تعلم هو منه شيئاً مما كان يجهله، تقص مقاطع هامة من قصته تهم السالكين سبيل الهدى، المتعلمين على سبيل نجاة من الردى.

إنها ليست أسطورة مختلفة كما يهرفها الخارفون، بل هي حقيقة تُقَصُّ من عمق التاريخ كسائر القصص القرآنية، تحمل أمثالاً حقة من التربية الإلهية، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وترى أن موسى القصة هو ابن عمران ثالث أولي العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى؟ وأولو العزم هم المفضّلون على من سواهم من رسل وأنبياء أمن ذا في زمنهم وحتى ولاية عزم أخرى علماً وعملاً لدنيا من عند ربنا، فكيف يحمل موسى هذا نصباً في سفره حتى يلقى لنفسه معلماً بأمر الله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن...﴾؟! ومعلمه هذا أياً كان هو من أمته ومتعلمه في شرعته خضراً أمّن ذا؟!

فهل هو - إذاً - موسى غير ابن عمران، نبيّاً أو أيّاً كان، يتعلم من معلِّم له هو فوقه علماً وخبراً؟ وقد ذكر موسى فيما ذكر (١٣٤) مرة يُعنى به ابن عمران، أفي هاتين المرتين اليتيمتين هنا يُعنى به غيره دونما أية قرينة ولا إشارة؟ سبحانك اللّهم إن هذا إلا خرافة جارفة جازفة لا صحيحة في أدب التعبير ولا فصيحة![1].

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٩ - أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل؟ قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أُبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا! فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً تجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً - إلى آخر القصة وقد نذكر مواضيع منها حسب المناسبات - إن شاء الله تعالى.

وفي نقل آخر بنفس السند عنه ﷺ أن موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال: إي رب إن كان في عبادك أحد أعلم مني فدلني عليه قال: نعم في عبادي من هو أعلم منك فنعت له مكانه، فإن له في لقية فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح قد قيل إذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك..

وفي نور الثقلين ٣: ٢٧ ج ١٢٨ في تفسير القمي وفي العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام وكان سبب ذلك أنه كلم الله موسى تكليماً وأنزل عليه الألواح وفيها كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] رجع موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فصعد المنبر فأخبرهم أن الله عز وجل قد أنزل عليه التوراة وكلمه وقال في نفسه: ما خلق الله خلقاً أعلم مني فأوحى الله عز وجل الى جبرئيل عليه السلام أدرك موسى قد هلك واعلمه أن عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل أعلم منك فسِر إليه وتعلم منه فنزل جبرئيل عليه السلام على موسى عليه السلام وأخبره فذل موسى في نفسه وعلم أنه أخطأ ودخله الرعب وقال لوصيه يوشع: إن الله عز وجل قد أمرني أن أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلم منه فزود يوشع حوتاً مملوحاً فلما خرجا وبلغا ذلك المكان وجدا رجلاً مستلقياً على قفاه فلم يعرفاه، فأخرج موسى الحوت وغسله الماء ووضعه على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت وكان ذلك الماء ماء الحيوان فحيى الحوت ودخل الماء:

إنه هنا موسى بن عمران كما في سائر القرآن، وقد ابتلى بسفره النَّصَب بسبب منه حيث خيِّل إليه أنه أعلم ممن سواه في علمي الظاهر والباطن، فقد وكِّل موسى بعلم لا يطيقه خضر كما وكِّل خضر بعلم لا يطيقه موسى فليتعلم كلّ ما عند الآخر ليكتمل بما عند الآخر كما وعلّ آصف بن برخيا وزير سليمان كان أعلم منه حيث آتاه عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، وكان آصف من أمته في الشرعة الظاهرة.

فعلم الشرعة الظاهرة وعلم الباطن قد يفترقان كما في موسى وخضر وسليمان وآصف وقد يجتمعان كما في أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ وكما قد ينتفيان كمن يجهلهما وحياً أمّاذا؟.

وخضر هذا نبياً كان أم غير نبي هو كلقمان[1] كان أعلم من موسى بن عمران في التأويل: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا... قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾! ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2] اللهم إلّا علام الغيوب، أو من علّمه من علم ما كان وما يكون وما هو كائن كالرسول محمد ﷺ وأهل بيته المعصومين!

ولأن القرآن لا يذكر زمن هذه القصة، أكانت في نبوءة موسى قبل رسالته؟ أم كانت في بداية رسالته ولما تنضج النضجة الكاملة بعلم التأويل، أم في نبوته بولاية عزمة وفي قمتها، إذا فكلٌّ محتمل، مع العلم أنه كان يوحى إليه، وإلّا فكيف عرف ذلك الموقف لمجمع البحرين و﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ولا يأتي مثل هذا الغيب إلّا بوحي، اللّهم إلّا وحياً دون نبوءَة كما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[3] فقد تكون هذه المصاحبة قبل نبوته أم

(١) تتضارب الروايات هنا في أن الخضر كان نبياً أو لم يكن نبياً، ولا دلالة في هذه الآيات على نبوته، ولا أثر عنه في سائر القرآن.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

فيها قبل رسالته، أم فيها قبل ولاية عزمه، أم وفي ولاية عزمه، فعلى أية حال لا يبقى إشكال في كيف يتعلم موسى من خضر؟ فإن ولاية العزم في الشرعة الظاهرة لا تلزمها الولاية الباطنة مهما تجتمعان في البعض من أولياء العزم كالرسول محمد ﷺ.

ولكن الرقابة على تكاليف الشريعة تنتج نورانية في الباطن ف ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(١) و﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(٢) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾(٣) فكيف إذا كانت رقابة العصمة في ولي العزم، فليعلم موسى من علم الباطن ما يعلمه خضر وسواه بل وأكثر وأحرى، فكيف يتطلب منه أن ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟

علّه لأنه كما علم الشريعة قد يحصل بتحصيل، وقد لا يحصل إلّا بوحي، فما كل متعلِّم محاول للحصول عليه يوحى إليه، كذلك علم الباطن منه ما يحصل بتلك الرقابة، ورقابة العصمة أحرى وأجرى للحصول عليه ولكن منه ما لا يحصل برقابة كالعلم الباطن اللدني، فعلم الوحي الشريعة لا يستلزم ذلك العلم اللدني مهما يستلزم علماً دون ذلك، فقد أوتي خضراً رحمة من عند الله وعلِّم علماً من لدن الله ليس من مخلفات وحي الشريعة والرقابة التامة عليه!.

ولأن ولاية العزم لزامها الحفاظ على حقوق الأمة ومصالحها في الباطن كما الظاهر، فليعلم موسى الرسول في ولايته العظيمة العزيمة، تأويل قضايا كمثل السفينة والغلام والجدار، فقد يحتمل أن القصة كانت في بداية أمره ولما يعظم ويعزم أمر رسالته القمة - والله أعلم حيث يجعل رسالته!.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾:

مجمع البحرين هو عنوان ملتقاه مع خضر كما أوحي إليه ولكن موسى لا يعرفه بتفصيل، فلو كان عارفه فلماذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سنةً إلى ثمانين وكما جاوزه إذ نسيا حوتهما، فقد يعرف أن فيه ملتقاه وأنه في سفرته هذه يمرّ عليه، كما تلمح له ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لا «مجمعاً لبحرين» حتى تكون له مصاديق عدة، وإنما قال كغير عارف بالملتقى ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ لأن مجمع بينهما كان متسعاً شاسعاً قد يحتاج الوصول إلى منتهاه إلى أن يمضي حقباً وأقله التأكيد على ذلك التصميم وإن لم يحتج وصوله إلى مضي حقب، فحق لموسى وفتاه لمّا بلغا مجمع بينهما أن ينسيا حوتهما حيث بهرهما بلوغ المجمع نَظِرَة الملتقى، وأما فتاه فزاد نسياناً على نسيان لما أويا إلى الصخرة.

موسى الرسول ما كان يعرفه بعينه، ولا أن القرآن عرّفه لنا، فما لنا من سبيل إلى معرفته القطعية إلّا حدسيات: إنه منطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر كملتقى بحري الروم والقلزم أي الأبيض والأحمر، ومجمعهما في منطقة البحيرات المُرة وبحيرة التسماح، أو مجمع خليجي العقبة والسويس الأحمر، أو ما ينتهي إليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب الغربي أمّاذا؟

إلا أن مسرح تاريخ بني إسرائيل المعلوم لدى الجميع يختلف عن مسرح موسى الرسول (صلوات الله عليه) الخاص به، وهو لا يعرفه بتفصيل، وإلا فلماذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؟ فلنترك ما تركه القرآن ونسكت عما سكت الله عنه، وقصارى ما يعرفه موسى من ذلك الملتقى أنه مجمع البحرين وفيه حياة الموتى كما اتخذ غداءه الحوت فيه ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا... و﴿عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا...﴾.

وفتى موسى هو صاحبه الخاص فعلّه وصيه يوشع بن نون بفتوّة صحبة الإيمان[١] وقد يكون ﴿وَإِذْ قَالَ...﴾ معطوفاً على محذوف يناسبه أم على قصة أصحاب الكهف أن يذكره الرسول ومن معه ذكرى ثانية للرحمة الخاصة الإلهية الحانية على عباده الأخصاء وهو من أخصهم، فلتتواتر عليه رحمة من لدنه وعلم من لدنه، ربوة على كل عالم ومرحوم!

ولا ﴿أَبْرَحُ﴾ تصريحة بملاحقة السير في هذه السفرة إذ يقصد من ورائها أمراً أُمير بالحصول عليه إعلاناً لفتاه في البداية استعداداً لوعثاء السفر ونَصَبه، مهما طال الزمن: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ تعبيراً حاسماً عن تصميمه القاطع، عارفاً صارماً بوصوله عاجلاً أو آجلاً إلى ملتقاه في مجمع البحرين.

وهذه من السنن الحسنة مع رفقة السفر التابعين لك أن تعلن دون إسرار كالشمس في رابعة النهار مسيرك ومصيرك في سفرتك دون تحميل عليهم كما ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ دون «لا نبرح حتى نبلغ...» وليجعل صاحبه في سعة من أمره إن شاء لزمه عارفاً بالسفرة وإن شاء تركه.

و﴿لَا أَبْرَحُ﴾ يعني لا أزال سائراً مسافراً دونما انقطاع، مما يوحي بأهمية بالغة للهدف المُرام، إعداداً لفتاه إن شاء استعد على علمٍ بهامة السفر ونصبه.

وليبلِّغه مدى تصميمه مقصداً وزمناً لأقصى حدِّه كما أبلغه ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾! و﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ هنا هو الغاية القصوى من السفر النَّصَب وليجمع فيه بين بحري العلم الظاهر من موسى والباطن من خضر، أو بحري الرسالة الظاهرة والولاية الباطنة، وكما قال له خضر في ملتقاه «إني وُكِّلت بأمر لا تُطيقه وُوكِّلت بأمر لا أُطيقُه».

---

(١) الدر المنثور في الحديث السابق عنه ﷺ «ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون.. وفي نور الثقلين ٣: ٢٧٢ ج ١٣٠ عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه.

فيا لمجمع البحرين من نبضات الحياة وومضاتها حيث الحوت المطبوخ الغذاء فيه يحيى[1] ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ «وعجباً» وموسى الرسول يزداد حياةً من علم الباطن إلى علمه الظاهر وكما الخضر يزداد علم الظاهر إلى علمه الباطن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾:

الحوت هو السمك العظيم، والسَّرَب هو المنحدَر المسبَّل ذهاباً مخيراً، لا سقوطاً أو انقفازاً مسيّراً، أترى أن حوتهما الغذاء أخذاه من مجمع بينهما؟ و﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ عند بلوغ المجمع! فقد كان معهما قبل بلوغه! أو أنه كان حياً معهما في سفرتهما ليطبخاه إذا جاعا؟ ولزامه أن يأخذا معهما ماءً بقدر يكفيه بقية الحياة، وهذا غريب في سفرة كهذه النصب، حِملاً لكثير الماء ليعيش فيه الحوت: السمك العظيم ولماذا هذا التعب الشغب نصباً على نصب؟!

حوتهما هذا كان غداؤهما فليكن مطبوخاً جاهزاً لِغدائهما حيث السفرة لا تسمح للطبخة ولا سيما تلك الساذجة الناصبة، فقد كان ميتاً مطبوخاً وكما في حديث رسول الله ﷺ[2].

---

(١) في الدر المنثور في حديثه ﷺ عن القصة: فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله في البحر سرباً.. وكما في أحاديث عدة ولا نجد في أي حديث أنه كان حياً.

(٢) اتفقت الأحاديث التي تنقل القصة أن الحوت حيي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سرباً وعجباً، ولكنها تختلف في أنه كان مشوياً أو مملوحاً وفي مرسلة القمي وروايات الشيخين والنسائي والترمذي وغيرهم أنه كانت عند الصخرة عين الحياة وفي رواية مسلم أن الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلّا حيي فلما نزلا ومس الحوت الماء =

ثم ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ تصريحة بحياته، فلتكن بعد موته، إذ لا عجب لحيوان البحر أن يتخذ سبيله في البحر سرباً منحدراً إليه، بل وتركه عجبٌ[1].

ترى وماذا كان يدري موسى من الملتقى وماذا لا يدري؟ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ دليل أنه كان يدري أن مكاناً من المجمع هو الملتقى، ولكنه أين هو الذي يحيى فيه ميت وما هو؟ لا يدري أنه حوته وإلّا لم ينسه! ولم يطلبه بعد ذكره غداءه!

فقد ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ فما كان يدري أن الملتقى هو المجمع الذي بلغاه، وإلّا لما تجاوزه! ولا أن الذي فيه يحيى هو حوتهما، وإلّا لماذا اتخذه غداءهما، ولماذا نسيه؟ معلومان ومجهولان لموسى، وفتاه يجهل ثالثاً هو أن حياة ميت فيه آية أنه الملتقى المبتغى وإلّا لما نسيه إذ رأى الحوت ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾!.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾: بين البحرين وبين موسى وخضر، وما درى

= حيي، وفي بعضها أن فتى موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيي، وفي ثالث أنه شرب منه الفتى ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة، وفي رابع أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر ثم الباقية خالية من ذكرها -

ثم في رواية الاحتجاج وغيرها أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، وفي بعض أن موسى لما رجع أبصر أثر الحوت فأخذا أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب، وفي حديث الطبري عن ابن عباس فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا ييس حتى يكون صخرة، وفي أكثرها أن موسى لقي الخضر عند الصخرة، وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها أنه وجده على سطح الماء جالساً أو متكئاً.

(١) المصدر السابق نفسه.

موسى منه ملتقاه وإلّا لما تجاوزاه ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ موسى وفتاه، نسيان موسى كان بطبيعة الحال حيث السالك يركّز على الغاية الملتقى فينسى الغداء أماذا من وسائل اللقاء، ولكنما الفتى لماذا ينسى وقد حمّل حِمله والحفاظ عليه؟ علّه لأنه يُتابع مسيرة موسى فعلى هامشه ينسى أمام الغاية غيرها! وهذا النسيان المشترك كان عند بلوغهما المجمع.

ثم هنالك نسيان ثان يخص فتاه لما أويا الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾: أنسياناً مع موسى فهنالك نسياً وهنا نسيت؟ فهو إذاً نسيان ثان تدخّل فيه الشيطان يخص فتاه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا...﴾ هنا ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ عطفاً على نسيانه، وهناك ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ تفريعاً على نسيانهما، فبينهما فرق قد لا يكون إلّا أن النسيان الأوّل أغفلهما عن كونه معهما ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ...﴾ والنسيان الثاني هو بعد ذكر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فالواو إذاً للحال، أنني نسيته حال أنه اتخذ سبيله في البحر عجباً، نسيت أن أذكره بعد ذلك وأذكّرك، وعلّه لأنه ما أهمته غداؤهما رغم ذلك العجب أمام غايتهما القصوى، فقد يُنسى الطريق والرفيق فضلاً عن الغداء أمّاذا:

﴿فَلَمَّا... نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ استغفالاً عنه إذ لم يكن محوراً في تلك السفرة ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لم يدره موسى ودراه فتاه وكما أخبر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وترى ما هي سبيله السرب؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فمن الصخرة العالية منحدرٌ يُتخذ إليه سبيلٌ سرب فالسبيل هو الطريق المنحدر، والسرب هنا انحدار ثان يزيد السبيل سُبلة وانحداراً.

أو هي عين الحياة المنحدرة من الصخرة إلى البحر[1] وقد حيي بها

---

(١) في عديد من الروايات أنه عين الحياة كما في نور الثقلين ٣: ٢٧٢ ح ١٣١ في عيون الأخبار=

الحوت فاتخذها سبيلاً؟ أم ساقية أخرى وقد حيي بغيرها؟ أم قفزة من منحدره أم لزقة فانزلاقاً إلى البحر وبينه وبينه برٌّ أمّاذا؟ على أية حال ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ - سرباً - عَجَبًا﴾!

فاتخاذ سبيل سرب عجب ذو دلالات على أن حوتهما الغداء الشواء أصبح حياً على الصخرة على غفلة لموسى وذُكرٍ لفتاه، ومن ثم تناساه فنسي أن يخبر موسى بأمره:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ بداية المجمع والسرب العجب ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ الحوت ﴿لَقَدْ﴾ تأكيداً ذا بعدين ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فلنتغذّى لكي نستجدَّ طاقة بدنيَّة نواصل بها سفَرنا، مما يدل أنه كان متغافلاً جوعهما مع نسيان حوتهما، ثم النَّصَب ذَكَّرَه غداءَهما الحوت فطلبه من فتاه، فإنه التعب المنصوب تأتياً في مُداه:

والغَداء هي غذاء الغداة، فلعَّلهما جاوزا مجمع بينهما ليلاً، ولم يعتبره موسى ملتقاه إذ لم يَر ما يريه أنه هو ملتقاه حتى أخبره به فتاه:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ المطلّة على البحر، فأنت رأيت إذ أوينا إليها تخفيفاً عن وعثاء السفر، أو وانتظاراً علّه هو الملتقى ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ماذا حصل له وماذا فعل، بعدما نسيناه مع بعض ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

= عن الرضا عليه السلام قال: قال علي عليه السلام وقد سأله بعض اليهود عن مسائل - وأنتم تقولون: إن أوّل عين نبعت على وجه الأرض العين التي ببيت المقدس وكذبتم، هي عين الحياة التي غسل يوشع بن نون السمكة وهي العين التي شرب منها الخضر عليه السلام، وليس يشرب منها أحد إلا حيي؟ قال: صدقت والله إنه لبخط هارون وإملاء موسى ورواه مثله في كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي عليه السلام وفيه أيضاً بإسناده إلى إبراهيم بن يحيى المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام أن علياً... وفيه أيضاً بإسناده إلى الحكم بن مسكين عن صالح عن جعفر بن محمد عليه السلام عن علي عليه السلام أقول: على اختلاف في بعض الألفاظ واتفاق في عين الحياة:

ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ واتخذ: حال أنه ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ نسيان عجب بعدما رأيته اتخذ سبيله في البحر عجباً حيث الحوت الميت المطبوخ يمشي في سبيله السرب إلى البحر! ولم يكن نسياناً مني تغافلاً عن أمره العجب وإنما ذلك الشيطان أنسانيه أن أذكُره فاذكّرك بسربه العجب.

أفترى الشيطان له سبيل إلى الأنبياء، وكان فتاه يوشع منهم؟ علّه لم يكن حينذاك نبياً، فقد كان وصياً ثم بعد موت موسى أصبح نبياً وصياً! أم بقي وصياً دون نبوة؟[١].

أم إن هكذا نسيان ليس في عداد نسيان ذكر الرب حتى يُنحى عنه الشيطان، فإنما هو حسب الظاهر نسيان الغداء أولاً ومن ثم نسيان السرب العجب، وقد يبرَّران أمام الهدف الإمام وهو التحري عن ملتقى البحرين، ولم يكن يدري فتاه أن من آيات ملتقاه حياة ميت أو علّها هي منها حتى يتذاكر الحوت، رغم أن سربه العجب هو آية الملتقى:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾: ذلك البعيد المدى العظيم المحتوى، الملتقى المدلول عليه بآية السرب العجب ﴿مَا كُنَّا﴾ طول سفرنا ﴿نَبْغِ﴾ه - فلنرجع إلى مجمع بينهما من نفس الطريق الذي جئنا ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ رجوعاً إليه ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ آثار الأقدام في مشيتهما ﴿قَصَصًا﴾: تتبُّعاً لتلكم الآثار كي لا يخطاها.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾:

فيا لوجَد الوجدان من شَعف وشغف، ما يُنسي نَصَب السفر ووعثاءه، وكيف عرف موسى خضره؟ طبعاً كما عُرِّف بوحي الله مكانه، كذلك عرِّف مكانته والمؤمن ينظر بنور الله!

---

(١) لا دلالة في القرآن ولا في السنَّة واضحة أن فتى موسى كان حينذاك نبياً.

تعريف إلهي لطيف بخضر في زوايا ثلاث ١ - ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ ٢ - ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ٣ - ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾!

هنالك عبودية في كمالها دون أكملها - فإنه لأوّل العابدين - فرحمة على صاحبها: ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ خاصة، ثم ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ دون تعلم خَلقي، إنما عِلماً لدنيّا بوحيٍ أو إلهام ليس في نطاق وحي النبوة لزاماً، إلّا الأنبياء الأولياء الذين جمعوا علمي الوحي ظاهراً وباطناً كالرسول محمد ﷺ وأضرابه في الوحي القمة أو إلهامه[١].

وتلك الرحمة ليست هي العلم لقرنها به، فهي من مدارج الرحمة المعرفية والمعارج العملية، فلقد كانت عبودية ذات جناحين، لا علماً دون معرفة ولا معرفة دون علم، مهما كان علم ظاهر الشريعة تقليدياً عن رسول كما كان هو يقلد موسى الرسول عليه السلام، رغم أنه معلمه من علم الباطن وكما قال: «إني وكلتُ بعلم لا تطيقه ووكلت بعلم لا أُطيقه»[٢] وقال «إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله لا أعلمه»[٣].

وقد يكون تنكير ﴿عَبْدًا﴾ هنا للتفخيم كما الإضافة ﴿مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ للإفاضة والتعظيم.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٧٥ ج ١٤٢ في أصول الكافي بإسناده إلى سيف التمار قال: كنا مع أبي عبد الله عليه السلام جماعة من الشيعة في الحجر فقال عليه السلام: علينا عين، فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نر أحداً فقلنا: ليس علينا عين فقال: ورب الكعبة ثلاث مرات لو كنت بين موسى وخضر لأخبرتهما إني أعلم منهما وأنبأتهما بما ليس في أيديهما لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثة.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٨١ ج ١٥٤ في كتاب علل الشرائع عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] لأني وكلت.. وفي البحار ١٣: ٢٧٩ بدل بعلم «بأمر».

(٣) المصدر.

وخضر هذا تتواتر في شأنه الروايات الإسلامية وسواها[١] وأنه باق إلى قيام المهدي (صلوات الله عليه) ولا تنافي حياته لهذا الحد أصلٌ من الأصول الإسلامية، اللّهم إلّا إذا كان نبياً، إلّا بانقطاع الوحي عنه يوم نبئ الرسول محمد ﷺ حيث لا نبوة بعد نبوته ولا وحي بعد وحيه إلى يوم القيامة، وكما في المسيح عليه السلام وهو في السماء حيث ينزل زمن المهدي (صلوات الله عليه)، فالخضر والمسيح وسائر المكلفين أياً كانوا وأيان، إنهم منذ بزوغ الرسالة المحمدية أصبحوا من أمته وتحت لوائه، وهل عزل المسيح عن رسالته بعد نصبه؟ إنه انعزال عن أمته وليس عزلاً! ثم لا بأس بعزل ليس فيه مهانة!

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾:

عند اللقاء الحبيب سلم عليه موسى عليه السلام فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى! قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم - أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه»[٢] «إني وكلت بأمر لا تطيقه» «ووكلت بأمر لا أطيقه»[٣]:

---

(١) هنالك في مختلف النقل والتاريخ قيلات ومقالات حول الخضر لا يهمنا ذكرها إلا ما نبه عليه القرآن في مثلث التعريف بـ ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]!

وقد رويت القصة عن النبي ﷺ كما في الدر المنثور بعدة طرق من أرباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ:

(٢) من حديث رسول الله ﷺ وقد ذكرنا شطرات منها».

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٧ ح ١٢٨ - القمي حدثني محمد بن علي بن هلال عن يونس قال: اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالم الذي أتاه موسى عليه السلام أيهما كان أعلم وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته وهو حجة الله عز وجل على خلقه؟ فقال قاسم الصيقل: فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب أتى موسى العالم فأصابه =

موسى الرسول ﷺ بعدما يتحمل أعباء السفر ووعثاءه ليلقى الخضر، تراه كيف يحترمه ويتأدب عنده، وهو رسول إليه في الشرعة الإلهية، وولي عليه، وإن كان الخضر علّم من علم التأويل ما لم يعلمه موسى فليكونا - لأقل تقدير - على سواء!

ولكنه يعلمنا أن المتعلم أياً كان عليه في سبيل التعلم من أيٍّ كان أن يحترمه ويتأدب لديه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ...﴾؟ دون أن تأخذه طنطنة الأعلمية الرسالية فيقول: «اتبعني آخذ عنك مما عندك»، أو يتنزل شيئاً: ﴿أَتَّبِعُكَ...﴾ ولكنه قال: «هل أتبعك.. استئذاناً منه في اتباعه تعلماً، حال أنه رسول الله، وقد أمره الله أن يتعلم مما عنده!

﴿أَتَّبِعَكَ﴾ اتباعاً لأمرك في سبيل التعلم، ومتابعة لك أينما تذهب، دونما استقلال أمامك فاستغلالك لصالح التعلم، وإنما ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ إن تسمح لي، تواضعاً مضاعفاً أمام المعلِّم مهما كان المتعلم أمامه في شرعته وهو يقتضي كونه متبوعاً أو مساوياً ومستقلاً بجنبه لا تابعاً، ولكنه في مقام التعلم يتأدب هكذا!

و﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ دون «ما علمت» تواضع آخر أنني لا أعني من هذه المتابعة أن أصبح مثلك وإنما ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أن تعلمني بعض ما علّمت! ثم وليس ذلك الاتباع تقليداً أعمى وإنما ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾:

رشداً في اتباعك ورشداً فيما تعلمني ورشداً مما علمت، فاتباع المعلم وتعليم الرشد في أسلوب غير رشيد، غير سديد، كتعليم الضلال في أسلوب رشيد، فإنه ضلال بعيد حيث يخيل إلى المتعلم أنه رشيد.

= في جزيرة من جزائر البحر فإما جالساً وإما متكئاً فسلم عليه موسى فأنكر السلام إذ كان بأرض ليس فيها سلام قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران - قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم - قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إني وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا أطيقه.

فعلى المتعلم أن يكون على بصيرة للحصول على رشدي التعلم بعد رشد الاتباع: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[1]: أي إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه وكيف يأخذه؟

وبهذا الأدب اللائق بنبي يستفهم دون جزم ويطلب العلم الراشد من المعلم الراشد، باتباع راشد فإنه ليس ليستسلم أمام ذلك التعليم ما لم توافق مواده موازين العقل والشرعة الإلهية! لذلك ينبهه العبد الصالح بما يؤول أمره، لاختلاف ميزاني الظاهر عند المتعلم، والباطن عند المعلِّم.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾:

إحالة في تأكيدي: «إن - لن» أن يصبر معه صبراً، ولا في مادة واحدة، حيث النكرة في نطاق النفي المؤكد ولا سيما المُحيل، إنها تفيد الاستغراق الحاسم الجاسم.

ولكي لا تكون هذه البداية مزعجة غير مترقبة من صالح إلى نبي، ويعد هذه الآداب، والحرمات المسبقة، يعذره المعلم في ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ بـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ على ما ترى من خلاف الشرعة وهو خلاف العدالة والعصمة أن يسكت صاحب الرسالة عن التنديد بأمر إمر، أو نُكر، أو خلاف العقل، حيث التقرير زاوية من مثلث السنة! يعذره عن أن يصبر ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وحيطة الخبر لزامٌ عقلي وشرعي فيما يخالف ظاهره الشرع أو العقل، لكي يتغلب باطنه الأمين على ظاهره غير الأمين فيصبر على إمر الظاهر لأمر الباطن، والصبر ما أوله مرّ وآخره حلو فمن دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر...»[2] وموسى يعرف قدر الصبر

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.

(٢) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام واستدل في ختامه بالآية قال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]!.

وموقعه فلا يصبر عما منه الصبر وهو عصيان في ظاهر الشرعة وحتى في احتمال أن آخره حلو!

فالشرعة الإلهية أعلى محتداً وأوجب رعاية وحرمةً من حرمة المعلم أيّاً كان، إذا تناحرتا، فلا طاعة لمخلوق - ولا رعاية - في معصية الخالق، وكما لا معصية لمخلوق في طاعة الخالق، وإنما هي طاعة الله لا سواه، وإحاطة الخبرٌ فريضة عادلة في كل فعل أو ترك أن يعرف وجهه في شرعة الله فيؤتى به أو يترك، بوحي أو اجتهاد أو تقليد صالح، وليس موسى ممن يقلد خضراً فإنما يمشي ويمضي بوحي، ثم التقليد الصالح قد يجابه بما يُحير العقل فسؤالاً وجواباً مقنعاً أم تركاً واعتراضاً محتاطاً!

ومهما يكفي خبرٌ ما في فعل أو ترك لا يرفضه العقل، ويفرضه ظاهر الشرع، فلا يكفي فيما يرفضه حكم العقل وظاهر الشرع إلّا إحاطة الخبر لحدٍّ يحوله إلى مسموح أو مفروض!

نرى موسى حينما يواجَه ويجابه بـ ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ حيث تحيل أهليته لذلك التعلم، لا يتبرّم وينزعج فيترك تعلماً فيه مهانة، بل يجيبه بما يؤهله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ويعذره ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيمضي في هذه الرحلة الدراسية على ضوء ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليم صعب وتعلُّم صعب على عبدين من الرعيل الأعلى في علم الظاهر والباطن.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾:

يقولها موسى ولا يدري أنه يواجه أمراً إمراً أو نكراً أو خلاف العقل! وحيث الصبر - وبمشية الله في هكذا أمر - لا يترجّاه مؤمن فضلاً عن موسى الرسول عليه السلام.

و﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا هي مشية الله تشريعاً فتكويناً فـ ﴿سَتَجِدُنِيٓ... صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مهما أبهم أمره، ما وافق شرعة الله ثم شاءه الله توفيقاً لما أشاءه.

وهذه تكفل حتمية الصبر من موسى عليه السلام شرط ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في بُعديها، فلا خلف في وعده ولا تخلُّف عن مشيئة الله إذ لم يصبر على أمر إمر أو نكر، إذ لا يشاءه الله في شرعة ظاهرة، ولا تكويناً بعد أن لا يصبر موسى حسب تكليفه الظاهر.

أجل ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ إلّا أن يكون أمرك عصياناً لله وإمراً، فقد تمت شروطات وآداب التعلم من موسى عليه السلام وثم ماذا من الخضر؟

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾:

ينبّهه أن أمره يثير السؤال العاجل وقد لا يصبر عنه إلى آجل، فلذلك يشترط عليه لآخر المطاف ترك العجال في السؤال ويربطه بمتابعته التي هي أوّل المطاف في هذا المجال! ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ دون أن يفرض عليه عدم السؤال إلا بشرط اتباعه المطلق في رحلته المدرسية، الذي لزامه التسليم أمام المعلم كما يراه لصالح التعليم، تأدباً أمام موسى الرسول عليه السلام كما تأدب هو أمامه مع أنه إمامه في الشرعة الإلهية!

إذاً فلا سؤال فيما يأتي من أمره كيفما كان ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ﴾ دون سؤال ﴿لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ هو إجابة عن كل سؤال على أية حال في هذه الرحلة العلمية إحداثاً منه وابتداءً دون سؤال! ويا لها من صعوبة أن موسى الرسول المحيط خبراً بكل ما يفعل أو يقول، أو يؤتى أمامه عن أي فاعل أو قائل، أن يسكت طول هذه الرحلة عن مجاهيل الأمر، على احتمال أن فيه نكراً أو إمراً!

لكنه مأمور لمواصلة هذه الرحلة، وهكذا مأمورٍ معذور إلّا فيما لا يُعذر، فعليه التحمل ما لم يكن حِملاً لا يحمله الشرع والعقل، فيرضى موسى محتاطاً في صبره وعدم عصيانه وسؤاله بـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ رقابة تامة على ظاهر الشرعة، وعلى ضوئها ما يحدث في رحلته مواصلة لها، وقد

يتناسى لرعاية الشرعة لزوم صبره وإن كان على أمر إمرٍ، وخضر يستأجله في تأويل ما لم يحط به خبراً، ولكنما التعود على الالتزام بظاهر الشرع ولرسول معصوم لا يمهله أن يصبر حيث يراه إهمالاً للشرع!..

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾:

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ هنا دون «انطلقوا» دليل أن موسى ترك فتاه في الملتقى، ولأن الانطلاق هو التخلي عن وثاق كما الطلاق تخلية عن وثاق، فقد كان وثاق حتى الملتقى فمن هناك الانطلاق، وثاق موسى بفتاه، ووثاقه بعلم الظاهر، ثم وثاق خضر بوحدته وبعلم الباطن، ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يعني لكلٍّ انطلاقين وإلى مجمع بحري الظاهر والباطن:

﴿...حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ...﴾ ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ معرفة تلمح أنها بخصوصها كانت مقصودة للخضر كأوّل المطاف في هذه الرحلة، فلم يقل «سفينة» كما وأن ﴿إِذَا﴾ تؤيد هذه المعرفة المستبقة عن السفينة، فهما إذاً في هذه الرحلة المدرسية ﴿فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ يتابعان واجب التعليم والتعلم! -

﴿خَرَقَهَا﴾! مسافر بأجرة أم دون أجرة[1] ولا يملك السفينة وحتى لو

---

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله ﷺ عن القصة «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا السفينة فلم يفجأه إلا والخضر وقد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عهدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً...

قال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وفي نور الثقلين ٣: ٢٧ ح ١٥١ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام وساق القصة إلى قوله عليه السلام فانطلقا حتى انتهيا إلى معبر (سفينة) فلما نظر إليهم أهل المعبر قالوا: والله لا نأخذ من هؤلاء أجراً اليوم فحمل عليهم فلما ذهبت السفينة وكثرت الماء خرقها...

ملكها ﴿خَرَقَهَا﴾؟ أمرٌ إمرٌ: داهية عظيمة، تستقبل موسى بداية الأمر! لن يستطيع موسى أمامه صبراً فيبتدر في اعتراض: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ كغاية يخلفها خرقها وإن لم يقصد به غرقها ولكنه حسب العادة يعرف غرقها بخرقها! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على أمره بإمره في تأكيدين: «لقد» حيث الإمر وهو الداهية العظيمة هناك، كان إمراً من جهات عدة أعظمها الذي ذكره كغاية كأنها المقصودة فقط: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وفيه ضمن أهلها غرقهما، وفيه - لأقل تقدير - تصرف ضار في مال الغير، فلأن تعريض الغير ولا سيما جماعة إلى الخطر أنكر من تعريض النفس كما هو أنكر من إتلاف المال، لا يأتي هنا من إمر أمره إلّا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ حيث الخرق كان لحد الغرق.

لقد كان موسى عليه السلام هنا معذوراً في اعتراضه بلفظة قاسية، ويعذره موقفه الرسالي من ناحية، وعلّه لم يدر أن خرق السفينة هو من موارد تعليمه ومواده من أخرى، حيث تعوَّد التعلم بوحي الشرعة قولاً، وأمّا أن عملاً ما كهذا داخل في التعليم فلم يتعوده رسالياً، ففوجيء هنا بالخرق الغرق فانبرى غضباناً أسفاً ﴿أَخَرَقْتَهَا... إِمْرًا﴾؟!

سفينة تحملهما بركاب لها وهم وسط اللجة تلعب بها في جزرها ومدِّها، ثم يأتي عبد الصالح في رحلة تعليمية لموسى الرسول عليه السلام فيخرقها ليغرقها وأهلها، إنها طامة كبرى وداهية عظمى تغطي على موقف المعلّم وما وعده موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ ولكن كيف يشاء الله صبراً في مثل هذه الداهية، فحق له أن ينسى ما وعده وإن لم يستثن وقد استثنى! ثم العبد الصالح لا يزيد على ما بدأ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾:

وهذه أوّل خطوة في رحلتنا ما صبرت معها، وكما قلت لك بداية

الرحلة، وما هي الفائدة في تعليم لا تتوفر شروطه ولن:!؟ إذاً فاتركني وشأنك وشأني، أم حاول لإحالة ظاهر الحال الإمر إلى باطن الأمر بصبر هو مفتاح الفرج!

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾:

فإنما نسيت وعدك دون تقصير، بل نسيان أو تناس واجب بظاهر الشرع فترك ذلك النسيان عصيان، فلا تؤاخذني! ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾: لا تغشني بقهر في تكليف التكلُّف ألّا أنسى ومن حقي أن أنسى أو أتناسى ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي﴾ تعلماً في هذه الرحلة العسيرة ﴿عُسْرًا﴾ على عسرها، فإن لم أصبر أنا ولن.. فاصبر أنت إذاً، ولكي نُنهي أمرنا على إمره، فلا تزد إمراً على إمر وعسراً على عسرٍ! والتكليف في عسر مرفوض في ظاهر الشرع ف ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾!

و﴿أَمْرِي﴾ يشمل أمري النسيان والرحلة المدرسية، فلا تندد بي إذ نسيت ولا تترك تعليمي بعدما نسيت.

نرى هنالك اجتمعت المشيئتان التكوينية والتشريعية التي تبنتها إن لم يصبر على أمره الإمر، وينهاه موسى عن مؤاخذته بما نسي وإرهاقه من أمره النسيان والتعليم عسراً، ولو كان نسيانه محظوراً لكانت المؤاخذة عليه حقاً في ظاهر الشرع، فلماذا ينهاه موسى عن مؤاخذة وإرهاق وليس لينهى إلّا حسب الشرع، كما لم يصبر حسب الشرع!

وترى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ...﴾ لم تكن فرية على الخضر وحكماً على أمره بإمره، ومجال الاحتمال لحلية أمره واقع حيث التنبيه المسبق ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾ ﴿فَلَا تَسْئَلْنِي...﴾؟

الجواب إنه سؤال استفهام وليس حكماً، ولم تكن المؤاخذة ﴿أَلَمْ أَقُلْ...﴾ إلّا على سؤاله لا فريته، و﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على فرض

عدم الجواب المقنع، أو حكم بظاهر الشرع دون باطنه فلا محظور فيه، وقد أعذره الخضر!

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾:

﴿فَانطَلَقَا﴾ انطلاقة ثانية في مواصلة الرحلة المدرسية، انطلق موسى تخلياً وتخلصاً عن وثاق الوعد: النسيان الاعتراض في سؤال التنديد، وانطلق الخضر عن المؤاخذة بما نسي موسى عليه السلام إرهاقه العسر ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ وقعا في وثاق ثان ﴿لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾: قتله فور لقائه دون حوار، وحسب الظاهر دون معرفة مسبقة عن حاله، وهذا أمرّ وأدهى من خرق السفينة[1] فإنه يخلِّف الغرق وقد يمنعه مانع من سدّ الخرق كما فعل، ولكنما القتل واقع لا يجبر بشيءٍ، فانبرى موسى نبرة أشد من الأولى ناسياً وعده هنا وكان أحرى إذ يرى نكراً بعدما رأى إمراً ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

ترى وكيف عرف أن الغلام نفس زكية، أو أن قتله كان بغير نفس؟ أكانت زكية حيث الغلام لائح في غير البالغ، وهو نفس زكية على أية حال حيث كونه مرفوع القلم حتى وإن قتل نفساً فالدية إذاً على العاقلة دونه.

ولكن فرض الدية على العاقلة لا يجعل القاتل غير البالغ زكياً وغير قاتل، وإن لم يجز قتله حيث القلم عنه مرفوع!

أو أنه كان بالغاً والغلام من بلغ حدّ الغلومة والشبق بالغاً وسواه، وقد نتبلّغ بلوغه هنا من ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ اللائح في تجويز قتله بنفس، ومن ثم

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القصة ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى... وهذه أشد من الأولى..

الجواب في تجوز قتله بكفره المرهق ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ والكفر المرهق الطاغي مما يفرض القتل فإنه فتنة وفساد كبير ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(١) فإنها قتل لنفوس مؤمنة لإيمانها!

وكيف عرف موسى إنه نفس زكية دون معرفة عنه مسبقة، وإنه لم يقتل نفساً أو لم يأت بما يهدر دمه؟ علّه لأنها كانت لقياه الأولى، والأصل في كل نفس كونها زكية غير كافرة، وأنها لم تقتل نفساً، أو أنها زكية عن قتل الغير إن كانت اللقيا في أرض كافرة، فـ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ تأكيدٌ لكونها زكية، وأصل البراءة حكم من ظاهر الشرع يحكم بهذه وتلك، إلّا ما خرج بدليل، ولا دليل على خلافه حاضراً في هذه اللقيا، وموسى عليه السلام رسول وإمام يحكم بظاهر الشرع: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾: يستنكره كل عارف بموقفه!.

أو أن حكمه لم يكن بتاً حيث احتمال البراءة قائم، فإنما حكم شرط كونها ﴿نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ وإذا ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

ولماذا يذكر موسى مسوغاً واحداً للقتل ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ إن قتل النفس إنما يجوز بنفس؟ علّه لأنه المسوغ الأصل لقتل النفس قصاصاً ثم يلحقه غيره من فساد في الأرض أم ماذا ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(٢) نقلاً قرآنياً عن ذلك الحكم في التوراة!

أو أن ﴿زَكِيَّةًۢ﴾ تلمح إلى سبب عام في هدر الدم، إنها كافرة بارتداد أمّاذا، أم مفسدة في الأرض؟ وقد أجمل عن أسباب أُخرى كهذه حيث الغلام بعيدٌ عنه إفسادٌ على غُلمته!

فإذا كانت المرحلة الأولى من هذه الرحلة خرق السفينة واحتمال غرق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

من فيها، ففي الثانية «قتل نفس زكية بغير نفس» أمرٌ نكر لا يستطيع موسى أن يصبر عليه، فقد يستنكر هنا دونما نسيان، وكما لم يعتذر كالأولى ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ وإنما ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي. . .﴾ دونما تأول سبب يعتذره -

هنا - وبعد هذا السؤال العضال - يردد المعلم تنديده الأديب.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾:

كما مضى دون زيادة إلّا ﴿لَّكَ﴾ أقل لك موسى الرسول كليم الله متابعي في هذه الرحلة، لك لا سواك، لك مرتين: قبل الرحلة وعند الخطوة الأولى ﴿إِنَّكَ لَن. . .﴾ كمستحيل عليك أن تستطيع معي صبراً، حيث «وكلتُ بأمر لا تطيقه ووكلتَ بأمر لا أطيقه» فكما لا تطيق أنت معي صبراً بحكم الشرعة الظاهرة، كذلك أنا لا أطيق على سؤالك صبراً بحكم الشرعة الباطنة!

ولو كانت لهذا المعلم ولاية مطلقة إلهية على ذلك المتعلم كان عليه التسليم المطلق، ولكنما الولاية المطلقة هناك إنما كانت لموسى عليه السلام على الخضر عليه السلام وهو من أمته، فكيف يستلم له في رحلته وإن كان وعده متابعته واتباعه، ولكنه استثناها بمشيئة الله في بعديها، وهذه تختلف في بعد المشيئة التشريعية عن المتابعة المطلقة لمن له الولاية المطلقة كأنبياء الله وأضرابهم، والبعد التكويني في استثناء المشيئة كائن أياً كان ولأي كان وكما الرسول ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

لذلك لا يستسلم موسى أمام الخضر إلّا على ضوء ظاهر الشرعة الإلهية مهما بلغ في رحلته من رهق الصعوبة أو الحرمان.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾:

إن المرة الثالثة بعد الأولى والثانية هي آخر المرات وليست آخر

الخطوات، ولكنك لا تحملني وأنا لا أحملك لاختلاف المعيارين، فـ ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ وأحاول ألّا أسأل ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ - ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ استمراراً في هذه الرحلة فـ ﴿قَدْ بَلَغْتَ﴾ إذاً ﴿مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ حيث أعذرك في ترك الصحبة إذ لا تتحمل سؤالي قبل أن تحدث لي جواباً، ولكنني أتحملك في تأجيل الجواب مهما لا أتحملك عن تعجيل السؤال، والفرق لائح من ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ دون «قد بلغت عذراً من لدني ولدنك»! فحيّاه إلى المشهد الثالث والأخير.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾:

خطوة ثالثة وهي الأخيرة من تلك الرحلة المدرسية هي أخف وطأة من سابقتيها فإنها في ظاهر الحال خلاف العقل وليس محرماً شرعياً أم يخف!

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ كلٌّ من وثاقه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ الأهل الثاني علّهم الأهل من أهلها: من فيه الأهلية أن يُستطعم، أترى كيف يجوز عليهما الاستطعام؟ أسؤالاً وهو حرام إلا عند الضرورة المدقعة بُقية على حياة ولم تكن حيث أقام الجدار! أم استضيافاً كما ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾؟ فكذلك الأمر وإن كان أهين.

علّه كان جوعاً لحد الحرج حيث لا يستطيعان مواصلة الرحلة الواجبة، والاستضياف عنده، وممن يُؤهل للإضافة هو في حدّ الوجوب، أم لأقل تقدير يجوز، ثم وليظهر لهم لؤمهم، فتظهر إقامة الجدار دون طلبٍ لأجر أكثر وأظهر عجاباً لموسى فتكتمل الرحلة بذلك الأمر الإمر العُجاب، وليخجلوا لما رأوا إقامة الجدار دون بغية الأجر، أمّاذا من حكم مجوزة أو موجبة لاستضيافهما.

وما ألأمهم حيث أبوا ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقد يروى أنهم لما سمعوا نزول

هذه الآية استحيوا وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ بحِمل من الذهب وقالوا يا رسول الله ﷺ : نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء في «أبوا» تاء: «أتوا» ليندفع عنا هذا اللؤم؟ فامتنع رسول الله ﷺ . .[١].

أترى بعد هذه اللآمة اللعينة والإهانة المهينة يستحق أهل هذه القرية كرامة مُتعبة مجانة وعلى رهق الجوعة المهلكة؟ ولكن ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ على وعثاء السفر وشقوة الجوع ولآمة أهلها ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر، وطبعاً لا يساعده موسى حيث السؤال الفادح: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ و«لو» هنا تلمح إلى حالة من الجوع والنصب يُرثى لها وتُحيل أي عمل فضلاً عن إقامة الجدار، فـ ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ عملاً كمستحيل تحميلاً على نفسك لاتخذت قبله عليه أجراً.

جدار يريد أن ينقض، وكيف يريد الجدار ولا إرادة للجماد، إلّا تصويراً لمقارفة الانتقاض، حيث ظهرت فيه أماراته من ميل بعد ثبات واضطراب بعد انتصاب!

وترى أن الخضر استأذن صاحب الجدار فأقامه! وكان ﴿لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ إنه أقامه بولاية شرعية، ولكنه مجهول لدى موسى فيعترض ﴿لَوْ شِئْتَ. . .﴾. وترى ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ بعدما أقامه؟ وليس لغير الأجير أجر، بل وعلّه عليه وزر تصرفاً في مال الغير بدون إذنه! طبعاً قبل ما أقامه عليه أن يستأذن أهله على أجر، حيث الضرورة قائمة هناك على أخذ الأجر، مما يفرض عرض الإنسان نفسه لعمل بأجر بُقية على حياة وتداوماً في تلك الرحلة الواجبة.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢١ ص ١٥٧: رأيت في كتب الحكايات. . .
وفي رواية ابن بابويه والقمي أن هذه القرية هي الناصرة التي تنسب إلى النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان والقرية باجر وكان أهلها لئاماً وعن القرطبي أنها طنجة.

فحسب الظاهر ليس هذا الموقف موقف الترحم على هؤلاء اللئام، فليرحم نفسه وصاحبه بأخذ الأجر، فتركه خلاف العقل ولا يسمحه الشرع!.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

فراقٌ حسب الشرط ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ وقد تعلم منه مما علّمه رشداً، وقد تبين الرشد في كليهما معلماً ومتعلماً بكل احترام دون اخترام.

في الخطوة الأولى والثانية اعتذرت فأعذرتُك وللثالثة أعذرتُ دون اعتذار فـ ﴿هَٰذَا﴾ السؤال دون إعذار ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ﴾ كما اتفقنا ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ كما وعدتك: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ...﴾ بتأويل مأخذ ومرجع ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾!

فراقٌ حنون بعد وفاق حَنون وكلّ خطى خطواته كما علّم، وقد حصل ما قصد كأن يعلم موسى أن في أمته من هو أعلم منه في علم الباطن، مهما كان هو أعلم منه في علم الظاهر، فـ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ اللّهم إلّا علّام الغيوب، فلا يزعمنّ أحد أنه أعلم الخلق أجمعين وإن كان كموسى الرسول، فضلاً عمن سواه، حيث العطيات موزّعات بعلم العليم الحكيم حسب القابليات!

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾:

أراد الله أن تبقى السفينة لمساكينها، ولو شاء لحقق ما يشاء بصرف أمّاذا من خارقة. ولكنه شاءه بفعل من غيره غير خارق: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أردته تحقيقاً لمشيئة تشريعية، وأخرى تأييدة تكوينية إلهية كما في كافة الواجبات.

لم يقل أردنا حيث لم يشاركه موسى، ولا أراد الله حيث لم يرد الله

الإعابة بفعله خارقة، وإنما أراد تعالى إصلاحها بما أعابها الخضر، فالإعابة فعله بسماح شرعي، والإصلاح فعل الله بسماح تكويني.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾: ملك وراء المساكين يلاحقهم أياً كانوا ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فليست الوراء هنا وراء الخلف[1]، وإنما وراء التخلّف والملاحقة من أية جهة كانت و﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ تعني من مساكين وسواهم حيث هي صالحة للاستثمار، فلتكن صالحة غير معيبة، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في الظاهر لأصلح أصلها لكيلا تغتصب.

على الملوك أن يكونوا وراء الشعوب ولا سيما المساكين خدمة لهم وإصلاحاً، وهذا الملك كان وراءهم خيانة وإفساداً ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فلأنني أحطت بذلك خبراً أعبتها للحفاظ على أصلها، ثم الحفاظ على أهلها عن غرقها حاصل بما سددنا ثغرتها.

بهذا العيب الصغير نجت السفينة عن الضرر الكبير الذي يكنه الغيب إن لم يكن لها عيب، ولتكن هذه سنَّة للحفاظ على الأصلح وكما عاب الإمام الصادق عليه السلام زرارة في ظهر الغيب حفاظاً على نفسه، وبهذا المعنى الغاية تبرر الوسيلة، فإعابة السفينة محرمة لولا هذه الغاية، دون أن تتبرر كل وسيلة بكل غاية، وإنما الغاية الأهم بوسيلة دون الأهم، فغاية توطيد أركان

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٧ - أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً».

أقول: أما «صالحة» فهي تفسير بيان للسفينة، وأما «أمامهم» فقد يعني «بين أيديهم» دون أن يكون «أمامهم» بدل «وراءهم» و«صالحة» محذوفة عن القرآن، حيث تطارده أحاديث العرض ولا نصدق إلا كتب القرآن المتواتر والمجمع عليه طوال القرون الإسلامية!

ويشهد لذلك ما رواه العياشي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقرأ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] يعني أمامهم «يأخذ كل سفينة صالحة غصباً».

الخلافة بواسطة تثبيت معاوية ردحاً من الزمن لا تتبرر، حيث الخلافة العادلة لا ترتضي ظلماً يتبناها أو يوطّدها، وإبقاء معاوية إبقاء للظلم ريثما يثبت العدل ثم يزيل معاوية الظلم، ومن ذا الذي يضمن بقاء الإمام في هذه الفترة حتى يعزل معاوية، ومن ذا يضمن إمكانية عزله إن بقي الإمام وهو يقوى كما الإمام يقوى، حيث هما في سبيلهما إلى الاستبقاء!

فهنا نرى أن في إمهال معاوية الطاغية رعاية لاستحكام حكم علوي مجهول، وإبقاء لاستمرار واستحكام ظلم الطاغية وهو معلوم، بيد أن غاية العدل لا يبررها أي ظلم!

فليست «الغاية تبرر الوسيلة» ضابطة صالحة لا تستثنى، ولا حابطة طالحة لا تصلح، وإنما الضوابط الشرعية الأخرى هي التي قد تبرر وقد لا تبرر، كما بررت في خرق السفينة، دون إمهال معاوية!.

إذاً فكل ما دون قتل النفس من المحرمات تتبرر كمقدمات للحفاظ على النفس، كأن تغتاب أخاك أو تفتري عليه أو تهتكه وتضربه أمّاذا حفاظاً على نفسه، وكل ما هو فوق القتل كضياع الشرع أماذا لا تتبرر للحفاظ على النفس، وهذه الفوقية والتحتية مستفادة من الشرع، فإذا كانا على سواء فعلى سواء، ضابطة عامة في تقديم الأهم على المهم!

هنالك شروط عدة في تبرير الغاية الوسيلة، من كونها أهم من الوسيلة كما في زرارة والسفينة، وكون الغاية الأهم قطعية كالوسيلة، فإن كانت هي محتملة والوسيلة قطعية فلا تبرر، إلّا فيما المحتملة أيضاً أهم من تلك الوسيلة، كمظنة حفظ النفس أو احتماله حيث تبرر وسيلة خفيفة كضرب أو شتم أو اغتياب أمّاذا؟

وأن تتوارد الغاية والوسيلة على فرد أو جماعة، كأن تظلم فرداً أو جماعة بظلم لئلا يظلم بأكثر منه كما في السفينة، فأما أن تظلم فلاناً ليسلم غيره من

ظلم وإن أكثر منه فلا كما في إبقاء معاوية تُظلم الجماعة المؤمنة في فترة بقاء معاوية لسدّ ظلم أكثر منه - ولا أكثر منه! - في مستقبل مجهول وعن جماعة غير معلومة، علّ فيها من هؤلاء - لا كلهم - وعلّهم ليسوا فيها!.

لا نستطيع في هذا المجال الخاصر الحاصر أن نستعرض كل المعارضات بين الوسائل والغايات من الفقه كله، فنحشر الفقه لنحشركم على حافة من المسرح العام، فليتبع وفي كلٍّ ضابطته علماً بأن الغاية ليست لتبرر الوسيلة كضابطة عامة، فقد تبرر بضابطة وقد لا تبرر بضابطة، فليست هي إذاً ضابطة وإنما السلب والإيجاب لتبريرها حسب الضوابط المقررة في مجالاتها.

ومن أهم السياسات الحفاظية على الصالحين كسرهم عند من يريد كسحهم حتى لا يبيدهم وكما فعل الإمام الصادق عليه السلام بزرارة معتذراً إليه في تعييبه إياه موضحاً له موقفه قائلاً له: «يرحمك الله فإنك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي إلي حياً وميتاً فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك لملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليغصبها وأهلها فرحمة الله عليك حياً وميتاً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»[1].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٨٥ ح ١٦٣ في كتاب تلخيص الأقوال في تحقيق أحوال الرجال في ترجمة زرارة بن أعين روى في الصحيح أن أبا عبد الله عليه السلام أرسل إليه إنما أعيبك دفاعاً مني عنك! فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى فيمن نحبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبميلك إلينا وأنت في ذلك مذموم عند الناس فيكون ذلك دافع شرهم عنك لقول الله عز وجل: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] هذا الرسل من عند الله صالحة، والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك، فإنهم المثل يرحمك الله فإنك والله أحب الناس إليّ وأصحاب أبي إلي حياً وميتاً فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك لملكاً ظلوماً غضوباً يرقب عبور كل سفينة.

وفي دوران الأمر بين المهم والأهم لا بد من تشخيص ذلك من اجتهاد أو تقليد كما يصح: دون الهوسات والتصورات السطحية الخاطئة، حيث تورِّط إلى طامة كبرى لا علاج لها أم يصعب.

فـ «الغاية تبرر الوسيلة» ليست ضابطة فقهية عامة، حتى تلعب بها العامة كما تستعملها الخاصة، وحتى إذا كانت ضابطة فلا تنضبط في التحقيق والتطبيق إلّا عند أهلها الخاصة، ولكنها كما نبهنا ليست آية من كتاب أم رواية من سنَّة، بل هي حسب المظاهر المواتية للواقع، ضابطة سياسية يبرر بها الساسة دسائسهم الجهنمية، وكما نجدها في الأصل عند الصهيونية العالمية، حيث أوصلوها إلى حدّ إقحام آيات في التوراة وتحريف آيات أخرى أمّاذا من اقتحامات ضالة مضلة.

ثم على ضوء الفقه الإسلامي السامي نصلح هذه الضابطة غير الضابطة بحيث تصلح في العناوين الثانوية حسب الضوابط الإسلامية القاطعة.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾:

هنا يبرر الخضر قتل الغلام بفساده كفراً وإفساده أن يرهق أبويه المؤمنين طغياناً وكفراً، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ والإفساد في الأرض من مبررات القتل ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ...﴾[2] وإرهاق الأبوين المؤمنين طغياناً وكفراً - وهما يستحقان رحمة أكثر ممن سواهما - أنه من أبرز الإفساد والسعي فيه.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

فكون الغلام حينذاك كافراً دليل كونه مكلفاً![1] وكون أبويه مؤمنين يجعله مرتداً فطرياً يستحق القتل ولا يستتاب وإن تاب لم تقبل! فخشية إرهاقه إياهما طغياناً وكفراً يهدّر دمه ثانياً بعد تهدره بارتداده! وإرادة إبدالهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، زاوية ثالثة تفرض قتله! فحتى لو كان غير بالغ لكان يحق القتل دفعا للإفساد المحتوم.

فهذا الغلام الذي لا يبدو في ظاهره وحاضره أنه مستحق القتل، إذاً هو في متن الغيب كافرٌ طاغ يخشى أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً.

وترى لماذا هنا ﴿فَخَشِينَآ. . . فَأَرَدْنَآ﴾ وهنالك ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لأن إرادة الإعابة لم تكن إلّا منه دون موسى حيث ندّد بها! وحتى إذا عرف موسى جوازها فلا حاجة في الإعابة إلا إرادة وإعابة واحدة، وأما الخشية من الإرهاق، فهي كائنة للخضر ومقدرة لموسى وعلى كل مؤمن بالله أن يخشى الإرهاق، مهما كان دفع الخشية بالقتل يكفيه واحدٌ، وبعد العلم والخشية تأتي الإرادة «أن يبدلهما ربهما خيراً. . .».

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله : لقيا غلاماً قال كان غلاماً ابن عشرين سنة فيه - أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن مردويه عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ولو أدرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً وروي مثله عن ابن عباس عنه ﷺ إلّا ذيله، أقول: قد يعني «طبع كافراً» أنه منذ أن بلغ طبع نفسه كافراً فإن الله لا يطبع أحداً على الكفر فكل مولود يولد على الفطرة، ثم «ولو أدرك» يؤول إلى إدراكه أبويه على كفره إرهاقاً لهما كفراً.

وفي نور الثقلين ٣: ٢٨٥ ح ١٦٤ في مجمع البيان روي عن أبي عبد الله عليه السلام «أما الغلام فكان كافراً وأبواه مؤمنين - أقول: وهذا تفسير وليس نقلاً لأصل الآية.

وفيه (١٦٧) عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: بينما العالم يمشي مع موسى إذ هم بغلام يلعب قال: فوكزه العالم فقتله قال له موسى ﴿أَقَتَلْتَ. . .﴾ [الكهف: ٧٤] قال: فأدخل العالم يده فاقتلع كتفه فإذا عليه مكتوب »كافر مطبوع».

يا موسى لست أنا الوحيد في هذا الميدان، فأنت معي وكل مؤمن بالله أن نخشى ما أخشاه ونريد ما أريده بعد العلم بموقف الغلام وأبويه المؤمنين، وأما إرادة الإِعابة فيكفيها واحد ثم لا يريد سائر من يعرف الواقع إلّا الحفاظ على سفينة المساكين بأية طريقة ممكنة، دون ضرورة إيمانية في إرادة جماهيرية للإِعابة!

وترى أن خشية الإرهاق طغياناً وكفراً وهي دون العلم كيف تبرر القتل ولا علم ولا إرهاق حينذاك؟

هنالك المبرر لقتل الغلام يكفي كونه مرتداً فطرياً وفي حالة الإفساد ولمّا يرهق أبويه، ثم الخشية لا تنافي العلم الحاضر الظاهر، حيث الواقع قد يتخلف عما تعلم، فالصيغة الأدبية عن العلم الظاهر فيما لا يجوز هي الخشية، خوفاً أن يستقبل خلاف ما يعلمه حاضراً، فلم يكن - إذاً - قتل الغلام قصاصاً قبل الجناية، حيث الارتداد الفطري هو جنايته الحاضرة، إضافة إلى خشية الإِرهاق حيث تلمح إلى حاضر السعي في الإِفساد، ولكي يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

أترى أن الغلام كان خيراً وقريب الرحم حتى يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً؟ كلّا فلا خير في هذا الكافر ولا رُحم لأبويه، وإنما الأفضلية في «خيراً وأقرب» مجاراة ظاهرة في خير الغلام ورُحمه.

وهل إن «طغياناً وكفراً» مفعولان لـ «يرهقهما» أن يغشيهما بقهر طغياناً وكفراً وليطغيا ويكفرا؟ أم حالان لـ «يرهقها» إرهاقاً لهما حالة الكفر والطغيان؟

قد يعنيهما المنصوبان حالين حال كونهما مفعولين حيث يتحملهما أدب اللفظ وجمال المعنى، فالمرهق حالة الطغيان والكفر يرهق إلى حالة الطغيان والكفر دون زكاة منه ولأرحم أكثر مما في غير حالته.

ولقد سلبت «خشينا» بقتله وتحققت «أردنا» حيث أبدلهما ربهما خيراً منه زكاة: ظهارةً وإيماناً في نفسه، وأقرب رُحماً: رحمة لأبويه[١].

مثلث من موجبات القتل يسبب قتل هذا الغلام الكافر وزاوية منه كافية ومثلث آخر هي من موجبات الرحمة يفرض إقامة الجدار دون أجر:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾:

... جدار هو ليتيمين في المدينة يريد أن ينقض، تجب إقامته مجاناً على ولي اليتيم والخضر من أفضل الأولياء «وكان تحته كنز لهما» يجب الحفاظ عليه بإقامة الجدار مجاناً، «وكان أبوهما صالحاً» ويُكرَم الرجل في ولده، فتجب إقامة الجدار إكراماً لوالديه المؤمنين مجاناً، زوايا ثلاث من فرض إقامة الجدار لا أجر فيها مادياً وكما قال الله ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٢] ولم يكن موسى والخضر فقيرين رغم حاجتهما الحاضرة المفقرة، ولو كان فقيرين فكيف يأكلان هنا بالمعروف ولا مال لليتيمين إلّا الكنز[٣] الواجب حفظه حتى ﴿يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

(١) في تفسير القمي عن عثمان عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية أنه وُلدت له جارية فولدت غلاماً فكان نبياً وفي أكثر الروايات أنه ولد منه سبعون نبياً.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦.

(٣) وفي بعض الروايات أن الكنز كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه مواعظ، وفي الأب الصالح أنه أبوهما الأقرب أو السابع أو العاشر أو بينهما سبعون أباً أو سبعمائة سنة.

وفي الدر المنثور ٤: ٢٣٥ - أخرج ابن مردويه عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: وكان تحته كنز لهما - قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: شهدت أن لا إله إلا الله شهدت أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح عجبت لمن تفكر في تقلب الليل والنهار ويأمن فجأتهما حالاً فحالاً!

وفي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ =

كَنزَهُمَا﴾ وحتى إذا كان لهما مالٌ سوى كنزهما فالفقير المجوز لأكل الولي هو الناتج عن ولايته عملياً، ولولاها لما افتقر ثم ولولا إقامة الجدار لم يكن هنا شغل له أجرٌ! والرحمة الربانية تقتضي ألّا يؤخذ من مال اليتيم، وليس ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للولي الفقير إلّا سماحاً حالة الضرورة لا فرضاً، فترك الأكل ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ كما إقامة الجدار حفاظاً عليه وعلى الكنز رحمة من ربك، والاطلاع على واقع الأمر رحمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فكل ذلك كان بأمر من ربك، يرى موسى في الخطوة الأولى إمراً وفي الثانية نكراً، هما في الظاهر من أشد القساوة، ثم يرى في الثالثة رحمة زائدة لحد لا يبررها موسى الرسول وهو رسول الرحمة، كتضاد في خُلُق الخضر يشبه طرفي النقيض، فكان لموسى موقفاً حرجاً لن يستطيع معه صبراً!

ولماذا ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ (و) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقم الجدار إلّا الخضر، لا موسى ولا ربه؟ أما الإرادة فلم تكن إلّا من ربك فإن بلوغهما الأشد من إرادة ربك، وكذلك الرحمة هنا في كل زواياها ليست إلّا من ربك. إعلاماً له أن تحته كنز لهما، وأمراً باقامته حفظاً لكنزهما، وترك الأجر وجوباً في شرعة الله كأجر، وأكلاً دون أجر رحمة وفضلاً!

ثم و﴿رَبِّكَ﴾ تعني التربية التشريعية وليس رسولها المبلغ لها إلّا موسى، والتربية التكوينية وموسى هو إمام الخضر فيما أخذ منها، فهذه

= الله لكرامته على الله ثم ذكر الغلامين فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] ألم تر أن الله شكر صلاح أبويهما لهما.

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في أهله وماله وإن كان أهله أهل سوء ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

حرمة وحسن أدب من الخضر إلى موسى أن ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ... رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنما أنا الخضر ماشٍ على ضوء التربية الإلهية المتمثلة فيك كإمام، المتحققة عملياً بيدي كمأموم، وإن كنت لم تدره حيث الشرعة ظاهرة وتلك من الغيب، كما لم أكن أدريه لولا رسالتك بالشرعة الظاهرة ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾!.

وقد نرى الأفعال المنسوبة إلى فاعليها كلها في محالّها، فإرادة الإعابة بفعلها هي من الخضر، لا وموسى ولا أن الله أرادها تكويناً إلا كما يريد فعل كل مختار، وخشية الإرهاق هي شريطة الإيمان لكل مطلع على ضمير الغيب ولكنما الله لا يخشى، وإرادة إبدالهما خيراً تتبع قتله وخشيتهما، وما أراد الله الإبدال إلا في ظرف هذه الإرادة، والإبدال فعل من الله دون سواه، كما وإرادة بلوغهما أشدهما ليست إلّا من الله..

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ كل ذلك ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ وإنما عن أمر ربك، فمهما غاب عنك الموضوع فالحكم نازل عليك رسولاً إلي وإماماً علي فأنا على ضوء شرعتك، فبأمر من ربك فعلت ما فعلت: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾!

في هذه المسارح الثلاثة كانت معارضة بين الحكم الظاهر والباطن باختلاف ظاهر الموضوع وباطنه، وقد طبق كلٌّ من موسى وخضر واجبه، وترجى رسول الله ﷺ فيما يروى عنه «يرحم الله موسى وددنا أنه لو صبر حتى يقصَّ علينا من حديثهما» يضرب إلى عمق الغيب دون تنديد بموسى عليه السلام كما وهو ﷺ يحيله بـ «لو» وكما أن «علينا» قد تعني غيره ﷺ حيث جمع، وقد أوتي ﷺ ما أوتي كل من يعلم ظاهراً أو باطناً في الطول التاريخي والعرض الجغرافي وكل خليقة أياً كان وأيان!

وقد أعذر الإمام الحسن نفسه في صلحه مع معاوية في قوله عليه السلام: «إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفَّه رأيي فيما أتيته من

مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ألا ترى إلى الخضر عليه السلام لمّا خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فِعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلّا قتل»[(١)].

وأنتم أدنى من موسى وكان يحق له السؤال لولايته على خضر، وأنا أعلى من خضر وموسى، ولي الولاية عليكم فما كان يحق لكم سؤالي سخطاً وتنديداً!!..



(١) نور الثقلين ٣: ٢٩ ج١٩٢ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله! لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وأن معاوية ضال باغٍ؟ فقال: يا أبا سعيد! ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد أبي عليه السلام قلت: بلى - قال: ألست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي الحسين: إمامان قاما أو قعدا؟ قلت: بلى - قال: أنا فإذاً إمام لو قمت وأنا إمام إذا قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة، وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفَّه رأيي فيما أتيته...».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾:

﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ لم يذكر في سائر القرآن إلّا هنا جواباً عن سؤال، فهل كان نبيّاً؟ لخصوص ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ خطاباً يلمح أنه وحي، وعموم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ ومنه سبب الوحي؟ ولكنما القول من الله لا يخص وحي النبوة وحتى قول الوحي كما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[١] فضلاً عن ﴿قُلْنَا﴾ وفي هذه اليتيمة فقط! ويشاركه فيه غيره ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢] ولم يكونوا أنبياء! ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[٣] وما كان نبياً حينذاك أو ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾[٤] ولن يكون نبياً! فقد يعني ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إلهاماً دون وسيط كما في هؤلاء، أم وحياً بوسيط ما في سائر الوحي إلى الناس أجمعين! وظاهر القول الخطاب هو الإلهام كما في أم موسى، وليس في قوله تعالى هنا ما يحمل مادة الوحي النبوة!

والسبب هو ما يتوصل به إلى المقصود لا يشمل سبب الوحي والنبوة، فلا يؤتى النبي سبب النبوة بل نفسها، فإنما سببها عند الله وبيد الله، ومن ثم لو كان نبياً لكان من أبرز التعريف به تصريحة النبوة، دون اختصاصه بالقدرات الأرضية، فلم يك نبياً وكما في أحاديثنا[٥].

وهل كان ملِكاً؟ قد يعنيه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾! ولا يؤتى ملكٌ من كل شيء سبباً! فقد يكون دون النبي وفوق الملك عبداً صالحاً[٦]

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٢.
(٥) كما في الدر المنثور ٤: ٢٤١ أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال سئل علي عليه السلام عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم عليه السلام يقول: هو عبد ناصح الله فنصحه.
(٦) الدر المنثور ٤: ٢٤١ - أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم =

قوياً بما آتاه الله، مؤيداً من عند الله! كمثل طالوت الملك على ضوء نبوة منفصلة!

ونعرف من الإجابات التالية حول ذي القرنين أن السؤال كان حول أفعاله الخارقة، دون نبوته أو مُلكه أو نسبه وبلده، أم وإذا كان يعم ذلك كله أو يخص الثاني كما هو دأب القصصيين فلم يأت الجواب حسب الحكمة إلّا المفيد المفيد الذي فيه دعوة إلّهية وذكرى إيمانية!

ثم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يشمل زمن الرسول ﷺ وإلى أعماق المستقبل، فلا جواب صالحاً عن ذي القرنين إلّا ما أجاب، ومهما كان السؤال عنه في العهد الرسولي من اليهود[1] ولكنما العهد الرسالي وهو منذ الرسول إلى يوم الدين تشمله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾!

= وأبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معد أن الكلاعي أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال ملِك مسح الأرض من تحتها بالأسباب وفيه أخرجه مثله الشيرازي في الألقاب عن جبير ابن نفير أن أحباراً من اليهود قالوا للنبي ﷺ: حدثنا عن ذي القرنين إن كنت نبياً فقال. . . وقد تضارب الحديث عن علي ﵇ أنه كان نبياً أم لا وقد نفى كونه ملكاً وعله بفتح اللام رداً على من زعمه ملكاً، وهناك روايات متضاربة أخرى في نفي نبوته وإثباتها.

(١) المصدر ٢٤٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد! إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين، أنك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال ﷺ: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبرائيل ﵇ بهؤلاء الآيات ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ. . . .﴾ [الكهف: ٨٣].

وفيه وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفر قال: دخل أهل الكتاب على رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا: يا أبا القاسم كيف تقول في رجل كان يسيح في الأرض؟ قال: لا علم لي به! فبينما هم على ذلك إذ سمعوا نقيضاً في السقف ووجد رسول الله ﷺ غمة الوحي ثم سرى عنه فتلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ. . . .﴾ فلما ذكر السد قالوا: أتاك خبره يا أبا قاسم حسبك!

وفي نور الثقلين: ٢٩٣٢ ج ١٩٩ في قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى موسى بن جعفر ﵇ حديث طويل يذكر فيه آيات النبي ﷺ وفيه: ومن ذلك أن نفراً من اليهود أتوه فقالوا لأبي الحسن جدي استأذن لنا على ابن عمك نسأله قال: فدخل عليّ فأعلمه فقال النبي ﷺ: =

و﴿ذِكۡرًا﴾ هنا يدلنا أنه لا يقص قصص ذي القرنين إلّا طرفاً منهما هاماً يذكِّرنا موقفه في تمكنه في الأرض، حيث لم يستخدمه إلّا خِدمةً للناس وطرداً للنسناس الخناس... و﴿ذِكۡرًا﴾ يعني قرآناً يذكر قدر الواجب الصالح تذكرة.

ولا يستثني هنا بمشيئة الله حيث القائل هو الله، وإنما الناقل هو رسول الله والله لا يستثني ما يريده بمشيئته اللهم إلّا تعليماً ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]!

ولقد تضاربت الآراء والروايات حول «من هو ذو القرنين هذا»؟ ولا يهمنا شخصه كما سكت عنه القرآن وإنما شخصيته بذكراه أياً كان وأيان!

قصارى ما يستفاد من اسمه أنه عربي، وليس من دأب القرآن مسخ الأسماء الأعجمية، وإنما تغيير ما قدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب آبراهام وموسى معرب موشه، و﴿ذِى ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ لا يلمح بسمة غير عربية، و﴿ذِى﴾ تلمح كأنه من الأذواء اليمنيين وأنه اسمه الخاص أم أشهر أسمائه قضية للغة الفصحى في ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[1]!

فاسمه يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن وقد تردد ذكره في عديد من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية[2].

= وما يريدون مني؟ فإني عبد الله لا أعلم إلا ما علمني ربي ثم قال: ائذن لهم فدخلوا فقال: اسألوني عما جئتم له أم أنبئكم؟ قالوا: نبئنا - قال: جئتم تسألوني عن ذي القرنين؟ قالوا: نعم - قال: كان غلاماً من أهل الروم ثم ملك وأتى مطلع الشمس ومغربها ثم بنى السد فيها قالوا: نشهد أن هذا كذا وكذا:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٢) ذكر جمع من المؤرخين أن ذا القرنين أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالأصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام وابن هشام في السيرة والتيجان وأبي ريحان البيروني في الآثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم - واختلفوا في اسمه أنه مصعب بن عبد الله أو صعب بن ذي المرائد وهو أوّل التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم =

ولأن هذا الاسم وصفي وليس الاسم الخاص فقد يجوز كونه ترجمة عربية عن حالته الخاصة التي تميزه عن غيره بميزة وحيدة، إضافة إلى سائر

= في بئر السبع أو تبع الاقرن واسمه حسان أو أسعد الكامل الرابع من التبابعة ابن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الأول أو اسمه «شمريرعش»:

وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية أنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ... بالجنو في جدث أشم مقيما

وأنشد عثمان بن أبي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد

وفيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاودنا من الناس معشراً ... كراماً فذو القرنين منا وحاتم

ويقول فيه الحارثي:

سموا لنا واحداً منكم فنعرفه ... في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذي القرنين يقبله ... أهل الحجى فأحق القول ما قبلا

ويقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

منا الذي بالخافقين تغربا ... واصعد في كل البلاد وصوبا
فقد نال قرن الشمس شرقاً ومغرباً ... وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا
وذلك ذو القرنين تفخر حمير ... بعسكر فيل ليس يحصى فيحسب

ولقد حفظت أسماء الأذواء كالملوك المثامنة وهم ثمانية أذواء حيث ناهضوا حمير أيام دولتهم كما يقول شاعرهم:

أين المثامنة الملوك وملكهم ... ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو ... شجر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جوفز ... ولقد محاذا عثكلان ما حى

ثم سائر الأذواء أكبرهم مرثد وهو جد الناظم قال فيه:

أو ذو مراثد جدنا القيل بن ذي ... شجر أبو الأذواء رحب الساح

ثم يذكر في أشعاره التسعة عشر ٥٣ آخرين من الأذواء ك: ذونين - ذو سفر - ذو عمران - ذويبان - ذو الرمحين - ذو يرحم - ذو بهر - ذو يزن - ذونوش - ذو نوح - ذو الأنواح - ذو تيقان - ذو أصبح - ذو الشعبين - ذو حوال - ذو مناح - ذو غمدان - ذو فائش - ذو رعين و...

أفعاله المذكورة في هذه الآيات، فقد يجوز عدم كونه عربياً كاسكندر الثاني المقدوني المعروف لدى الخاص والعام بذي القرنين، المنسوب إليه السد لحدٍّ صار مثلاً يقال: كسدِّ الإِسكندر؟ وكما ورد في بعض الروايات[١] وقد سيطر على الشرق والغرب بما لا مزيد عليه[٢].

ولأن هذه السيطرة لا تخصه، وأنه كان وثنياً من الصابئين وقد ذبح ذبيحته للمشتري، والقرآن يصف ذا القرنين بالعدل وصلاح العبودية لله، إذاً فليس هو المقدوني، وقد يجوز أنه الإِسكندر الأوّل، وبينهما أزيد من ألفي سنة (٢٣٠٠ ق.م) فقد كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً[٣] وكان وزيره الخضر.

---

(١) كرواية عقبة بن عامر عن النبي ﷺ ورواية قرب الإسناد عن موسى بن جعفر عليه السلام وذهب إليه جماعة من قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كمعاذ بن جبل وقتادة ومن المتأخرين الإمام الرازي في تفسيره.

(٢) يؤكد عليه الرازي في تفسيره قائلاً: إن اسكندر المقدوني جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم إلى مصر وبنى الاسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف إلى أرمينيا وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر واستولى على إيران وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق ومات في شهرزر أو رومية المدائن وحمل إلى اسكندرية ودفن بها وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة، فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة وثبت بالتواريخ أنه الاسكندر فليكن ذو القرنين هو الاسكندر.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤١ - أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ - وساق حديث سؤال جماعة من أهل الكتاب عنه في ذي القرنين إلى أن قال -: إن أول أمره أنه كان غلاماً من الروم أعطي ملكاً فسار حتى أتى ساحل أرض مصر فابتنى مدينة يقال لها اسكندرية فلما فرغ من شأنها بعث الله عز وجل إليه ملكاً فعرج به فاستعصى بين السماء ثم قال له: انظر ما تحتك فقال: أرى مدينتي وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال: انظر فقال: قد اختلطت مع المدائن فلا أعرفها ثم زاد فقال: انظر قال: أرى مدينتي وحدها ولا أرى غيرها قال له الملك: إنها تلك الأرض كلها والذي ترى يحيط بها هو البحر وإنما أراد ربك أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطان فيها فسر فيها فعلِّم الجاهل وتثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس....

ولأن التأريخ لا يسجل لنا ملكاً قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة ملِك الأرض من أقصاها إلى أقصاها وبنى السدود.. فقد لا ينطبق ذو القرنين على واحد منهما!

وإن كان المحتمل هو الأول قوياً، مهما لا يوجد «ذو» في الإغريقيين اليونان حيث الوصفية في التسمية تحل هذه المشكلة!.

وعلّة هو «كورش» أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (٥٣٩ - ٥٦٠ ق.م) فقد جمع بين مملكتي الفارس ومادو سخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى اليونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة شرقاً[1] وتشهد كتب العهد العتيق على إيمانه وصلاحه[2] كما النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري المأثورة عنه ناطقة بكونه موحداً، وقد سار نحو المغرب فاستولى على ليديا وحواليها ثم نحى نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس

---

(١) سار نحو المغرب لدفع طاغية «ليديا» الطاغي عليه ظلماً دون عذر فحاربه وعاصره في عاصمته ففتحها وأسره ثم عفى عنه وأحسن إليه.
ثم سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد نائرة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للإفساد وبنى السدّ الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود ويسمى «داريال» وهذا السّد واقع بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي، وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب وهجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريباً:

(٢) كما في كتاب عزرا (الإصحاح ١: ١-٤) ودانيال (الإصحاح ٦: ٢٨) وكتاب اشعياء (الإصحاح ٤٤: ٢٨ و٤٥: ١-٢٧) وقد سمي في اشعياء راعي الرب وفي (٤٥) منه «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً وأحقاد ملوك أحل لا فتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق: أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف: وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي: لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك: لقبتك وأنت لست تعرفني»:

ووجد عندها قوماً بدويين همجاً ثم بنى السد المعروف بمضيق داريال بين جبال قفقاز قرب مدينة تفليس.

ولماذا يعبر عنه القرآن بذي القرنين - أياً كان من المذكورين -؟ علّه لأنه أدرك قرني الشمس شرقاً وغرباً[١] وعاش قرنين وضرب على قرنيه وكان لتاجه قرنان وسخر له القرنان الليل والنهار[٢] وأيد في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق[٣] وقد اكتشف تمثال «كورش» الحجري أخيراً في مشهد مرغاب جنوبي إيران، مُثل فيه ذا قرنين[٤] نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحدهما مايل إلى قدامه وثانيهما إلى خلفه، وكما في كتاب دانيال في رؤياه كورش على صورة كبش ذي قرنين[٥].

---

(١) نور الثقلين عن الإمام العسكري عليه السلام أنه رأى في المنام أنه أخذ بقرني الشمس فعبر له بملك الشرق والغرب وسمي بذي القرنين.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل علياً عليه السلام أرأيت ذي القرنين كيف استطاع أن يبلغ الشرق والغرب؟ قال: سخر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي نقل آخر عنه عليه السلام فسر بسط النور بـ «كان يضيء بالليل كما يضيء بالنهار».

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٩٣ ح ٢١٥ عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث اقتسمناه حسب مختلف مواضيعه وكما في الرقم (٢):

(٤) المصدر ٢١٥ عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال سئل عن ذي القرنين قال: كان عبداً صالحاً واسمه عياش اختاره الله تعالى وابتعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية الغرب وذلك بعد طوفان نوح عليه السلام فضربوه على قرن رأسه الأيمن فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام بعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية المشرق فكذبوه وضربوه ضربة على قرنه الأيسر فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام وعوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين أجوفين.. أقول وأخرجه مثله في معنى قرنيه في الدر المنثور أبو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء عن علي عليه السلام (٤: ٢٤١) ورواه مثله في الاسم القمي عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام:

(٥) في الإصحاح ٨: ١-٩ من دانيال «في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وأنا في «شوشن» القصر الذي في ولاية - عيلام: ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر «أولاي» فرفعت يميني وإذا =

وأياً كان ذو القرنين فإنما يهمنا شخصيةٌ قوية روحية منه عن التاريخ لا شخصه، ولا مفخرة في كونه عربياً أم رومياً أم إيرانياً آمّن ذا، ولذلك أهمل القرآن إلّا عن شخصيته ولكيلا يجعل مثار التفاخرات! فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود في قصص القرآن وإنما هو العبرة المستفادة من القصة وهي حاصلة منها دون أن تزيدنا معرفة الشخص دلالة اللّهُم إلّا دلالةً قومية عنصرية والقرآن يطاردها!

ثم التأريخ أياً كان ومن أي كان ليس إلّا ركاماً من خليط الحق والباطل،

= بكبش واقف عن النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً: رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم.. ثم يذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرائيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش وقرناه مملكتا الفارس وماد، والتيس ذو القرن الواحد على الاسكندر المقدوني.

وفي «قاموس كتاب المقدس» ترجمةمسترهاكس الأمريكي باللغة الفارسية صفحة ٧٤٣ تحت عنوان «كورس» يقول يعني الشمس، مؤسس الملك الفارسي وفاتح الممالك الأخرى، ثم ينقل عن كتاب دانيال (٦: ٢٨) أن دانيال كان حينذاك في ديوان كورش وقد توفي كورش عن الجراحة التي أصابته في حربه (٥٢٥ ق: م):

فلكورش دور في الكتب المقدسة مجيد يهمه أهل الكتاب ولذلك سألوا الرسول ﷺ عن ذي القرنين، ولا أثر في الكتب المقدسة عن شخصيةٍ هذه سيرته إلّا كورش:

ومما يبعد كونه كورش إلا أثر عن هذا الاسم في الروايات الاسلامية إطلاقاً، ففي بعضها أنه عياش[1] وثان: اسكندر[2] وثالث: مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح[3] ورابع: مصعب بن عبد الله من قحطان[4] وخامس: عبد الله بن ضحاك بن معد[5] وإلى غير ذلك:

(١) كما في تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام وفي البرهان عن الثمالي عن الباقر عليه السلام:

(٢) كما يظهر من رواية قرب الإسناد للحميري عن الكاظم عليه السلام ورواية الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ:

(٣) كما في الدر المنثور عن بعض من أسلم من أهل الكتاب.

(٤) كما في البداية والنهاية.

(٥) البداية والنهاية عن ابن هشام في التيجان.

ويعضه باطل كله، ولا نجد الحق كله إلّا في قصص القرآن، فهي القصص الحق الجارفة تخيلات باطلة معمدة أو ساهية تسربت ودخلت في التاريخ!

ولئن استفتينا التاريخ حول ذي القرنين أم أي شخص مجهول، فإنما نصدق منه ما يصدقه القرآن، ونكذب ما يكذبه ونتردد فيما يسكت عنه! دون أن نستفتيه كأصل نفرع عليه القرآن فإنه منكر من القول وزور!

ثم هؤلاء الأذواء الثلاثة المؤمنون لكل منهم رجاحة متقابلة، فاليمني يترجح بأن اليمن بلد الأذواء قرابة مائة، واليوناني يترجح لشهرته العالمية بذي القرنين وذكره في بعض أحاديثنا ورغم وفرة الأذواء في اليمن فلا قرنين فيه! والإيراني يترجح لذكره في التوراة ولكن ليس فيه ذو ولا قرنين اللّهم إلّا وصغبّاً ولكلٍّ وجه.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾:

دعامتان إلهيتان لهذه السلطة العالمية المنقطعة النظير، اللّهم إلّا في داوود وسليمان عليهما السلام سلفاً، وفي المهدي القائم من آل محمد عليهم السلام خلفاً:
١ - تمكين إلّهي في الأرض كلها. ٢ - وسبب إلّهي من كلِّ شيء على ضوء هذا التمكين وفي سبيله!

هنالك تمكين للمترفين الأثرياء ذوي السلطة والكبرياء يعني امتحاناً وامتهاناً وهو من مخلفات التخاذل من أهل الدين المستضعفين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] ومن ثم تمكين لبسط الخير إكراماً لمن يعرفون نعمة الله ويشكرونها: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

وذلك التمكين قد يكون جانبياً كما في يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾(١) حيث يخص أرض مصر، وآخر عالمي في درجات أعلاها لبقية الله وحجته الكبرى وآيته العظمى محمد بن الحسن المهدي صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام، تمكين له ولصحبه الخصوص ولمن تابعه على وجه العموم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

ثم وأدنى منها ما كان لداود وسليمان بين النبيين ولذي القرنين بين الملوك الصالحين، وأدنى منه ما كان لطالوت آمّن ذا؟

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ في تأكيدات ثلاثة ترفع من شأن هذه السلطة المباركة و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعممها في كافة أرجاء المعمورة، فقد ذلت له الصعاب واستسلمت له البلاد!

والسبب أياً كان هو الذي يتوسل به إلى غاية لا تحصل إلّا به، من عقلي أو علمي أو عملي.

ثم الأسباب لبسط الملك أمّاذا؟ قد تكون حاضرة ظاهرة، وأخرى حاضرة غير ظاهرة، أم ظاهرة غير حاضرة تحصل بمحاولة بشرية مهما طالت أم قصرت، صعبت أم يُسِّرت، فهي في نطاق العلم والقدرة البشرية ممكنة! وثالثة لا من هذه ولا تلك، بل هي خفية عن العلم بعيدة عن القدرة، فلا يؤتيها إلّا الله لمن يشاء ويرضى! ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ يعني ثالثتها وهي الأسباب الخارقة الإلّهية التي تقصر دون التوسل بها العقول والعلوم وسائر القدرات غير الإلّهية!

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هنا لا يعني الاستغراق الشامل لسبب الوحي والنبوة وأضرابها! وإنما ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في سبيل تمكينه في الأرض، ثم ولا يعني كلًّا من هذا الكلم، وإنما البعض من كلٍّ قدر ما يحتاجه كما تلمح له ﴿مِن﴾!

فقد آتاه الله بعضاً من الأسباب اللائقة من كل شيء في سبيل تمكينه في الأرض، ومن أسباب معرفة الحق الناصع الصراح عن الباطل(١) ومن أسباب السفر كالسحاب الذلول أمّاذا(٢)؟ ومن أسباب الضوء حيث تضيء له ليلاً كما تضيء الشمس نهاراً فهو ذو قرني الليل والنهار حيث هما عليه سواء؟

ومن أسباب الشبع والريّ مَنًّا أو سلوى أمّاذا؟ ثم ومن أسباب التفتح في مشارق الأرض ومغاربها كسبب تفهُّم مختلف اللغات(٣) وأضرابه كالطرق وكلها خارقة إلّهية.

---

(١) المصدر ج ٢١٦ ص ٣٠٤ عن تفسير العياشي جبرائيل بن أحمد عن موسى بن جعفر رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: إن ذا القرنين عمل صندوقاً من قوارير ثم حمل في مسيره ما شاء الله ثم ركب البحر.. و٢١٥ العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سأل عن ذي القرنين - ثم سار في جوابه عليه السلام إلى قوله: ثم رفعه إلى السماء الدنيا فكشط له عن الأرض كلها جبالها وسهولها وفجاجها حتى أبصر ما بين المشرق والمغرب وآتاه الله من كل شيء يعرف به الحق والباطل وأيده في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ثم أهبط إلى الأرض وأوحى إليه أن سِر في ناحية غربي الأرض وشرقيها فقد طويت لك البلاد وذلّلت لك العباد فأرهبتهم منك، فسار ذو القرنين إلى ناحية المغرب.... فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له أهل المشرق والمغرب وذلك قول الله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾ [الكهف: ٨٤].

(٢) في الدر المنثور ٤: ٢٤٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة.. فخُير بين ذلال السحاب وصعابها فاختار ذلالها فكان يركب عليها.

وفي تفسير البرهان ٢: ٤٨١ ج ١١ عن الباقر عليه السلام أما إن ذا القرنين قد خير بين السحابتين فاختار الذلول وذخر لصاحبكم الصعب فقلت: وما الصعب؟ فقال: ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة وبرق فصاحبكم يركبه أما إنه يركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر وثنتان خراب.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ =

تُذكر له في تالية الآيات ثلاثة أسباب لثلاثة أسفار بعيدة المدى، قد تكون هي من أهم الأسباب التي أُوتيها في سفراته، وقد أطبقت أحاديثنا أنها السحاب الذلول وأن الصعب منها تختص بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف(١)!.

ولا ﴿سَبَبًا﴾ تأتي بنفس الصيغة ثلاث مرات، دون أن تأتي ثانية وثالثة «السبب» إشارة إلى الأوّل، فقد تعني ثلاث مركبات فضائية مهما كانت كلها من صعبة السحاب أمّاذا؟

هنالك أسباب غيبية أرضية أم فوق الأرضية أم السماوية تُستخدم في مثلث الأسفار بما آتاه الله، قد يشار إلى وجودها وإمكانية التسبب بها: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾(٢) ولولا أن هناك أسباباً ترقى إلى السماوات لم يكن لهذا التحدي مجال على أية حال، ومنها المركبة المعراجية المحمدية ﷺ، وقد يشار إلى إمكانية الارتقاء إلى السماء بأسباب مصطنعة أمّاذا؟: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾(٣).

ولقد خيِّل إلى فرعون إمكانية البلوغ إلى أسباب السماوات، وطبعاً لم يك يعرف واقعها إلّا بمعرفة الوحي من موسى أم سواه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ

= سَبَبًا...﴾ [الكهف: ٨٤] قال: علماً من ذلك تعليم الألسنة كان لا يعرف قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩٦ ج٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل علياً عليه السلام أرأيت ذا القرنين كيف استطاع أن بلغ الشرق والغرب؟ قال: سخّر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء و٢١٣ في تفسير العياشي عن أبي بصير عليه السلام قال: إن ذا القرنين خيِّر بين السحاب الصعب والسحاب الذلول فاختار الذلول فكان إذا انتهى إلى قوم كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرسل.

(٢) سورة ص، الآية: ١٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٥.

ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾(١) (٢).

المركبة الفضائية الأولى لذي القرنين:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

هل الاتباع هو الإلحاق يتبعه مفعولان؟ كما ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾(٣) إذاً فما هو المفعول الثاني لـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾؟! أم هو اللحوق ولا يتبع إلّا مفعولاً واحداً: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(٤) أو أنه كما نراه يستعمل متعدياً إلى مفعول واحد أحياناً وإلى مفعولين أخرى؟ إذاً أليس من الأفصح «فتبع» نصاً في اللحوق؟ ولكنه قد يعني في مفعول واحد سرعة اللحوق وكما نراها في موارده(٥).

وهذه طبيعة الحال في المركبة الفضائية السحابية أم ماذا؟ وهي دائبة السير، فليلحقها ذو القرنين سريعاً كما لحقها! ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو المغرب الأقصى، وبينه وبينه شاسعة المسافة بين المشرق الأوسط أو الأدنى إلى المغرب الأقصى، ولا تجتاز تلك البعيدة المدى مشياً أو ركوباً

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٢) راجع تفسير الآية في المؤمن تجد فيه تفصيلاً عن أسباب السماوات.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.
(٥) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [يونس: ٩٠] ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: ٧٨] ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] أو ﴿ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

بالوسائل القديمة إلّا في سنين بمعدات قد تستحيل مهما طال الزمن، وهي أولى السفرات الثلاث الطائلة لذي القرنين، فلولا أنه «أتبع سبباً» سماوياً آتاه الله لما قطع واحدة منها إلّا انقطع ولمّا!

مغرب الشمس وقتذاك هو آخر المعمورة اليابسة من الجانب الغربي، وإلّا فلا مغرب للشمس كنقطة خاصة من المعمورة، ولكلّ أفقٍ من الشمس مشرق ومغرب عدد أيام السنة!.

فلأن ذا القرنين كان من الشرقيين أياً كان، فمغرب الشمس بالنسبة إلى مبدئه في سفرته هو المغرب الأقصى إلى جانب البحر حيث الأفق البحري لغروبها مدُ البصر في البحر، هو بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أترى الشمس تغرب في عين حمئة أم غير حمئة، ولا غروب حقيقياً للشمس، فلها مشارق ومغارب منذ خلقت حتى يوم تكويرها، دون شروق مطلق، أم غروب مطلق بالنسبة لأرضنا وأضرابها، أم هي شارقة دون غروب بالنسبة لنفسها... ثم وهي في مشارقها ومغاربها، وفي مشرقيها ومغربيها، وفي مشرقها ومغربها، لا تشرق أو تغرب إلّا في ملتقى أفقي الأرض برياً أو بحرياً وافق السماء[1] دون عين حمئة أمّاذا؟

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٠٦ ج ٢٢١ في كتاب التوحيد حديث طويل عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: كنت آخذاً بيد النبي ﷺ ونحن نتماشى جميعاً فما زلنا ننظر إلى الشمس حتى غابت فقلت: يا رسول الله! أنى تغيب الشمس؟ قال: في السماء ثم ترفع من سماء إلى سماء حتى ترفع إلى السماء السابعة... أقول قوله «في السماء» ظاهر لا مرية فيه أنها تغرب في ملتقى الأفقين الأرضي والسماوي، وأما «ترفع في سماء إلى سماء... حتى ترفع إلى السماء السابعة» أنه إما مؤول أو مختلق مردود، وتأويله أنه ﷺ اقتسم ملتق الآفاق الأرضية السمائية إلى سبعة ولماذا؟ لا ندري! إن الشمس تحول حول الأرض ويترائى لها مغارب سبعة وعلّها في الأقاليم السبعة أمّ ماذا.

ثم أقول: وما روي أن الشمس تغرب وتطلع بين قرني الشيطان اختلاق ممن يكرهون الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، ولم ترد في بعض رواياتنا إلا تقية ففي الكافي عن محمد =

نجد الجواب في الآية نفسها: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ...﴾ لا أنها «غربت» فهي تنظر إلى منظرها في غروبها دون واقعة ﴿وَجَدَهَا...﴾ بياناً لمنتهى المعمورة الغربية بالمحيط البحري الأطلانطيقي.

فكما أننا نجد الشمس تغرب في الآفاق الصحراوية، في قلل الجبال أو الأتلال أو مستوية الأرض أمّاذا، كذلك سكان الجزائر لا يجدون غروب الشمس أو طلوعها إلّا في الآفاق البحرية.

وكأن ذا القرنين وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) حيث يُخيَّل أن اليابسة منتهية عنده، وكان عند مصبٍّ أحد الأنهار حيث تكثر فيه الأعشاب وتتجمع حولها طين حُمي: لزج، فرأى الشمس تغرب هناك كأنها ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: المحيط الغربي الذي فيه الجزائر «الخالدات» حيث كانت مبدأ الطول الجغرافي مسبقاً ثم غرقت.

والعين الحمئة قد تعني إضافة إلى السوداء حيث الحمأة هي الطين الأسود، قد تعني الحارة حيث الحمأ هي الحرار المتولدة من الجواهر المحميّة والمغرب الأقصى في إفريقيا الحارة من أحرّ ما فيها، فبحره حار

= ابن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يصلى على الجنازة في كل ساعة، إنها ليست بصلاة ركوع ولا سجود وإنما تكره الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها التي فيها الخشوع والركوع والسجود لأنها تغرب بين قرني الشيطان وتطلع بين قرني الشيطان، وتقية الفرار هنا لائحة، حيث النص الذي يروون إن كان بلفظة الصلاة فيشمل كل صلاة، وإن كان نصاً فيما فيها الركوع والسجود لم تك حاجة إلى الاستدلال، ثم الخشوع يعم كل صلاة دون اختصاص بما فيها الركوع والسجود، ثم نرى نقضاً صارماً يجتث هذه الحكمة المختلقة أو أنها تقية، فيما أخرجه اكمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن جعفر الأسدي قال: كان فيما يورد عليّ من الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان العمري في جواب مسائلي إلى صاحب الزمان: وأما ما سألت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ولئن كان كما يقولون إن الشمس تطلع بين قرني الشيطان وتغيب بين قرني الشيطان فلا شيء أفضل من الصلاة وأرغم أنف الشيطان!

كما برّه، فهي ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ في حمأتين! حرارة في سواد وحمرة، كما الشمس ترى عند غروبها محمرَّةً.

لا نعرف بالضبط المحدّد ذلك المكان إلّا ما عرَّفنا الله ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وكفانا!

وإنما القصد القوم الذين عند المغرب الأقصى حيث ظَلَموا وأتاهم ذو القرنين تأديباً وتقويماً: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ﴾؟ وجد عند الشمس في مغربها قوماً، في منتهى اليابسة الغربية، لا عند الشمس ذاتها! أم عند العين الحمئة فيفيد نفس المعنى.

يجد هناك قوماً حمئاً عند عين حمأة. أتراه تغاضباً عن أقوام ظالمين بينه وبين مغرب الشمس والأقرب يمنع الأبعد؟ طبيعة رسالة عادلة كملكية كهذه تقتضي وتقضي بعدم التغاضي، ولكنه كيف؟ لا ندري!

﴿. . . قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

هل القول الخطاب هنا دليل على نبوة للمخاطَب؟ كلا! حيث الخطاب أعم من وحي النبوة والإلهام كما في مريم وأم موسى وآدم قبل توبته وقد يجوز أنه كان معه نبي يوحى إليه بواسطته كما كان لطالوت بنبيٍّ معه!

وترى الترديد التخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس تخييراً بين الحَسَن والقبيح، لقرن التعذيب باتخاذ الحُسن؟

اتخاذ الحسن فيهم هو السماح عما يستحقونه من النكال رجاء الرجوع والتوبة، والتعذيب تحقيق النكال، وكلٌّ يتبع ظرفه الصالح، إذاً فالتخيير هنالك صالح! تخويلاً قيادياً صالحاً لسلطة صالحة حسب المصلحيات العادلة الفاضلة.

وترى كلهم كانوا ظالمين يستحقون العذاب؟ وتقسيمهم في الجواب

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ... وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ....﴾ يطارده! أم جلّهم والباقون لا يستحقون العذاب؟ فلكل حكمه ولا تخيير!

إنهم جُلّهم وليس التخيير إلّا فيهم، فلم يقل «إما أن تعذبهم» وإنما ﴿تُعَذِّبَ﴾ يعني من يستحق العذاب منهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ﴾ هم أنفسهم ﴿حُسْنًا﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ...﴾ يعني استمرارية الظلم من قبل وحتى لقاء ذي القرنين دون أن يفيق فيؤمن[1] فلا مجال له إلّا عذابه ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ آمن بعد كفره توبة عما سلف فحسنٌ، أم آمن من قبل واستمر في إيمانه فأحسن، ولكلٍّ حسب إيمانه وعمله الصالح عِدّةً وعُدةً ومُدةً ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أحسن مما آمن وعمل صالحاً فضلاً من ربك عطاءًا حساباً!.

والتخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس إلّا في فيمن آمن بعد ظلمه، وقد يشمل المستمر على كفره في فرض بعيد، اللّهم إلّا في غير الواجب قتله جوازاً في قتله والسماح عنه، تخيراً عاقلاً عادلاً دون فوضى وكما في المحاربين والمفسدين في الأرض: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ فالتخير هناك كالتخير هنا راجع إلى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون أن يكون أعمى وفوضى أن يجزى أقل الساعين في الأرض فساداً قتلاً، ثم ينفى أشد المحاربين حبساً!

المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلّهية بيّناً وعرفاً: ﴿فَسَوْفَ

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩٨ ح٢١٥ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما من ظلم» ولم يؤمن أقول: يعني لم يؤمن عند ذي القرنين بعد كفره قبله، ولم يقل: وأما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقاً ثم تاب عن ظلمه فآمن.

نُعَذِّبُهُۥ﴾ ومن ثم نكراً: غير معروف ولا منتظر هنا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى ورؤية البأس، وأما التائب عند رؤية البأس فقد لا يُعذب هنا إذا كانت توبة صادقة أو تُحتمل، ثم أمره إلى ربه!

فالظرف هنا للظالمين الجُلِّ بمختلف ظلمهم، وتوبتهم وعدم توبتهم، هو يقتضي تخيّر الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين وما أحسنه، وحسب مرسوم الشرعة العادلة والفاضلة الإلهية: إعلاناً في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلاً، وآجلاً يزيد نكراً، ولغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع إلى عدلهم، وللتائبين الآئبين قول يُسر دون عُسر ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ دون تعذيب ولا تأنيب في قولة لاذعة، فالإسلام يُجبُّ ما قبله! وإنما قول يُسر حيث تاب عما سلف: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم قولٌ يسرٌ فيما يتوجب عليه تداركاً لما قد سلف، والأمر في ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ شرعيٌ للحاكم المتمكن، إشارة إلى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر والتكليف العسر، وإنما يسرٌ في يسرٍ.

ثم مقابلة ﴿مَن ظَلَمَ﴾ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] يوسع نطاق الظلم إلى كفر عقائدي وعملي لازماً أو متعدياً، وإلى فسق عملي لمن آمن على مراتبهما بأحكامهما الجزائية.

وما هو ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ أنه جزاء أحسن مما عمل ومما يجزى في الحياة الدنيا، فهناك تصريحة بعذاب الدنيا لمن ظلم «فنعذبه» لأنه ثابت حكماً على أية حال وعملاً لمن مُكن في الأرض، وهنا تلميحة للجزاء الحسن وتصريحة بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت ولا موعود إلّا أحياناً!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

ولماذا ﴿جَزَآءً﴾ منصوباً لأن الحسنى مبتدأ لـ ﴿لَهُۥ﴾ وقدم الخبر للحصر «له لا لسواه»: فله الحسنى جزاءً، وَالنصب على التمييز، دون حاجة إلى تكلفات أدبية أخرى لا يرضاها أدب القرآن!: فله - فقط - من حيث الجزاء المثوبة الحسنى أحسن مما قدم ويستحقه في الحياة الدنيا(١).

وهذه طريقة مثلى ومعاملة حسنة مع فريقي الظلم والإيمان، تخيراً للحاكم المبسوط اليد بالتي هي أحسن في ﴿أَمَّا . . . وَأَمَّا﴾ دون تخير فوضى وأعمى، وإنما عدل صارمٌ عقاباً لزاماً، وفضل كارم ثواباً كراماً!

إنه ليس الحكم والسلطة الإلَهية ظلماً وزوراً وغروراً ما وجدتَ لها سبيلاً، وإنما هي رحمة على المجموعة وقضيتها القضاء على المعتدين، فإمهالهم اعتداءٌ على المظلومين، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلاً وحتى للذين ظلموا إذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة وإن لم تنفعهم توبة، فضلاً عمن يفيق ويتوب، دستور إصلاحي بكل معانيه، يتبنى الصلاح بكل مبانيه!

نرى القمة الرفيعة من هذا الدستور في الشرعة الإسلامية، وتدلنا سيرة الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ على مدى هذه الأخلاق الفاضلة ومن نماذجها ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾(٢) فقد يُدفع السيّىء بالسماح، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب وتأنيب كما يصلحه أو يحجز عن ظلمه، وأخيراً كآخر الدواء الكي، القتل، إذا كانت حياته على أية حال ظلماً على المجموعة، فكل ذلك الدفع ليس إلّا بالتي هي أحسن، وكصورة أولى ﴿. . . فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾(٣)!.

إن التعذيب في ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ يشمل مراتب النكال هنا اعتداءً بالمثل

---

(١) فالحسنى وصف لمقدر المثوبة وجزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى، وتقديم جزاءً لإفادة تهيّىء أكثر من العادة، وما أحسنه لفظاً ومعنى!

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

أو دون ذلك، من ضرب إلى قتل وبينهما متوسطات، وكما أن حسن الجزاء وحسناه في الأولى والأخرى له درجات حسب الدرجات ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١].

وبصيغة أخرى إن تحقيق ذلك التخيّر في مراتب التعذيب وحسن الجزاء هو يمثل ﴿وَإِمَّآ أَن نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنَا﴾ فإن تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة وحتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم أم - لأقل تقدير - تقليلاً لظلمهم. فلو ظلوا طويلاً لأضلوا وظلموا كثيراً!

كما ومن اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيّهم ومساعدتهم عن عيّهم ولكي يجيدوا الإيمان وعمل الصالحات ويحيدوا عن الطالحات.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كأنها أطولها فإنها من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار وأنهار!

و﴿ثُمَّ﴾ هنا تلمح للتراخي بين وصوله إلى أقصى المغرب ومغادرته عنها، وهذه طبيعة الحال في سفرة إصلاحية كهذه، وفي قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابغة اللائقة، هذا وإن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللّهم إلّا لمحة ثمة من ﴿ثُمَّ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وتنكير ﴿سَبَبًا﴾ يدلنا أنه غير السبب الأوّل شخصاً، مهما كان من جنسه أمّاذا؟ فلا يهمنا شخص السبب ولا جنسه ونوعه، وإنما ﴿سَبَبًا﴾ إلّهياً لم يحصل إلّا بما آتاه الله.

اتبعه لحوقاً سريعاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مطلعها من أقصى الآفاق

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الشرقية في عين الرائي، وكما في مغربها لأقصاه، في يابسة المعمورة بجانب البحر المحيط، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق وعين حمئة.

﴿... وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لا ستراً خلقياً من مرتفعات غابات وجبال وأشجار وأتلال، ولا ستراً مصطنعاً من بيوت[1] أو خيام أمّاذا فتنكير ﴿سِتْرًا﴾ يستغرق نفي الستر أياً كان وحتى الملابس[2] فإنها سترٌ عن الحر والقرِّ! ومهما كان جعله إلَهياً دون وسيط من سكان الشرق الأقصى حينذاك، كالأوّل، أم بوسيط كالثاني، فهما على أية حال راجعان إلى الله!.

إذاً فهم قوم بدائيون ومن أبداهم، كانوا يسكنون في أرض مستوية مكشوفة لا تظلهم إلّا شمسهم ولا تقلهم إلّا أرضهم، دون أي ظِلٍّ أو قِلٍّ سواهما! فـ «قد أحرقتهم الشمس وغيرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة»[3].

فهل كانوا كلهم مؤمنين؟ وهو في العادة مستحيل ولهذه البداءة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلَهية أم وسواها! ثم ولماذا لم يحدِّث لنا بحديثهم البارع أو حديثه لهم!

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٠٧ ج٢٢٢ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ﴾ [الكهف: ٩٠-٩١] قال: لم يعلموا صنعة البيوت.
وفي الدر المنثور ٤ : ٢٤٩ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن جريج في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ الآية قال: حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أنها لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى نزول الشمس أقول: وقد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في «ستراً» حيث الأسراب ستر كما البيوت.

(٢) المصدر في تفسير القمي في الآية قال: «لم يعلموا صنعة الثياب» أقول: تشمل الخيام.

(٣) من حديث الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

أم كانوا كلهم فاسقين؟ فأحرى بهذا المصلح إصلاحاً لهم أو تعذيباً ولم يلمح هنا بشيءٍ في هذا البين.

أم كالقوم الأول: منهم مؤمنون ومنهم دون ذلك؟ فلماذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1]!

وإذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذاً؟ ولماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفرة البعيدة المدى، وهي أبعد من الأولى والأخرى، دون إنتاج له ولهم؟!.

يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين، كانوا ضُلّالاً غير عارفين، لا مؤمنين ولا فاسقين، ومهما كانوا هم من المكلفين، فهم ممن لا يهتدون سبيلاً، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها، إذاً فهم مُرجَون لأمر الله في مختلف الدرجات تكليفاً وجزاءً: ١ - ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾[2]. ٢ - ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ...﴾[3]. ٣ - ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾[4]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ .... فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5] فهؤلاء الثلاث من قمة الإيمان ودرك الكفر والمتوسط بينهما، له ما أصلح وعليه ما أطلح، ومن ثم رابع ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[6].

وقد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ فليس لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠، والكهف: ١٠٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

يسطعون، كما قد يلمح له ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وكما يلمح لغاية أخرى من هذه السفرة أن يحيط خبراً بأدنى المكلفين في المعمورة.

﴿أَحَطْنَا﴾ هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال والاستقبال في ذي القرنين على أية حال، ولكن الخبر المحاط لربنا قد يخبرنا به وقد يسكت عنه دون ضِنَّةٍ، وإنما بحكمة كما هنا، وعلّنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات واستنباطات كالذي قلنا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ... ﴿٩٤﴾﴾:

خطوة ثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية، يُتبع فيها سبباً ثالثاً نقول فيه مثل الذي قلناه في الثانية، فهي غير الأولى والثانية، وعلّه من نوعه لمكان التنكير ﴿سَبَبًا﴾:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِقَوْلًا﴾ سفرة بسببه من أقصى المشرق إلى ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ فأين هو؟ لحد الآن لا ندريه! وأما من هم ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟ وإذا لا يفقهون فكيف ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾؟!

نحن لا نعرفهم ولا مكانهم إلّا ما عرّفه القرآن أنه ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهو طبعاً بين أقصى الشرق والغرب شمالاً أو جنوباً أمّاذا؟ فإنه قطعاً - ليس مشرق الشمس أو مغربها حيث بلغهما قبل هذه.

ثم ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ هما ما يسدان ويحجزان، أهما صناعيان؟ وإنما الصناعي لغرض صد الماء دفعاً لضره أو انتفاعاً من جمعه! والفتحة ناقضة لهذا القصد، أو صد الهجمات عمن وراء السدين؟ وهذان السدان لم يكونا صدين لأيٍّ هاجم، حيث الفتحة بينهما ممرٌّ لكل مارٍّ، وقد طلبوا إليه أن يجعل بينهم وبين المفسدين سداً! ثم وهم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولاً لم يكونوا ليفقهوا صناعة سدّ وقد فقهها المهندسون في دور التقدم والرقي، ثم وَلَم يكملوا الصد في السدين طمّاً للفتحة بينهما؟!

إذاً فهما حاجزان طبيعيان لا يُظهر عليهما ولا يُنقبان «فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً» وإن كان يختص هنا بالردم، ولكن السدين إن لم يكونا في هذا الاختصاص كالردم، كان جعل الردم دون فائدة!

إذاً فهما جبلان[١] صلبان شاهقان، لا ينقصهما حجزاً عن الهاجمين إلّا ردمٌ بينهما وقد طلبوه إليه! وقد يلمح لذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾[٢]: الجانبين الصلبين.

و﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يعني إلّا النفي المعمّق لفقه القول، لا نفي القول، فرب قائل لا يفقه ما يقال له ولكنه يفقه ما يقول! أو يكاد يفقه قولاً.

ثم ﴿قَوْلًا﴾ قد يعني معنًى صالحاً من قوله، لا لغة، فإنهم - لأقل تقدير - يفقهون لغتهم وقد تكلموا بها ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ..﴾ ولا يرجى من أهل كلِّ لغة إلا تفهم لغته دون اللغات الأخرى.

فعلّهم كانوا في بساطتهم وسذاجتهم لحدٍّ لا يفقهون قول أي قائلٍ سواهم اللّهم إلّا من هو في مستواهم، وذو القرنين كان يتحدث مع أهل كل لغة بلغتهم بسبب إلّهي آتاه الله من كل شيء ومنه شيءٌ اللغة، ولكنهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فقد لا يفقه الإنسان قولاً ولكنه يُفَقَّه لاستعداده أن يفقه بمحاولة، وقد لا يستعد التفقه ولكنه يكاد أن يستعد فيفقه، ولكن هؤلاء كانوا في البساطة وخفة الفهم لحد ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أيّاً كان هذا القول إلّا ممن هو في مستواهم، ويردد عليهم مفاهيمهم دون أن يخطوها إلى سواها، وذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم وبكل بساطة، إلّا أنهم ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وهم غيّبٌ عن تفهم أي غائب فـ ﴿قَوْلًا﴾ يعني قولاً يحتاج إلى تأمل وتفقه.

---

(١) في حديث الأصبغ عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤] خلف هذين الجبلين وهم يفسدون في الأرض.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

هنا ييأس هذا المصلح العالمي أن يفيدهم فقهاً ويزيدهم علماً، فهل يذرهم بعد وعثاء السفر دونما إفادة؟ كلا - إنه أصغى إليهم ما هي متطلباتهم فـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾! فهم مهما لا يفقهون قولاً فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ فلما رأوه صالحاً قوياً مصلحاً تطلّبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سداً.

﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحاً عدلاً قوياً صارماً يتوسمون فيه الصلاح والإصلاح وهم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الدائب من وراء السدين من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيثون في أرضهم فساداً وهم ضعاف عن مقابلتهم، إفساداً في النسل والزرع[(١)] أمّاذا؟

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؟ ذات دلالتين على التماسهم منه ١ - ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾. ٢ - هل تجعل سداً - وإذاً فهل نجعل لك خرجاً: أجراً نُخرجه عما تُخرجه من مال أو قوة؟ دون زيادة عنهما، والأجر أعم من الخرج، فقد يتأجر أكثر مما يُخرج اعتباراً بلباقة الرأي ولياقة صاحب الرأي، وهو عدل ما لم يُجحِف، أو يسوي بين خرجه وأجره وهو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئاً، أم لا يأخذ خرجاً وإنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه، يساعده في طلبه، وهو فضل حيث اشتغل دون عوض، وتفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يسطع دون بطالة، وهكذا يفعل ذو القرنين، كأفضل ما يمكن أن يقدّمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين

---

(١) في حديث الأصبغ عن أمير المؤمنين عليه السلام ... «إذا كان إبان زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا وزروعنا حتى لا يبقون منها شيئاً...».

مظلومين، يتعاون معهم في صالحهم، دون أن يأخذ أجراً أو خرجاً إلّا أن يستعملهم لما يطلبون إعانة بقوة ومال هما خرج للردم ودون أن يكون له شيء إلّا أجر من ربه.

فذو القرنين يبلغ بين السدين، ويُطلب منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أن يصد بين السدين تخلصاً لهم عن إفسادهم في أرضهم، مما يبين كونهم مستضعفين وغير ظالمين، وإلّا تطلبوا إليه صد الإفساد فيما بينهم كما بينهم وبين المفسدين وراء السدين، وبطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولاً لا يستطيعون الإفساد، أم إذا استطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم، يدل على كل ذلك تطلبّهم إلى هذا المصلح العظيم أن يجعل سداً هو صدٌّ عن الإفساد في أرضهم!

من هذه الدعوة على بساطتها ومن تلكم الإجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الإفساد من أي كان وأياً كان وأيان! تكريساً لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بإمدادت إلّهية، خروجاً عن الإستضعاف وعيث الفساد، دون أي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابرهم على الفساد وتخاذلهم أمام المفسدين، فصداً صداً أو سداً سداً! بعدما كلت كلّ المحاولات للقضاء على المفسدين أو على فسادهم أم الهجرة عنهم أمّاذا؟ فلا يتبرّر المستضعف تحت نير الإفساد من المستكبرين قوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾[1] حيث يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ...﴾[2]... اللهم ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3] فما دام هنا سبيل إلى التخلص أي سبيل، كائناً أو متمكناً، فلا يُعذر المستضعف، وحتى إذا لم

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨

يستطع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ . . .﴾[(١)] ترجياً دون تحتم!

إذ فيهم من كانت له الهجرة أو أية مقاطعة فتصابَرَ على تركها بنير الذل حتى زالت استطاعته وحيلته. . . ! إلّا من انتشأ وظل بين المستكبرين قصوراً دون تقصير وقليل ما هم؟

فيا له تكليفاً لزاماً ما أشمله: مجانبة عوامل الفساد قدر المستطاع، دون سماح لأي همول أو خمول، سلباً لكل فساد، ومن ثم محاولة دوافع الصلاح والإِصلاح فرضاً لزاماً قدر المستطاع دون سماح لأي همول أو خمول!

ولنكن ثالث ثلاثة من المستضعفين في حياة الجهاد الدموي الدائب. . . وإلى رابع أضلاع الحياة: «ورثة الأرض» لا مستكبرين ولا مستضعفين، وإنما مؤمنين أقوياء في دولة مباركة عالمية زمن المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

ونقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف: أخبروني أين أنتم من سليمان بن داود ثم ذو القرنين عليه السلام، عبدٌ أحب الله فأحبه الله، طوى له الأسباب، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد أحداً عاب عليه[(٢)]!.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٢) نور الثقلين ٣:٣٠٨ ج٢٣٤ في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث يقول فيه عليه السلام: لأقوام. . . .

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أن مكنني في الأرض وآتاني من كل شيء سبباً - إنه ﴿خَيْرٌ﴾ من خرجكم... فأنا أستعين بسببٍ من ربي علماً وقوة، ثم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بشرية، فليست القوة الخارقة الإلّهية لتبطل أو تعطّل قوة بشرية، فمهما كان بالإمكان جعل الردم بسبب آلهي صارم دون تسبب إلى قوة بشرية، ولكنه عُطالة عارمة لهذه القوة، فإنما الخارقة للعادة فيما تقصر عنه العادة قدَرَه، أم تثبيتاً لنبوة إلّهية ليست لذي القرنين، أم لحجة إلهية آية باهرة على رحمته.

وهذه سنَّة الله الدائبة، عدم التغاضي عن الحول والقوة الخلقية، فإنه بطالة، وأحياناً فعل خارقة إلّهية يساند الفعلة الخلقية، وكما في جعل ذلك الردم.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قدر المستطاع من مال أو حال، ألأجعل لكم سداً كيفما كان؟ لا! بل ﴿رَدْمًا﴾ يسد الثلمة، فأيسر طريقة وأقواها هي ردم الممر بين السدين، ليردم الماردين المفسدين، فلا يستطيعون أن يظهروه لارتفاعه، ولا أن ينقبوه لحدَّته، فكم من سد يُظهر عليه وهو حديد، وكم من سدّ رفيع يُنقب لأنه وهيد غير حديد، ولكنه ردمٌ يسد الثلمة نقباً وارتفاعاً!.

لم يكن هنالك طريقة أخرى لصدهم عن الإفساد إلّا بسدهم ردماً، فهل يقتل أو يعذب المفسدين ثم يتركهم؟ فمن ذا يضمن عدم عودة الباقين إلى إفسادهم؟ وماذا يضمن من لا يستطع منهم الإفساد أو هو تاركه الآن ألّا يفسد بعد الآن؟ أو يبيدهم كلهم؟ فقصاصاً قبل الجناية لبعضهم! وعلّ في أنسال مفسديهم صالحين أو مصلحين: فلا طريقة إذاً - أمثل من صدهم بسدهم! ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1].

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ والزُّبرة واحدتها وهي القطعة العظيمة، فقد طلب

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٨.

إليهم أن يأتوه قِطَعاً من الحديد دون تحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ حيث ملأ بينهما من زبر الحديد لحد ساوى بين الصَّدَفين: الجانبين الصلبين من السدين، وهي رُكامة حديدية بين الحاجزين فأصبحا كانهما صَدَفتان تغلقان ذلك الكوم الممر حيث الركام سامتَ القمتين، ومن لطيف الصُّدَف تساوي الصَدَفين كما تدل عليه ﴿سَاوَىٰ﴾.

وكيف يلحَم بين زبر الحديد حتى تصبح كأنها زبرة واحدة كجبل حديدي بين الجبلين؟ هنالك نفخ وقِطرٌ يلحِّمان زبر الحديد كأقوى تلحيم! ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ بمنافخ فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ المنفوخ ﴿نَارًا﴾ فضمير المفرد رغم جمعية زبر الحديد يلمح إلى حِدة الالتحام بينهما لحد الوحدة أو كأنها زبرة واحدة، ومن ثم ﴿نَارًا﴾ لا نيران، لمحة مليحة إلى وحدة نارية بعد وحدة الالتحام وحِدَّته، نارٌ واحدة في شدة الحرارة والالتحام.

وهل يكتفي بذلك، وعلّ بين هذه الوحدة النارية فُرجاً؟ كلّا، إنه القطر: النحاس المذاب، يفرغ على هذه النار الزبرة الحديدية فيكتمل أمر السد الردم!.

﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ نحاساً مذاباً يتخلل الحديد النار، ويقويه أقوى من خالص الحديد، قِطرٌ على حديد ونارٌ على نار.

وهذا الخلط كان من الأسباب القوية لتحكيم الردم، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية كلٍّ من النحاس والحديد فكلٌّ بمفرده أضعف من هكذا خلط يجعلهما كالفولاذ!

كما وأن ذلك النفخ وزبر الحديد ومذاب النحاس بعيد عن قوم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا﴾[1] حيث البداءة والسذاجة في أبسط مراحلها جعلت منهم بُلهاً لا يعرفون شيئاً، فكيف لهم بإتيان زبر الحديد، والنفخ فيه لحدّ جعله

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٣.

ناراً والنحاس المذاب، فلم يكن لهم شغل في هذه الثلاث إلّا إتيان زبر الحديد ﴿ءَاتُونِى...﴾ دون استخراجها من معدنها، أو نفخ فيها دون المنفخ ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ ثم إيتاءٌ ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ حيث إفراغ القطر من فعله دونهم، وإنما هم عمَّال في هذه الثلاث: إيتاء ونفخ وإيتاء، وأما تحصيل زبر الحديد والمنفخ والنحاس وإذابته فكل ذلك مما آتاه الله من كل شيء سبباً!

فهناك معدن للحديد دلّهم ذو القرنين على استخراجه، ومنفخ دل على اصطناعه أمّاذا، ومعدن للقطر ثم مذَيبٌ، كل ذلك بأسباب خارقة إلّهية وهم عمّال يؤمرون لا مصطنعون ومخترعون!

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧﴾:

فقد صدهم هذا السدّ، إذ حاولوا أن يظهروه فما استطاعوا، وحاولوا له نقباً لينفذوه فما استطاعوا، فاستراح هؤلاء المستضعفون عن إفسادهم وكأنهم سألوه من أين هذه الكرامات الخارقة؟ فـ:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨﴾:

ذلك الملِك العدل الرؤوف يجتاح الأرض مشارقها ومغاربها ممكَّنا متمكِّناً ميسَّراً له من كل الأسباب، ولا تأخذه العزة بالإثم والكبرياء بالخيلاء، ولا يطغى تبطراً، ولا يبغي من القدرة مغنماً، ولا يستغل السلطة استعباداً، وإنما ينشر عدلاً ورحمة، ويأتي بخارقة تلو الأخرى، وعند انتهاء هذه الحلقة ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ يسند كل ما أتى به إلى رحمة ربه دون سناد إلى نفسه إلّا كواسطة في هذه وتلك الخارقة.

ولكيلا يخلد إلى خَلَدٍ خلو ردْمه الفولاذي يدكّه بوعد ربه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ تدميراً بعد تعميره ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ ليِّنة سهلة، بعد ما كانت فولاذية مرتفعة صلبة ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ في دكّها.

ترى وما هو ذلك الوعد؟ هل هو الوعد العام بدكداك الأرض وما عليها ويضمنها ذلك الردم: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾(١)، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾(٢)؟

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

تدلنا على تماوج الأحياء بعد دكداك الردّم، ثم بعدهما نفخ الصور وجمع الجمع! ثم وآية الأنبياء قد تناصرها أن وعد الدكداك هذا قبل القيامة الكبرى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(٣).

ففتح يأجوج ومأجوج بدكّ الردم، والدك الفتح هما في الآيتين قبل جمع الجمع، فهناك ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ وهنا أدل منها وأقرب ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ فجمع الجمع والوعد الحق هما بعد وعد الرب ودكّ الردم.

وعدٌ أوّل خاص يشمل دك الردم، ففتح يأجوج ومأجوج كشرط من أشراط الساعة الوعد العام.

ثم الوعد الحق في قيامتي التدمير والتعمير هو مقترب - لا واقع - عند وعد الرب بهدم الردم وفتحهم وتركهم يومئذٍ يموج بعضهم في بعض وهم من كل حدب ينسلون، فـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ الرامي إلى نفخة

(١) سورة الفجر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٥ - ٩٧.

الإِحياء ليس إلّا بعد نفخة الإِماتة، وهي بعد اقتراب الساعة بأشراطها التي منها: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ...﴾!

وترى من «هم» في ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ...﴾؟ أهم يأجوج ومأجوج؟ وهم كان بعضهم مائجاً في بعض قبل دكّاء الردم!

أم هم المجموعة منهم والقوم الذين كانوا لا يكادون يفقهون قولاً، مستضعفين ومستكبرين، إذ انفتح الردم ففتحوا كما كانوا قبل سد الردم، فأصبحوا كأمواج البحر الملتطم يتلاطمون في تماوج عارم وتهارج صارم، وهو الصحيح!

أو هم مجموعة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، يتركهم يومئذٍ يموج بعضهم في بعض، في هرْج ومرْجٍ وفساد دائم وظلم عارم، وعلّه الأصح!

إن يأجوج ومأجوج - أياً كانوا - إنهم بعد ذلك النفخ من كلٍّ حدب ينسلون، ولأن «حدَبَ» هو المرتفع، فكلُّ حدب يعم كلَّ مرتفع يمكن أن يرتفع: من مرتفعات بحرية وبرية أو جوية، محلِّقين على كل محلق، دون اختصاص بحدب الردم ولا حَدَب له بعد دكِّه!.

وأن ﴿يَنسِلُونَ﴾ هو: ينفصلون مسرعين، ويلدون، فـ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قد يعني الهرج والمرج العالمي من قبيل يأجوج ومأجوج، مسيطرين على كل مرتفع، مسرعين في الانفصال عنه إلى الناس المستضعفين، ناسلين ولداً به يكثرون، وعند ذلك الطامة الوسطى: أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً نظرة أن يملأها الله بعده قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه.

ولأن «المَوَجان» من صفات الماء الكثير، فـ «يموج بعضهم في بعض» توحي بشدة اختلافهم، ودخول بعضهم في بعض لكثرة أضدادهم، تشبيهاً

بموج البحر المتلاطم، والتفاف الدبا المتعاظل، تماوج مختلف المياه عذباً ومالحاً ومُراً أجاجاً.

وهكذا تكون الفتنة العالمية حيث تُملأ الأرض ظلماً وجوراً، فلا يبقى موضع قدم إلّا وفيه هرْج ومرْج!

أين ردم ذي القرنين؟

لأن ذلك الردم بدكّه وفتح يأجوج ومأجوج هما شرطٌ من أشراط الساعة: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ...﴾[1] فلنحاول في الحصول على معرفة عنها قدر المستطاع على ضوء القرآن، وما يلائمه أو يثبت من السنة والتأريخ الجغرافي وسواه.

فهل إن ذلك الردم هو جدار الصين؟ وليس سدّاً ولا ردماً! وليس حديدياً وذلك الردم حديد بقطر! وليس بين جبلين، بل بين سهول وجبال عدة والردم بين جبلين! وقد بناه ذو القرنين وجدار الصين بناه «شين هوانك تي» في طول ألف كيلو متراً وعرض تسعة أمتار وارتفاع خمسة عشر متراً بالأحجار، وهو قاطن الصين دون سفر إليه لبناء جداره وذلك بنى ردمه في سفرة بعيدة.

ثم وبناء سد في حجم ١٣٥٠٠٠,٠٠٠ متراً بحاجة إلى ملايين الأطنان من خليط القطر والحديد، فأين سدٌّ من جدار وبانٍ من بان؟

فهل هو بعدُ سد باب الحديد في عمالة بلخ وراء جيحون بمقربة من مدينة ترمذ كما جاء في بعض المؤلفات[2]؟ ولم يتضح لنا بعدُ وجود هجمات تصدّ بذلك السد وهو خلاف اسمه ليس فيه حديد وقد بناه كسرى أنوشروان.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٢) في مجلة المقتطف المصري ١٨٨٨ كما نقله في الجواهر أنه اتضح لنا من المصنفات العربية وجود سد وراء جيحون في عمالة بلخ واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل «خلوجة» ومر به أيضاً شاه =

أم سدٌّ ثانٍ في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود، المسمى بمضيق داريال[١] بين بلدة تفليس وولادي كيوكز.

وهذا السد المسمى باللغة المحلية «دمير قاثو» أي: باب الحديد: يقع في ذلك المضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه، وهو الفتحة الوحيدة الرابطة ين جانبي الجنوبي والشمالي مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الأسود، حاجز طبيعي بطول ألوف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى مايو إليها من الجنوب، فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم إيران حتى كلدة والآشور، كما هجموا حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وذلك في عهد كورش.

ويذكر المؤرخون في كهردوت اليوناني سيركورش إلى شمالي إيران لإخماد نائرة الفتن المشتعلة هناك، وكأنه هو باني ذلك الردم في هذا المضيق، وهو الردم الوحيد الذي بُني بالحديد بين جبلين، ويذكره يوسف اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته إلى شمالي قفقاز[٢] وبينه وبين كسرى باني سد باب الحديد قرون!

= روح وكان في خدمته ومن بطانته الألماني: سيلد برجر - وذكر السدّ في كتابه وذلك في أوائل القرن الخامس عشر وذكره الاسباني: كلما فيجو في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتاله) بالاندلس إلى: تيمورلنك - قال: إن سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند.

(١) لعله من أصل داريول بمعنى المضيق بالتركية ويسمى باللغة المحلية «دمير قاپو» أي: باب الحديد.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥٠ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سئل عن الترك=

ثم هناك نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيين[١].

ولأنه الردم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن فعلّه هو الذي بناه ذو القرنين، أو سوف يكتشف ردمه، لا نتأكد الآن شيئاً، والظاهر لحد الآن أنه «باب الحديد» هذا، حيث يوافق الردم اسماً ومسمى وموقعاً جغرافياً، وهو الوحيد فيما نعرفه! ثم ولا غرض عقلائياً ولا قوة عادياً ولا موقع جغرافياً في بناء ردم فولاذي إلّا كما يقصه القرآن، وإذ لا نجد غير «دمير قاثو» في نفس الموقع والهدف والقوة فليكن هو الردم المذكور في القرآن والله أعلم[٢].

ومن هم يأجوج ومأجوج؟

لقد كثر القيل والقال حولهما، وما يحمل تناقضات من أسطورات تدهش العقول وتوحش الحقول، ولأن فتح يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة كما في الكتاب والسنّة[٣] فعلينا النقب والتنقير الكثير حول «من هما

= فقال: هم سيارة ليس لهم أصل هم من يأجوج ومأجوج لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض.

(١) هذا التاريخ ننقله عن الميزان ج١٦ ص٣٩٤ والتحليل والمقالسة منا.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥٠ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة النسفي أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ! قد رأيت سد يأجوج: قال ﷺ: انعته لي - قال: كالبرد المجر طريقة سوداء وطريقة حمراء - قال ﷺ: قد رأيته.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٠٩ ج٢٣٩ في كتاب الخصال عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كنا جلوساً في المدينة في ظل حائط قال: وكان رسول الله ﷺ في غرفة فاطلع إلينا فقال: فيم أنتم؟ قلنا: نتحدث - قال: عماذا؟ قلنا عن الساعة - فقال: إنكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض وثلاثة خسوف يكون في الأرض: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج ويكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من قعر الأرض لا تدع خلفها أحداً إلا تسوق الناس إلى المحشر، كلما قاموا قامت ثم تسوقهم إلى المحشر. =

وأين هما وهل فتحوا حتى الآن أمّاذا»؟ فلنجعل الكتاب الإمام أمامنا، فندرس آيتي يأجوج ومأجوج نبراساً ينير لنا الدرب إلى معرفتهما، ومتراساً يبير كل يأجوج ومأجوج اختلقتها أيدي الدس والتجديف، وتقولتها ألسنة التحريف.

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا

= وفي ح ٢٤٠ حديث حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عشر آيات بين يدي الساعة: خمس بالمشرق وخمس بالمغرب فذكر الدابة والدجال وطلوع الشمس من مغربها وعيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وأنه يغلبهم ويغرقهم في البحر ولم يذكر تمام الآيات.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٥٢ - أخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أعلم بما مع الدجال معه نهران أحدهما نار تأجج في عين من رآه والآخر ماء أبيض فإن أدركه أحد منكم فليغمض ويشرب من الذي يراه ناراً فإنه ماءٌ بارد وإياكم والآخر فإنه الفتنة واعلموا أنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه من يكتب ومن لا يكتب وإن أحدى عينيه ممسوحة عليها ظفرة أنه يطلع من آخر أمره على بطن الأردن على ثنية أفيق وكل أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ببطن الأردن وأنه يقتل من المسلمين ثلثاً ويهزم ثلثاً ويبقى ثلث ويجن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض ما تنتظرون أن تلحقوا إخوانكم في مرضات ربكم من كان عنده فضل طعام فليفد به على أخيه وصلوا حتى ينفجر الفجر وعجلوا الصلاة ثم أقبلوا على عدوكم فلما قاموا يصلون نزل عيسى ابن مريم أمامهم فصلى بهم فلما انصرف قال هكذا فرجوا بيني وبين عدو الله فيذوب وسلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم حتى أن الشجر والحجر لينادي ياعبدالله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا يهودي فاقتله فيقتلهم الله وينصر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخزير وضعون الجزية فبينما هم كذلك أخرج الله يأجوج ومأجوج فتشرب أولهم البحيرة ويجيء آخرهم وقد انتشفوا ولا يدعوا فيه قطرة فيقولون ظهرنا على أعدائنا قد كان ها هنا أثر ماء فيجيء نبي الله وأصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين تقال لها: لدّ فيقولون ظهرنا على من في الأرض فتعالوا نقاتل من في السماء فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر فيؤذي ريحهم المسلمين فيدعو عيسى فيرسل الله عليهم ريحاً فتقذفهم في البحر أجمعين.

وفيه أخرج نعيم بن حماد في الفتن وابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: بعثني الله ليلة أسري بي إلى يأجوج ومأجوج فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبوني فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس.

جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

قد تعني مقابلة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ لـ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ إضافة إلى دكداك الردم نفسه، أنهم سوف يستطيعون أن يظهروه أو يستطيعون له نقباً فينقبونه، ظهور الغلبة عليه هدماً أم التحليق عليه دون هدم!

لذلك ترى آية الأنبياء تنسب الفتح إلى يأجوج ومأجوج، دون تصريحة أو تلويحة لدكداك الردم هدماً، بل ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قد تلمح أنهم يظهرون على حَدَب الردم ضمن كل حَدَب دون دكٍّ لأيٍّ حَدَب حتى الردم.

فإن ثبت لدينا فتح ليأجوج ومأجوج والردم باقٍ، لم يثبت تهافت بين آيتي الكهف والأنبياء!

كما ومقابلة ﴿وَعْدُ رَبِّى﴾ بـ ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ تعني رجعة الإفساد من يأجوج ومأجوج كوعد للعذاب بعد الرحمة، سواء أبقي الردم أم دُكَّ بدكاء الوعد العذاب.

وذلك الوعد هو قبل القيامة الكبرى وهو من أشراطها، حيث ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ بعده، وفتح يأجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق!

وترى أن ﴿وَعْدُ رَبِّى﴾ شرطاً من أشراط الوعد الحق، هل يختص ببرزخ خاص من الزمن أو قد يتكرر؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٥ - ٩٧.

آيات الإفساد العالمي الإسرائيلي مرتين كما شرحناها في «الأسرى» تدلنا على كرور الوعد، فعلّ العالمي منه اثنان ثم هناك وعدٌ أم وعود جانبية ومنها الهجمة الجنكيزخانية التي سودت وجه التاريخ الإنساني!

ومهما كان يأجوج ومأجوج في البداية أمتين من بني الإنسان في سالف الزمن، فقد تعني، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ كل أمة مفسدة تؤجج نيران الفساد في هذه المعمورة ومن أفسدها «إسرائيل»: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾. . . ! مهما كان الأوّلون من المغول والتتار امّن ذا؟

آية الأنبياء الأولى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ تحرم الرجعة إلى الدنيا بعد الموتة فهي من آيات الرجعة[١] والثانية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ﴾ تقرر أمد هذه الرجعة أنها بعدما فتحت يأجوج ومأجوج، وعلّه الإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي قبيل الرجعة، أو الأوّل قبلها، أم الهجمة الجنكيزية قبلهما، أم تعني الثلاثة تعميماً ليأجوج ومأجوج إلى مؤججي نيران الفساد أياً كانوا وأهمه الإفسادان العالميان ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾[٢] أو أن بني إسرائيل هم رؤوس الفساد في هذين، ويأجوج ومأجوج يؤججانه أمّاذا؟

يأجوج ومأجوج هما كلمتان أعجميتان معربتان حيث هما ممنوعا الصرف، ولا شك أنهما أمتان من أمم البشرية هما أمثولة الإفساد طول التاريخ بمن يساندهما.

---

(١) تفصيل البحث حول آية الأنبياء تجده عند تفسيرها، ومن الوجوه الراجحة أن أهل قرية أهلكناها حرام عليهم الرجوع لتكملة الحياة حتى إذا فتحت. . . فإذا فتحت يرحبون لا لتحصيل السعادة وإنما لتكميل الشقاوة فإنهم ممن محض الكفر محضاً، فالآية إذاً من آيات الرجعة وتدل على أن فتح يأجوج ومأجوج قبيل الرجعة فيناسب قبلها القريب كالإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي، والبعيد كفتنة المغول، أو أنهما معنيان.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤.

وقد يلمح ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ إلى انتشارهم في أرجاء المعمورة بعدما صدهم ذو القرنين بسدِّهم، وقد سئل الإمام علي عليه السلام عن الترك فقال: هم سيارة ليس لهم أصل، هم من يأجوج ومأجوج ولكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض[١].

وكذلك نرى الأمة الإسرائيلية كانوا طول قرونهم وإلى احتلال فلسطين، كانوا سيارة في الأرض مفسدين أياً كانوا.

لست أقول إنهم من أصل الترك ويأجوج ومأجوج، فإنما كونهم سيارة الأرض المفسدين يجعلهم مع يأجوج ومأجوج أمة الإفساد في التاريخ، بل هم لعلهم أشد منهم وأنكى أو هم الأصل في الإفساد منذ كانوا وعلى هوامشهم سائر الأمم المفسدة.

ولأن اللغات متطورة كما المجتمعات، فقد يقرب القول إنهما المغول والتتار وهما من الترك، والمغول في الصيني «منكوك» أو «منجوك» وكأن الكلمتين نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كُوك» و«ماكوك» والمشابهة الكاملة بين «ماكوك» و«منكوك» يقضي أنها متطورة من «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و«مغول».

فلعل يأجوج هو «كوك» ومأجوج هو «ماكوك» فهذا المغول وذلك التتار، وقد ذكر بعض المدققين أن المغول والتتار من رجل واحد يقال له «ترك» وهو الذي سماه أبو الفداء باسم يأجوج، وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا، تمتد بلادهم من «التبت والصين» إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد «تركستان»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب. . .

(٢) كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الأخلاق) وفي (رسائل إخوان الصفا) فقد ذكروا أن هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.

ويذكر المؤرخون المسلمون والإفرنج أن هذه الأمة النكدة كانت تغير قديماً وفي مختلف الزمن على الأمم المجاورة لها، ومنهم المتوحشة كالسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا قديماً، فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون، وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء، فكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء...(١).

طلب من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين قاطني الشرق الأقصى سدّاً فعمل رَدماً فظلوا محجوزين ردحاً من الزمن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ في مثلث الإفساد العالمي، يتكفل أولاه في داهية دهياء وغارة عشواء «تموجين» الملقب نفسه «جنكيزخان».

إنه - وكما في القرآن: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ خرج بجيشه. الجرار من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة -.

جنكيزخان بعدما يجمع أمة التتار تحت حكمه العارم يخضع الصين الشمالية ثم يذهب إلى البلاد الإسلامية ويخضع سلطان محمد السلجوقي ملك خوارزم، وكان يمتد ملكه على بلاد تركستان والفرس، فسقطت هذه الدولة بعد عشر سنين من الحرب المتواصلة.

جنكيزخان المغول الفاتح بعد هذه المدة يرتكب من المنكرات هناك ما لم يسمع مثله في التأريخ، فقد قتّلوهم رجالاً ونساء وأطفالاً، وارتكبوا من الفواحش ما سوّد وجه التأريخ.

---

(١) لقد فصل في رسائل قديمة ألفت في القرنين الثالث والرابع أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجبهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي إلى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعاً وكانوا كفاتحين للعالم كله.

في مدينة خوارزم وحدها، يفتك بها هدماً وإحراقاً وإهراقاً لدماء الأبرياء فأصبحت أنهاراً من الدماء، كما فعلوا مثلها بسمرقند وبخارى وغيرهما، وفتكوا بأهالي نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوان وأحرقوا البلد، وأصبحت القتلى في واقعة مرو مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً!

وهذه نبذة يسيرة من بحر فضايحهم هناك[1] ومن ثم كافة البلاد إلّا شذراً: فقد أخضعوا بلاد الهند فمات «جنكيزخان».

ولما ملك ابنه (اقطاي) أغار ابن أخيه (باتو) على الروس (٧٢٢) ودمروا (بولونيا) و(بلاد المجر) وأحرقوا وخرّبوا.

وبعد موت (اقطاي) قام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية.

ثم مات (جالوك) وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاي وهولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح، فيتجه الأوّل إلى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية. ففعلوا ما فعلوا من القتل والتدمير.

أسلمت بغداد سبعة أيام للقتل والسلب والنهب فسالت فيها أنهر الدماء وطرحوا الكتب العلمية في دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلقت جثته في ذَنَب حصان وساروا بها بين أسوار بغداد... وقد استمرت فتوحات المغول إلى سوريا...

الفتنة المغولية تفتك بالبلاد كلها من مشارق الأرض ومغاربها إلّا مكة والمدينة وبيت المقدس، وعلّه إليها الإشارة في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم في الشام وساقتهم بخراسان، وكما في تصريحة أخرى أنهم لا يدخلون المدن الثلاث.

(١) راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء.

وقد يعنيه الحديث «ويخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصَون عن أبواب السلطات يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها.

ومن «السبب الظاهر في هذه الفتنة أن سلطان خوارزم يقتل رسل «جنكيزخان» والتجار المرسلين من بلاده ويسلب أموالهم ويغير على أطراف بلاده فيغتاظ «جنكيزخان» ويكتب إليه كتابه يهدّده فيه بما فعل[١].

ذلك إفساد في الأرض مرة شاملة من ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وقد تلمح ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ أنها الأولى منهم والأخيرة كشرط من أشراط الساعة، ومن ثم إفسادان عالميان من بني إسرائيل كما في آية «الأسرى»، فإنها تخص إفسادهم في مرتين لا كل إفساد من أيٍّ كان، كما وآية الفتح ليأجوج ومأجوج تخص فتحهم في إفسادهم الظاهر في مرة.

أو أن فتحهم يعني جنسه الشامل للمرات الثلاث، مرة تخصهم كما مرت، ثم هم يشتركون في المرتين الإسرائيليتين العالميتين، طالما هم فيها

---

(١) نص الكتاب هكذا: «كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن يريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لم يعادكم وتكدروا صفو عيش من صافاكم، وتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم أو ما خبركم مخبروكم ويلغكم عنه مرشدوكم ونبأ محدثوكم «اتركوا الترك ما تركوكم» وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه ولا بلوتم شدائد أوصافه أو صابه ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في بريته فإن به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب (جنليز خان) (تفسير الجواهر ٩: ٢٠٤).

أصلاء، ويأجوج ومأجوج هوامش عملاء، كسائر المفسدين الهوامش اللُّعناء.

فكل من يشارك إسرائيل في مرتي الإفساد العالميين من عمال الفساد هو في سجيته وعلانيته وسريرته، إنه إسرائيلي مهما كان من يأجوج ومأجوج أمّن ذا؟

كما الفتنة اليأجوجية تشمل كل عميل من غيرهما أياً كان وأيان!

وطبيعة الحال قاضية أن الإفساد العالمي الإسرائيلي في مرّتيه، لا يخص بني إسرائيل إلّا كأصول، فكل مفسد في الأرض يشاركهم أصيلاً وبديلاً وعميلاً أمَّن ذا؟:

نحن نعيش الآن الإفساد الإسرائيلي العالمي الأوّل، فالمفسدون الأصلاء هم إسرائيليون، والمفسدون العملاء أو البدلاء من كفار الشرق والغرب، ومن يساندهم من زعماء المسلمين أمّن ذا - هؤلاء كلهم إسرائيليون فروع! فالكفر ملة واحدة!

أو قد يعني ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الإفساد العالمي الثاني بعلوِّه الكبير من إسرائيل، ويأجوج ومأجوج وهما أمثولة الإفساد شرقاً وغرباً يعملون عِمالاتهم الإسرائيلية في مشارق الأرض ومغاربها؟ كلٌّ محتمل! مع الحفاظ على أن هناك مراحل ثلاث من الإفساد العالمي طول التاريخ الرسالي يتكفل أولاها ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ كأصلين أصيلين في ذلك الإفساد، والأُصَلاء في الأخريين هم الإسرائيليون وغيرهم عملاء من يأجوج ومأجوج وسواهم!

وأياً كان إفساد يأجوج ومأجوج فاللائح من آيتي الكهف والأنبياء وحدته فيما هم فيه أصلاء: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ فهو يوم وزمن واحد ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فهو فتح واحد بنسل واحد! مهما كانوا في المرتين الإسرائيليتين فروعاً عملاء، كما قد يكون هؤلاء عملاء في المرة التي يأجوج ومأجوج فيها أصلاء.

وقصارى الاقتصار على المرتين الإسرائيليتين أن يأجوج ومأجوج في الثانية أصلاء كما الإسرائيليون لا عملاء، ولكنهم الأصل الأول وهما الأصل الثاني.

وقصارى المستفاد من الآيتين في الزمن التقريبي لفتحهما أنه قبيل الرجعة وقيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حيث عقّب قيام الساعة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ بـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في آية واحدة، ولولا آية الأنبياء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ... وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...﴾ بعد ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ...﴾ لاحتملنا قريباً أو قلنا إن فتحهم بين الرجعة والقيامة!

فهنالك قرب قريب إلى الوعد الحق هو الرجعة وقيام المهدي عليه السلام وقبلهما قرب أبعد منه هو فتح يأجوج ومأجوج، مما يقرِّب احتمال أنه من الإفساد الإسرائيلي العالمي!

ثم ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني ترك المستضعفين والمستكبرين المفسدين يموج بعضهم في بعض، ويه تملأ الأرض ظلماً وجوراً ومن ثم مِلؤها قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يؤيده أو يؤكده أن هناك وعدين لا ثالث لهما، الوعد الأوّل يخص فتح يأجوج ومأجوج: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ...﴾ والوعد الثاني هو القيامة الكبرى ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ إذاً فقبل الوعد الحق كأنه وعدٌ واحدٌ، رغم أن الإفسادين العالميين الإسرائيليين هما وعدان قبل الوعد الحق ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا...﴾[1] ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ...﴾[2] فليكن الوعد اليأجوجي مع الوعد الثاني الإسرائيلي!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧.

اللَّهُمَّ إلّا أن الوعدين هذين متجهان إلى الإسرائيليين، وذلك الوعد اليأجوجي متجه إلى غيرهم حيث هم بفتحهم وعدُ العذاب على العالم أجمع؟ وقد يكون الإفساد الثاني الإسرائيلي محط الوعدين ضد إسرائيل وعملائه، وضد العالم أجمع!

ومهما يكن من شيء فلا ريب أن الإفساد الثاني والأخير العالمي يشترك فيه كافة المفسدين، يفتح فيه كل يأجوج ومأجوج والإسرائيليون وكافة العملاء، وفيه العلو الكبير ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

ولأنه من أقرب أشراط الساعة لحد تلحقه القيامة ﴿وَتَرَكْنَا. . . وَنُفِخَ﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ. . . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[2]!

وإن الإفساد العالمي يتطلب نسل المفسدين من كل حدب دون أيِّ صدٍّ أو سدٍّ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ وإن كلاً من إسرائيل ويأجوج ومأجوج أصل في هذه الفتنة العالمية، فقد يقرب ما قربناه!

ولكنما الفتنة المغولية التي هي من يأجوج ومأجوج قد تجعل نسلهم من كل حدب لمرات ثالثتها أقواها وهي في الإفساد الإسرائيلي الثاني.

وقد يظهر من حديث النبي ﷺ «ليحجَّن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[3] أن إفسادهم يمنع الحج والعمرة ثم الله يفرج عن المستضعفين ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وليس هذا إلّا في الإفساد الإسرائيلي الثاني حيث تملأ الأرض ظلماً وجوراً ثم تملأ قسطاً وعدلاً.

وكما يظهر من حديثه الآخر «فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبرائيل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر من ركن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨.
(٣) رواه البخاري في صحيحه.

البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه...»[١] يظهر أن الأرض يومئذٍ تملأ ظلماً حتى فيما بين المسلمين لحد كأن القرآن رفع عنهم والعلم، ولن يرفع عن كونه بينهم وإنما عن كيانه!

وقد يعني حديث النبي ﷺ عن فتح الردم أن لفتحه مراحل أخيرتها المرة الأخيرة من الإفساد الإسرائيلي اليأجوجي: «لا إله إلّا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق - قلت يا رسول الله ﷺ! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث[٢].

فـ ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ مثال عن كل أمة شريرة، ولفتحهم مراحل عدة أخيرتها التي هي أوسعها تواطؤُ الإفساد العالمي الأخير الإسرائيلي، «إذا كثر الخبث» لحد ملئت الأرض ظلماً وجوراً!

فلقد أخذ ذلك الفتح يتسع منذ الرسول كلما كثر الخبث حتى القرن السابع من الهجرة ففتحٌ شبه العالمي بالمغول والتتار، ثم يتسع أكثر وأكثر في هذين الإفسادين العالميين وأقواهما الأخير بعلو كبير، تتساعد فيه كافة السواعد الطاغية من مشارق الأرض ومغاربها مهما كان الإسرائيليون هناك أصلاء أم أقوى الأصلين أم ماذا؟

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

إن النفخ في الصور هو الناقور مرتان، أولاهما هي نفخة الإماتة

---

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ١ ص ١١ ويدلج، النبوي.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥١ - أخرج البخاري عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ [الصّافات: ٣٥] وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين.

وأخراهما نفخة الإحياء(١): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٢) وعلّ هذه نفخة الإحياء ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أو أن ﴿جَمْعًا﴾ يعني جمعي الإماتة والإحياء كما النفخ يجمع الجمعين، نفخة أولى يجمعهم إلى الموت - ونفخة أخرى يجمعهم بعد جمع الموت إلى الحياة، فيوم القيامة ككل - قيامة الإماتة والإحياء - إنه يوم الجمع ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾(٣) ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٤) جمعاً إلى موت ثم جمعاً إلى حياة ومن ثم جمع الحساب فالثواب والعقاب:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

في جمع الإحياء وبين جموع الأحياء تعرض جهنم للكافرين عرضاً للعقاب بعد العرض على الرب للحساب: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾(٥) ﴿أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(٦) ثم لا عرض للمؤمنين على الرب!

ومن ثم الكافرون يعرضون على جهنم النار: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾(٧) ثمة عرض الحساب وهنا عرض العقاب ولمّا.

فلماذا العرض وليس الدخول؟ حيث الدخول الحسبان لزامه الحجة العيان، فليعرض الكافر على ربه ليرى هل تربّى بما رباه؟ ثم عرضاً على

---

(١) راجع ج ٣٠ - الفرقان حول الآية ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٩.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٤٨.
(٦) سورة هود، الآية: ١٨.
(٧) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

جهنم هل عمل لها وهو من أهلها؟ فلما رأى اللّاتربية هناك في نفسه، ورأى مجانسته مع النار هنا فليدخل - إذاً - النار بحجة باهرة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[(١)] ﴿. . . أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[(٢)] فبعرضهم على الرب يعرف ويعرفون أنهم ما تربوا بتربيته، وبعرضهم على النار أنهم من أهل النار إذ لم تبق لهم طيبات في الحياة!

﴿وَعَرَضْنَا. . .﴾ ﴿عَرْضًا﴾ به يفضحون وينكبون، وبه يدخلون النار ويخلدون، إعراضاً عن الرب هنا، فعرضاً على الرب وعلى ناره هناك!

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾:

وترى الأعين المغطية عن ذكر الله فلا يستطيع ذكراً، والسمع المغطية عن استماع كلام الله فلا يستطيعون سمعاً كيف يعرض أصحابها على الجحيم، والاستطاعة شرط التكليف؟

إنها الأعين المغطية بما غطّوها تعامياً عن ذكر الله، أعين الأبصار وأعين البصائر عشوا متعمداً متعامياً: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[(٣)] فـ «لم يعبهم بما صنع هو بهم، ولكن عابهم بما صنعوا ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء»[(٤)] ثم و«غطاء العين لا يمنع عن الذكر والذكر لا يرى بالعين»[(٥)] وإنما الغطاء على تبصّر العين فهي مفتوحة حيوانياً ومغطية إنسانياً.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣١٠ ح ٢٤٢ في تفسير العياشي عن محمد بن حكيم قال: كتبت رقعة إلى أبي عبد الله عليه السلام فيها: أتستطيع النفس المعرفة؟ قال فقال: لا - فقلت يقول الله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] قال: هو كقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] قلت فعابهم؟ قال: . .

(٥) المصدر ح ٢٤٣ عيون الأخبار بإسناده إلى أبي الصلت الهروي قال: سأل المأمون أبا =

فهي السمع المغطاة عن السمع بما غطّوها و: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(١) فلما عشوا عن ذكر الرحمن وصمّوا عن سمعه، أصبحوا صمّاً عمياً بما صموا وعموا فـ ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾(٢) فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر فلا ينظرون.

ليس ذلك عشو البصر عمًى وصمم الأذن، بل تعامي البصر وعشو البصيرة وصمم القلب: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٣) لذلك: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(٤) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾(٥).

فتلك هي أعين في غطاء الغفلة والتعامي ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٦) وهي آذان لا يسمعون بها، فلا يستطيعون بعد ذلك سمعاً ولا إبصاراً بما ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم كما ختموا ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٧).

ثم و﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ...﴾ ﴿وَكَانُوا۟﴾ يضربان إلى أعماق الماضي، أنهم

= الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ...﴾ [الكهف: ١٠١] فقال: إن غطاء العين.. ولكن الله شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان لأنهم كانوا يستقلون قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا...﴾ [الكهف: ١٠١].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٦) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٧.

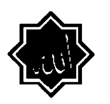
كانت أعينهم في غطاء منذ كانت لهم أعين، وكانوا لا يستطيعون سمعاً منذ كانت لهم سمع، امتناعاً بالاختيار، ثم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1].

ومن ثم ﴿فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ تجعل أعينهم غارقة في غطاء حيث غطتها من كل جانب، فلا منفذ إذاً لمعاينة الحق وذكره وهذه أعمى العمى!

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ تجعل على آذانهم وقراً وصمماً محيطاً لحدّ لا يستطيعون سمعاً لو أرادوا سمعاً وهذه أصم الصمم! حيث الأصم قد يسمع إذا صيحَ عليه وأصغى، وذلك لا يستطيع سمعاً!

وكما لمعاينة الآيات وذكر الله وسمعها درجات، كذلك لغشاء الأعين وصمم السمع دركات وهذه أسفل الدركات.

و﴿عَن ذِكْرِي﴾ تلميحة كتصريحة أن غطاء الأعين لم تكن على الحقيقة في غطاءٍ يسترها، وحجاز يحجزها، بل كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر فلا يعبرون، فقد كانت أعينهم تذهب سدى وصفحاً عن مواقع العبر، فلا يفكرون فيها، ولا يعتبرون بها فيذكرون الله سبحانه وتعالى عند إجالة أفكارهم، وتصريف خواطرهم.



(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بي إلحاداً ونكراناً لي، أم بتوحيدي إشراكاً ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ الذين هم «من دوني» أو ﴿يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ دون إذني ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم كآلهة أم شركاء لي أو مخولين في ولاية شرعية أمّا ذا؟ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ تحضيراً ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ نزولاً إليها كما نزّلوني عن وحدتي وربوبيتي في زعمهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾:

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي وخسار الأعمال، لا يوازيهم أحد من الخاسرين حيث الأفعل هنا مطلق فلا يُساوى

أو يُسامى، كما لا يفوقهم أحدٌ في الخسران! وأصل الضلال ذهاب القصد عن سنن طريقه، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي إلى مرضاة ربه، فهو ضال في سعيه، خابط في غيّه وحابط في عمله.

فقد يكون الإنسان بطّالاً لا يسعى في الحياة الدنيا، لا لها ولا للأخرى، أو يسعى للدنيا، مهتدياً إلى منافعها دون الأخرى، أو يسعى دونها ضالاً في سعيه للدنيا وهو عارف بضلاله أم يسعى لها ضالاً في سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً دركات بعضها سفل بعض والرابعة سفلاها، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها، ويحرم الدنيا لضلال سعيه لها، ويحرم الاهتداء إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعاً ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[(١)]!

وترى ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؟ ظرف لضلاله؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا، فظل يسعى لها دون الأخرى، وقد يكون ناجحاً في هذه الأدنى مهما حُرم الأخرى؟ وليس من الأخسرين أعمالاً، حيث الأخسر منه من زاد ضلالاً على ضلال، ١ - ضل سعيه عن الآخرة - ٢ - ثم ضل في سعيه للدنيا، أن تكون ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ظرفاً لسعيه، فسعيه في الحياة الدنيا ضل، ضلال في ضلال، ومن ثم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ضلال ثالث، فهنالك يتم ثالوث الضلالة!

فطالما البطّالون خاسرون ولكنهم قد يهتدون، وكما الساعون للدنيا المهتدون إلى منافعها، فقد يفيقون عن غفوتهم، ويستقيمون عن زلتهم، بل والضالون في سعيهم لها، العارفون بضلالهم، مهما كانوا بعاداً عن الهدى، ولكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا إلى الحياة الدنيا، ثم ضل في سعيه للدنيا، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، غارقاً في ثالوث الضلالة، فإنه

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

دائب في سعيه إلى خساره في الأولى والأخرى، ولا ترجى إفاقته عن غفوته وضلاله إذ لم يبق له منفذ إلى صالحه، فهو من الأخسرين أعمالاً!

إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرها كما خسر الأخرى، كادحاً إلى خسران، منفقاً حياته في تعب هدراً دونما عائدة إلّا الخسران، كمن يذبح نفسه بذات يده وهو يحسب أنه ذابح خروفاً يشويه لطعامه مكداً مجداً في ذبحه!

قد يصبح الساعي بضلاله فيما يعمل من الأخسرين أعمالاً في الآخرة وهو في الدنيا رابح حياتها: ﴿... أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ... ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

هؤلاء وهؤلاء من الأخسرين في الآخرة، ومنهم من لم يخسر دنياه، فليس من الأخسرين أعمالاً في النشأتين إلّا في الأخرى، فأما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً فقد خسر الأولى كما الأخرى وقد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى.

لا أخسر مطلقاً في سائر القرآن إلّا هنا وفيمن كادوا بإبراهيم ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[2] ولكنهم الأخسرون في الآخرة كالأوّلين، وفي دنياهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم وهم في سائر دنياهم رابحين.

لآية الأخسرين مصاديق من ضُلّال أهل الكتاب والمسلمين - الغارقين في ثالوث الضلالة في الدنيا والدين كـ «الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في

(١) سورة هود، الآيات: ١٨-٢٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٠.

السواري»[١] وكفرة أهل الكتاب المبتدعين[٢] «ولا أظن إلا أن الخوارج منهم»[٣] وكل من يتقشف فيما يظنه شرعة إلهية وهو خطرٌ على الدين والدينيّن.

وكما لها مصاديق من المكذبين بآيات الله الصادقين عن سبيل الله، وقد يكون المتظاهر بالدين، والمتقشف الجاهل أخطر منهم وأضل سبيلاً!

فالأخسرون أعمالاً دركات بعضها سفل بعض، مهما كان الغارقون في ثالوث الضلالات كلهم من الأخسرين، ولكنما الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم الأسفلون وكما جرت عليهم الآية وتتلوها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ عشواً عنها وتعامياً ومدّاً في كفرهم بقرن شيطانهم فضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، كفرٌ مطلق لا مَخلصَ عنه ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ يوم الدنيا بما يقربهم إلى الله زلفى ويوم الآخرة بنكرانها فلقاء الرب هو لقاء ربوبيته، في الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة، وفي الأخرى ربوبية الحساب ومن ثم الثواب والعقاب فإلى جنة أو نار، في دار ليس الأمر فيها إلّا لله، يصيرون إليها ولا محيص لهم عنها، وإذ لا أحد فيها

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خميصة عبد الله بن قيس قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في هذه الآية إنهم..

(٢) نور الثقلين ٣: ٣١٢ ح ٢٥٠ في كتاب الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة قال ابن الكوا لأمير المؤمنين عليه السلام: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «الآية» قال: كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ - أخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عن علي عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: لا أظن.

يستطيع انصرافاً عن الوجهة التي أمر الله سبحانه بجمع الناس إليها وحشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ومساعيهم فأصبحت ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[1] ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن ولا وزن للطالحة فتوزن!

﴿أُولَٰئِكَ...﴾ تعريف ثالث بالأخسرين أعمالاً بعد ﴿وَمَن يَعْشُ﴾[2] و﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ ثالوث الضلالة في مثلث التعريف بأهل الدرك الأسفل من النار.

فكفرهم مطلق لا مخلص عنه ولا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها، آفاقياً وأنفسياً، تكوينياً وتشريعياً، رسالياً ورسولياً أمّاذا، حيث عشوُهم عن ذكر الرحمن مطلق، وآيات الرحمن تذكُّر الرحمن لغير العاشين عنها.

ثم الكفر بآيات الرب كفرٌ بلقائه، والكافر بآيات ربه ولقائه لا أعمال له ثابتة إلّا زائلة خابطة حابطة، وأصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سامٍّ من الكلإ فتلقى حتفها، فالجاهل يراها سمينة شبعانة، وهي في سبيل الموت! وهذا أنسب وصف لأعمال الكفار، أنها تنتفخ ويظنها أصحابها رابية رابحة وهي بائرة رائحة.

أترى أعماله الحابطة هي الطالحة؟ وهي ثابتة كما الصالحة! ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[3]!

أم الحابطة هي الصالحة؟ وليست للأخسرين أعمالاً أعمال صالحة! لكفرهم المطلق!

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

الحبط هنا يعني زوال الوزن، فصالحة أعماله خاوية عن وزنٍ للكفر المطلق، مهما أنفق وسعى في إصلاح الحياة، فتحبط أعمالها عن وزن، وطالحة أعماله خفيفة حابطة بلا إحباط ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن، فكيف يقام له وزن؟

وذلك الحبط يشمل الدنيا والآخرة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1] في ميزان الله، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات، ولا فلاح لهم في طالحات، فهم أخفّاء عند الله وعند أهل الله في الأولى كما الأخرى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فهنالك الوزن محصور في الحق[3]، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن، سواء أكان الباطل حابطاً من أصله كسائر الباطل، أم محبطاً كان فيه شائبة الحق فأحبطه الله لخبطه في شاكلته، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[4].

ليس الوزن عند الله إلّا ما يقرب إلى الله فـ «ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة»[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) لم يقل «الوزن يومئذٍ حق» وإنما «الحق» تدليلاً على أن الوزن هو الحق فلا وزن للباطل حتى يوزن أو يقاس بوزن الحق!
(٤) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٥) الدر المنثور ٤ : ٢٥٤ - أخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ . . . اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ومن أخفهم وأخسهم «أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبأ بهم، لأنهم لم يعبؤوا بأمره ونهيه...»[١].

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر، وأخرى تحيل مداد كلمات الله ولو كان ثمانية أضعاف البحر: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله، أو من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟ وكلمات الله؟ ثم ولها حدٌّ بعدُ أم لا حد لها؟

علّ ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ فيهما هو مجموعة بحار الأرض، فإنها هي المعروفة لدينا عينياً وقرآنياً[٣] دون سواها من بحار، وما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ لا تجاوب إلّا ما في الأرض من بحار، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في الكون، ولا بحر بعينه في الأرض، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ الّا جنسه الشامل لكل بحر، فـ ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ إذاً عوانٌ بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض.

والمداد ما يمدّ به من مادةٍ للمدّ أو قلم يمدّها، فهناك البحر مداد وما في الأرض من شجرة أقلام المداد.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣١٢ ح ٢٥٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر..

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٣) لا نجد في ٤٠ موضعاً فيها البحر بصيغة موضعاً يدلنا على بحر في غير الأرض، اللهم إلا ما يصلح التعميم وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار.

ثم «كَلِماتُ رَبِّي» هي الدالات لفظياً وعلمياً وعينياً على الربوبية العليا كما «كلمات الله» هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية، فالكلمة ما تدل على معنى في أيّة زاوية من الثلاثة أمّاهيه، وإذا كانت نعمة الله لا تحصى وهي محدودة في الواقع لحدوثها ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] فأحرى بكلمات الرب وكلمات الله ألّا تحصى!

ثم ﴿لَوْ﴾ في آيتي مداد الكلمات تُحيل أن يكون البحر مداداً لكلمات ربي وكلمات الله، و«لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها، ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[2] في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة، الرامزة إلى الكثرة الكثيرة، والقصد فيهما إلى استحالة مدِّ الكلمات ككلٍّ بأي مداد، حيث إن مداد البحار والأشجار هي أيضاً من الكلمات، أياً كان الكاتب، وبأية سرعة كانت الكتابة وأيان ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

«كلمات ربي وكلمات الله» وهي كل دالة على الله، ليست هي ذات الله ولا من ذات الله، وإنما هي مخلوقات الله ولا بد وأنها حادثة محدودة، كما توحيه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى، فضلاً عن أن تكتب، إحالة في بعدين: ١ - أن لا أحدَ يمكنه إحصاءها فضلاً عن كتابتها ٢ - ولو أمكنه فالكاتب نفسه، ومداد البحار والأشجار والورق المكتوب فيه، هي كلها من كلمات الله، ولو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بحذافيرها من كلمات الله فتسلسل مستحيل، أو ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾!

إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية، التي تحملها الأصوات

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

والكتابات والمفهومات، هي من كلمات الرب، وحملتها الرسل والأئمة وسائر العلماء بالله، هم من كلمات الرب، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية ورحيمية هي من كلمات الرب، ومجموعة الكائنات هي آيات الله وكلماته، فأين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات الله!

فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، وكلمات الله هي الدالات على ألوهيته في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية، ومن نِعَم أو نِقَم أمّاذا.

ففيما ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فاستحالة الإحصاء والكتابة التي هي أصعب، في كلمات النعم والنقم أمّاذا هي أحرى!:

وأين أنت أيها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل، والغوص في خضم ذلك البحر الملتطم، وأليمٌ المنسجم من كلمات الرب الله، إلّا غرقاً فيها عن سباحتك!

قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجِّله من مكامن الكون، فتأخذه نشوة الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شيء!

ولكنما الآيات الربانية والإلهية تواجههم بآفاقها المترامية، فإذا هم على خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر.. وحتى لو كان البحر مداداً بيده ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[1] مداداً! فـ «قد أخبرك أن كلام الله عزّوجلّ ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع أبداً»[2] فيما نحصيه!

كلمات الله بعد كل مداد تنتظر مداداً يمدها، ولن يمددها أي مداد، فطالما هو أيضاً من كلمات الله إذا ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾!

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣١٣ ح ٢٥٦ حدثنا محمد بن أحمد عن عبد الله بن موسى عن الحسن بن علي ابن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قلت: قوله عزّوجلّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، قال: قد أخبرك..

فيا لنا من غباوة وعمًى، وحماقة كبرى، نعيش كلمات الله، غارقين في خِضِمِّها، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1]!

كلمات تذكرنا الرحمن ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾!

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾:

آية يتيمة منقطعة النظير في سائر قرآن التوحيد، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها، لحد يقول الرسول ﷺ عنها: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم»[2] كفاية عن سائر التوحيد في القرآن وأصلي النبوة والمعاد! وكأنها تحتصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة وتتبناه كل الرسالة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ... أَحَدًۢا﴾ إظهاراً لها وتظاهراً بها في عقيدة القلب، ولفظة اللسان وعمل الأركان وتوجيه العالمين أياً كانوا وأيان! وقد جمعت الأصول الثلاثة نبوة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وتوحيداً في كافة الجنبات: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعاداً: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ...﴾ وقد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها وبأصلي التوحيد والمعاد!

هنا وفي «فصلت» يؤمر الرسول أن يقول ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كلمة توحيدية أحكمت هنا وهناك وفي أضرابهما ثم فصلت في سائر القرآن.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٥٧ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم قال: قال رسول الله ﷺ:...

في فصلت يؤمر بعدُ مع العالمين بالاستقامة إلى الله . . . ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[1] وهنا يكمل كلمة التوحيد ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ. . .﴾! واحتصار كيان محمد ﷺ في نفسه بإنه بشر، كلمة يقولها المرسلون أجمع: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] فهو بشر في كل ما للبشر.

ثم ولا يستثنى هو وهؤلاء إلّا في وحي الرسالة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيستثنى عن بشريته كل خطأ وشر، دونما استقلال بجنب الإله، ولا استغلال لشأن من الإله، وإنما «بشر رسول»: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3].

إنه بشر كسائر البشر في جسمه وروحه كمحمد، اللّهم إلّا في روحه كرسول حيث يمتاز بها عن سائر البشر! فهو في حاجيات ومتطلبات البشرية كسائر البشر يأكل ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام ويفيق. . . ولكنه معصوم بالوحي عن أخطاء البشر وكل ما ينافي الرسالة الإلهية من مثلث العصمة: تلقياً للوحي وإلقاءً وتطبيقاً في نفسه وسواه!

إن الرسول البشر - أم أي كائن سوى الله - ليس ليشرك بالله أم يشارك الله، أو يخوّل عنه ما ليس إلّا لله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾[4] كما وأن البشر ليس ليُمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[5] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[1] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[2] ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾[3] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[4]!

إن كيان محمد كرسول يُحتصر فيما يوحى إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شوراً وسواه أو اجتهاداً من رأيه، فـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[5] فلا يتَّجه في نفسه أو يواجه العالمين إلّا بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾[6] ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾[7]! ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيدات عدة: ١ - توحيد محمد ﷺ في البشرية كوناً وكياناً ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ٢ - توحيد نبوته المحتصرة في وحي الله ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، ٣ - توحيد الله في كافة شؤون الإلوهية: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾، ٤ - توحيد اللقاء فلا يرجو الموحد إلا لقاءه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، ٥ - توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ٦ - وتوحيد العبادة للّه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾!

١ - فـ «قل إنما أنا في البشرية مثلكم» ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾. ولكن خصني بالنبوة دونكم»[8] لا أزيد ولا أنقص عن نوع البشر كما يقتضيه «إنما» بحصرها كيانه ﷺ في البشرية المماثلة.

٢ - ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وأنا في النبوة كسائر من يوحى إليه مهما كانت بيننا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٦.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٢٥.
(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٨) نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام - إلى أن قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني أكل الطعام ﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [الكهف: ١١٠] يعني: قل لهم: أنا في البشرية مثلكم ولكن ربي خصني بالنبوة دونكم...

درجات، ليس نازلتها خارجة الوحي، ولا عاليتها أعلى من الوحي، وليس الوحي إلّا اتصالاً علمياً معرفياً وعملياً خارق العادة المستمرة بالله.

٣ - ومادة الوحي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾: هي ترك الإشراك في كافة دركاته وهي هي الحجب كلها، التي تحول دون لقاء الرب، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب، ولقاء رحمات الرب، لزامه خرق الحجب الإشراك في كافة دركات الإشراك! لترقى درجات اللقاء، فاختراق كل دركة ارتقاء إلى درجة، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهنالك كفر وبعد مطلق للمشرك والملحد المطلق، وهنا لقاء مطلق للموحد المطلق، وبينهما درجات بعضها فوق بعض ودركات بعضها تحت بعض.

أترى أن وحيه محتصر في ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ ومن ورائه أصول أخرى وفروع؟ علّه لأنه الأصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية، وسائر الأصول وكل الفروع تتبنى ذلك الأصل! ولأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ثم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ ومن ثم ثالث الأصول المعاد ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ثم الأعمال التي تنتجها الأصول ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾!

٤ - ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

وطالما الرب واحد ولكنما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات والقابليات والفاعليات، فـ ﴿رَبِّهِۦ﴾ تلمح إلى مقام الملاقي الخاص به في لقائه، و﴿كَانَ يَرۡجُواْ﴾ تضرب إلى عمق الماضي المستمر، ثم ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ . . . وَلَا يُشۡرِكۡ﴾ هما دعامتان للحصول على ما يرجو من لقاء ربه، والوصول إليه.

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقاءان: لقاء الله ولقاء الرب، سواء أكان في الدنيا والآخرة أم فيهما، كما أن هناك لقاء في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه وهو الحشر إلى يوم الله وعالم الله، ورجاء اللقاء

يخص الصالحين بما قدموا من صالحات: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(١)] ولا مقابل ومضادَ لرجاء اللقاء إلا الكفر به والمرية فيه وعدم رجائه.

وآيتا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدى سبيلاً، كذلك ولقاء ثوابه، دون اختصاص بالأولى وإن كانت الأخرى أنبل وأجلى، وقد تشملهما ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٢)] فلا تخص الرجاءُ الحياةَ الحساب فإنها متيقنة فوق الرجاء ولا تكفيها الرجاء وإنما ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ في مثلث اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى ولقاء الثواب، إذ لا يحتِّمان على الرب قضية الحالة الإيمانية العوان بين الخوف والرجاء.

فإذا قال «فمن كان يوقن لقاء ربه» اختص بأصل المعاد، وحين يقول «فمن كان يرجو لقاء الله» يعمه والآخرين المرجوين للمؤمنين!

فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام والمطلق دونما حجاب، اللّهم إلّا حجات ذات الألوهية فإنها لزام الذات، كما حصل للرسول محمد ﷺ في مقام «أو أدنى» حيث «تدلّى» فلم يبق بينه وبين الله أحد ولا من حجب النور حتى نور ذاته ﷺ فأصبح عيناً كلّه، متغافلاً عما سوى الله.

ثم وفيما دونه من لقاء، تستمر الموازاة بين العمل الصالح للّقاء وبين اللقاء.

٥ - ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لما يرجوه من لقاء ربه معرفة وثواباً أمّاذا؟.

عملاً صالحاً في مادته، في علانيته وسريرته، زوايا ثلاث في صلاح

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

العمل تتبنى إصلاحه، فإنه «لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنَّة» فإصابة السنَّة هي مادة العمل وعلانيته، والنية هي سريرته.

فلا تنفع النية الصالحة ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم يعمل، ولا ينفع العمل الصالح ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم ينو، ولا ينفع العمل بالنية الصالحة ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ما لم يصب السنَّة.

ومن صلاح العمل هو خلوصه لله دون أي إشراك فيه لمن سوى الله.

٦ - ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾: فالمشرك بالله لا يعبد الله، وطالما المؤمن يعبد الله دون إشراك في الألوهية، ولكنه قد يشرك في العبودية رئاء أو سمعة أمّاذا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات، ثم ظواهرها ومظاهرها، فلا إشراك في نفس العمل في نفسه أو مقدماته ولا في نيته باعثاً ولا غاية في أية زاوية من مثلث الزمان ولا إشراك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية أو ثواباً أو فراراً عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقاً متحللاً عن أية واسطة، هي المتحللة عن أي إشراك كما يقول أهلها «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»!

فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدركات إلى أعلى الدرجات وبينهما متوسطات، من عبادة باطلة، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك، ثم مقبولة قابلة ولكنها درجات إلى مقام التدلي. «أو أدنى» وهو أعلى الدرجات.

ومن أسفل الدركات العبادة الباطلة علانية وسراً، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها، والنية الخالصة الصادقة في باطنها، ثم الفاقدة لإحداهما..

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

والفاقدة لصالح النية هي التي يؤتى بها رئاءً حين يؤتى، أم بعد حين حيث يحب أن يظهر بعد خفاء ويحمد عليه فتشملها الرئاء، فـ «الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس. الثانية ويحب أن يذكر ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رئاءً، فأتقى لله امرىءٍ صان دينه فإن الرياء شرك»[1] بل و«إن يسيراً من الرياء شرك»[2] سواء أكان قبل العمل أن تخبر غيرك أنك سوف تعبد ربك، أو معه أن ترائي غيرك في العمل، أم بعده، أن تخبر بما عملت سراً وجهراً بنية صافية، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو المتحلل عنه في مثلث الزمان.

فقد تعبد ربك علانية دون رئاء إذ لا ترائي الناس، فإنما تعبد بينهم تقرباً إلى ربك إذ أمرك كالحج وصلاة الجماعة، أو تقريباً لغيرك وتشويقاً كالإنفاق جهراً، وهي عبادة صالحة خالية عن إشراك.

وقد تعبده سراً إذ لا تجد أحداً ترائيه وأنت تحب أن تُرى[3] ثم تخبر أنك عبدت ربك سراً، أو تعبده سراً مخلصاً ولا تحب الرئاء، ثم الشيطان

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٥٧ - أخرج البيهقي عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٢) المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يسير من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة.
وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: إن أحسن أوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣١٥ ح ٢٦٤ في أصول الكافي عن أبي جعفر ﷺ في الآية - قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. .

يحملك على المراءاة فتخبر أم أخبرت غيرك أنك سوف تعبد ربك سراً، ولكنك أخلصت حين العبادة ثم لم تخبر أحداً بعدها، فأنت فيها كلها مراءٍ رغم اختلاف دركات الرئاء.

فإن كانت عبادة واجبة بطلت، وإن كانت مستحبة سقطت، وعلّ الأخيرة صحيحة لأنك فيها تائب عما نويت.

فـ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ لا تنحصر بحال العمل، بل تشمل كل الأحوال، فمن مات عن عمل ولم يشرك به غير الله، فهو صالح خالص لله، ومن مات عن عمل أشرك به غير الله لم يكن صالحاً، سواء أتى به حينه مراءاة الناس، أم اخبر به قبل أو بعد وقد أتى به سراً، أم ولم يخبر ولكنه كان يحب أن يراه الناس[١]، كل ذلك رئاء الناس مهما اختلف الرئاء فيها.

ثم ما وقع رئاءً لا ينقلب عما وقع، وما وقع صالحاً دون رياء ينقلب إلى رياء إذا استقبله الرئاء، ولا ينقلب رئاء إن كانت بنية صالحة مهما تقدمه الرئاء.

فمهما أشرك العابد في عبادة ربه أحداً سوى ربه، فعمله - إذاً - غير صالح، حتى إذا كان هذا الأحد نفسه أنه يرتاح ويبتهج نفسياً من هذا العمل، اللّهم إلّا إذا كانت رياحة في مرضاة الله دون شهوة النفس، فضلاً عما إذا ارتاح برئاء الناس، أظهر لهم عملاً أم أسرّ عنهم فـ «إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي قال أنا خير شريك كل عمل عُمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً...»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٥ - أخرج هنا وفي الزهد عن مجاهد قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خيراً فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا ...﴾.

(٢) المصدر أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال: قال النبي ﷺ: ... ثم قرأ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

والإشراك في العبادة قد يكون في نفس العبادة كأن يتوضأ بمساعد[١] أو يصلي متكئاً أم بمساعد وهو قادر على الصلاة دون متكأ أو مساعد.

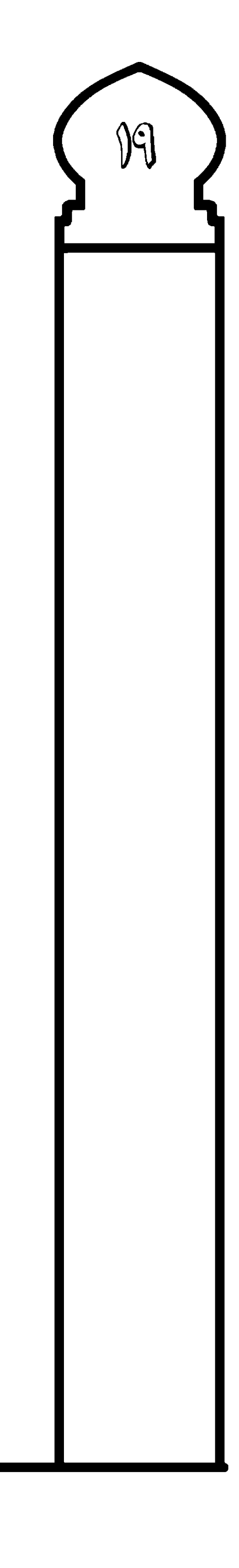
ثم الإشراك في نية العبادة قد يكون في باعثها أو غايتها أم هما معاً، فمن لا يبعثه أمر الله ورضوانه إلا بأمر آخر فقد أشرك فيها، ومن يبتعث بأمره تعالى ولكن أخف مما يكون هناك أمر آخر فقد أشرك فيها، فالإخلاص في باعث العبادة وغايتها شرط لصحتها، وقد لا ينافيه أن يسره ظهورها[٢] دون أن يكون باعثاً أو غاية لها.

وإشراك أحد في عبادة ربه يشمل رئاء الناس فيها، وإرضاء نفسه ضمن ما يرضي ربه، والاشتراك فيها وقد أمر أن يأتي بها وحده، وكل ذلك يشمله النفي ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، ولكن في شمول ﴿أَحَدًۢا﴾ لنفسه خفاء فلا تبطل.

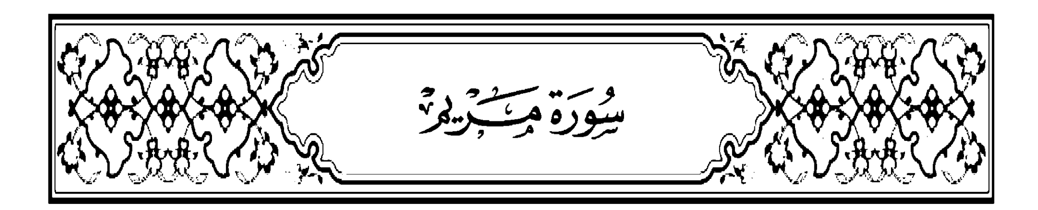
وأما أن يأتي بها دون إشراك أحدٍ، يبتغي بها الفرار عن العقاب أو طلب الثواب، فلا تشملها الآية مهما كانت عبادة العبيد أو التجار، دون الأحرار، فهذه درجات ثلاث للعبادة الصحيحة المقبولة حيث لا شريك فيها ولا في نيتها مع الله.

(١) المصدر ح ٢٦٧ في الكافي علي بن محمد بن عبد الله عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر عن الحسن بن علي الوشا قال: دخلت على الرضا عليه السلام وبين يديه إبريق يريد أن يتهيأ للصلاة فدنوت منه لأصب عليه فأبى ذلك وقال: مه يا حسن! فقلت له: لِمَ تنهاني أن أصب عليك تكره أن أؤجر؟ قال: تؤجر أنت وأوزر أنا؟ قلت له: وكيف ذلك؟ قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وها أنا ذا أتوضأ للصلاة وهي العبادة فأكره أن يشركني فيها أحد. وروي أنه عليه السلام دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال: لا تشرك بعبادة ربك أحداً، فصرف المأمون الغلام وتولى إتمام الوضوء بنفسه.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٥ القمي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك؟ قال: لا بأس! ما من أحد إلا وكتب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك - أقول يعني لم يكن ظهوره من بواعثه أو غاياته.



سُورَةُ مَرْيَمَ



مكية وآياتها ثمان وتسعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

سورة تسمَّت بمريم، ولا تجد في سائر القرآن امرأة أخرى وحتى أفضل منها كفاطمة عليها السلام تسمت باسمها سورة أو يؤتى باسمها في آية، ومريم آتية في أربع وثلاثين آية وخامسة هي «سورة مريم»! أترى ذلك لفضلها على نساء العالمين؟ وفاطمة أفضل منها حسب النصوص الإسلامية[1] وذكر الاسم في القرآن لا يدل على فضيلة، فزيد يذكر في القرآن ولا يذكر الأكثرية الساحقة من النبيين، ولا أحد من خلفاء الرسول المعصومين ولا من صحبه الكرام الميامين!

ورغم أن القرآن ليس من دأبه ذكر النساء بأسمائهن حفاظاً عليهن حتى في أسمائهن، نراه يدأب في ذكر مريم مرات عدّة ليس إلا ذوداً عنها ما مسته اليهود والنصارى من كرامتها ونسبتها إلى غير اللائق بحرمتها، فكان من الواجب الرسالي في الوحي الأخير ذكرها في مذكرات شأنها بعصمتها وطهارتها، كما وفي سائر القرآن مذكرات لعصم المرسلين حيث تعرضت في محرفات من كتابات الوحي لما لا يليق بساحة الرسالة ولا الإيمان بل ولا أي إنسان! وآي الذكر الحكيم عاصمة عِصَم الوحي، كما هي عاصمة الرسالة والوحي.

﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾:

إنها الفريدة في الحروف المقطعة القرآنية في العدد التركيبي، ففي الشورى ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ②﴾[2] خمسة في تركيبين اثنين، وهنا خمسة في تركيب واحد، ثم لا خمسة في سائر القرآن، والمتبع من قراءتها هي المتواترة في كتب القرآن «كاف - ها - يا - عين - صاد» دون سائر القراءات[3].

(١) راجع سورة الكوثر من الفرقان ج ٣٠.

(٢) سورة الشورى، الآيتان: ١، ٢.

(٣) من كسر الهاء وفتح الياء وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر أو (مناذر) والقطعي عن أيوب ومن عكسها وهي قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم، ومن إمالتهما كسرا =

ولا بد هنا من رباط بينها ومغزى السورة، كما في سائر الحروف المقطعة مهما كانت هنالك إشارات أخرى لا تحويها السورة، فإنها مفاتيح كنوز القرآن وبرقيات رمزية إلى نبي القرآن!

روايات من الفريقين تدلنا أنها حروف من أسماء الله على اختلافها في «ما هي تلك الأسماء»[١] وهذه الأسماء المرموز بها لا تختص بهذه السورة، فقد تأتي بألفاظها أو معانيها في السور كلها!

ويروى عن القائم المهدي (عجل الله فرجه الشريف) أنها إشارات إلى رزية العاشور[٢] وليس بذلك البعيد، لمكان المشابهة التامة بين الحسين عليه السلام

= فيهما وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير، ومن ضم الهاء وفتح الياء وهي قراءة الحسن ويروى عنه عكسها أيضاً وروى صاحب الكشاف عنه ضمها، وإشمامهما شيئاً من الضمة (تفسير الفخر الرازي ج ٢١: ٧٨).

(١) الدر المنثور ٤: ٣٥٨ - أخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فحدث عن أبي صالح عن أم هاني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كاف هاد عالم صادق» أقول: لم تذكر هنا إشارة الياء وقد ذكرت فيما رواه القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هذه أسماء الله مقطعة وأما قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: الله هو الكافي الهادي العالم الصادق ذو الأيادي العظام» ف «ذو الأيادي من اليد فهو رمز الياء وفي معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن عمارة قال: حضرت عند جعفر بن محمد عليه السلام فدخل عليه رجل فسأله عن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فقال عليه السلام: «كاف» كاف بشيعتنا «ها» هاد لهم «يا» ولي لهم «عين» عالم بأهل طاعتنا «صاد» صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم إياها في باطن القرآن» أقول: وهذا يختلف في إشارة الياء «ولي» عن سابقه «ذو الأيادي» وظاهر الإشارة فيها إلى أسماء الله تعالى هو الحرف الأول، فذو الأيادي مفضل على «ولي» إلا أن تؤول الولاية إلى ذي اليد. وفي المجمع روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في دعائه: اسألك يا كهيعص.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣١٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم حديث طويل وفيه «قلت: فأخبرني يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن تأويل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾؟ قال عليه السلام: هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله عبده زكريا عليها ثم قصها على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أن زكريا عليه السلام سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة فأهبط الله عليه جبرائيل عليه السلام فعلمه إياها فكان زكريا إذا ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام =

ويحيى، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ هي ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وقد تعنيهما هذه الخمس فيما تعنيه من إشارات، ما وصلتنا منها إلا هذه وتلك.

وماذا يمنع أن تكون هذه أسماء الله أو حروفاً من أسماء الله، ويضمنها إشارات أخرى منها رزية الحسين عليه السلام وهو اسم من أسماء الله وقد حقق كفاية الكافي وهدايته وعمله وصدقه ويده وولايته في جهاده وجهوده، وهو صنو عظيم من يحيى بن زكريا في ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[1] وفي استشهاده أمّاذا من أمره المرير.

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾:

كأن ﴿ذِكۡرُ﴾ خبر كـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أم «هذا» أمّاذا؟ والأول أولى لذكر ما يصلح كونه المبتدىء، ويناسبه بعض التأويل، فرحمة الكفاية والهداية واليد الولاية والعلم وصدق الوعد، رحمات خمس إلهية لعبده زكريا، وكلها

= والحسن عليه السلام سرى عنه همه وانجلى كربه وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم عليهم السلام تسليت بأسمائهم من همومي وإذا ذكرت الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فالكاف اسم كربلاء والهاء هلاك العترة. والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين عليه السلام والعين عطشه والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا عليه السلام لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه وأقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أتنزل بلوى هذه الرزية بفنائه؟ أتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتحل كربة هذه الفجيعة بساحتهما؟ ثم كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقر به عيني عند الكبر، واجعله وارثاً ووصياً واجعل محله مني محل الحسين عليه السلام فإذا رزقتنيه فافتني بحبه وأفجعني به كما تفجع محمداً حبيبك صلى الله عليه وآله وسلم بولده، فرزقه الله يحيى عليه السلام وفجعه به وكان حمل يحيى ستة أشهر وحمل الحسين عليه السلام كذلك.

وفي مناقب ابن شهر آشوب عن إسحاق الأحمري عن الحجة القائم عليه السلام مثله سواء.

أقول: لا غرو أن ذلك الترتيب اسم واحد أو أسماء من الله تعالى تحمل في حروفها إشارات إلى ضحية الله وثأره.

(١) سورة مريم، الآية: ٧.

رحمات ربانية لعباد الله المخلصين، أماذا من رحمات تذكر في هذه السورة لمريم عليها السلام وأضرابها من المكرمين.. وقد يعني ﴿عَبْدَهُۥ﴾ الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فـ ﴿زَكَرِيَّآ﴾ إذاً عطف بيان لـ ﴿رَحْمَتِ﴾ فـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، هي ذكر رحمة ربك زكريا لعبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو المعنيان معنيان، فـ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ يشملهما على البدل وهو أجمل.

ومن رحمته استجابة دعوة عبده ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ - ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[١].

والنداء هي الدعوة جهراً للمدعو مهما كانت خفية عن الآخرين وكما ﴿نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] و﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٣] فلا تنافي ﴿نِدَآءً﴾ كونها ﴿خَفِيًّا﴾ كما الوحي إلى موسى جلي لموسى وخفي عمن سواه، ولا سيما بالواد المقدس إذ لم يكن معه أحد حتى أخيه هارون المشارك له في وحي النبوة أحياناً.

ومن آداب الدعاء كونها خفية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٤] ابتعاداً عن الرئاء، و﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٥] فلماذا الجهر إذاً وإن لم تكن رئاءً؟!.

وليس من لزام النداء العبد حتى توجّه نداء زكريا بتخيّل البعد عن ربه تخضعاً، رغم أن الدعاء حالة القرب حتى للبعيدين عن ساحة القرب فضلاً عن المقربين!

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٠.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٠.
(٣) سورة النازعات، الآية: ١٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٥) سورة طه، الآية: ٧.

إنه يناجي ربه بعيداً عن أسماع وعيون الناس، إخلاصاً لربه وكشفاً عما يثقل كاهله وتجنباً عن مقالة هازئة: زكريا يطلب ولداً وقد اشتعل رأسه شيباً وكانت امرأته عاقراً، يدعوه في سر مستتر وإن كان ربه يسمع دون دعاء ويرى دون رئاء ولكنما المكروب يستريح إلى الدعاء وقد أمره ربه بالدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] حيث الدعاء التماس والتجاء وهو مخ العبادة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾:

عرض متين من نبيٍّ أمين لشروطٍ لاستجابة الدعاء ومقتضيات وعدم الموانع فيما لديه: ﴿رَبِّ﴾ دون «يا» لتكون أقرب لفظياً كما هو قريب معنوياً فإن «يا» لنداء البعيد! «إني وهن العظم مني» وإذا وهن العظم وهو المتن المكين فسائر البدن أوهن وسرعة الفناء إليه أهون ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شعلة النور والبيضاء حتى لا تبقي سواداً، فإنه بتعبير ما ألطفه عن تكاثر الشيب في الرأس كأنه مشتعل يقهر بياضه وينصل سواده، سرعة في تضاعف الشيب وتزايده وتلاحق مدده حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال النار، يعجز مطفيه ويُغلب متلافيه.

وترى الشيب من شروط استجابة الدعاء وقد يشيب الإنسان على الشقاء؟ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ لم تسبق لي منذ التكليف لحد المشيب شقوة في دعائك: دعاءك إياي فيما أمرتني ونهيت حيث أطعت دونما شقاء وعناء، ودونما تعنت وكبرياء، وهذا من أصول إجابة الدعاء ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2] فعهدي هو عهد العبودية الخالصة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[1] ومن عهدكم استجابة الدعاء ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] ﴿وَلَمْ أَكُنۢ﴾ فيما مضى ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ إياي وهو العهد الأول ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ وعلى ضوئه، ولم أكن بدعائي إياك وهو العهد الثاني ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ فإن دعاء الأشقياء لا يستجاب، وإذ لم أكن شقياً بدعائك إياي لم أكن شقياً بدعائي إياك[3].

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب، أفبعد المشيب وأنا أحرى بالاستجابة وأرحم أنت لا تستجيب؟.

ورغم ﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ فلا يهن العزم منك، ومع أنه ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فرحمتك مشتعلة للشيب أكثر مما قبل المشيب، فحالي الضعيفة وماضيَّ من حالي إذ ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ تقتضي رعاية حالي واستقبالي، وكما لم أكن في حال بدعائك رب شقياً فلا تكن بدعائي ربِّ إلا حفياً، فقد عودتني الاستجابة في فتوتي وقوتي فما أحوجني في هرمي وكبرتي!

ثم وليست هذه الاستجابة لصالحي شخصياً، بل والحفاظ على مستقبل الرسالة ووراثة الدعوة:

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾:

ليس لي ولد يرثني رضيّاً، وإني خفت من يليني من ورائي أن يصبحوا أخلافاً متخلفين، فلا يقوموا على تراث النبوة مالاً وحالاً، تضييعاً للمال في غير موضعه، وتحويلاً للحال إلى غير حالٍ.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) فـ «دعائك» يعني المعنيين على الترتيب في الأدب اللفظي بإضافة المصدر إلى الفاعل كما في «عهدي» ثم إضافته إلى المفعول كما في عهدكم، وكما هو الترتيب المعنوي أن استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه وما ألطفه جمعاً لهما لفظياً ومعنوياً.

ورغم أن حالي وماضيّ واستقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالحي وصالح استمرارية الدعوة والحفاظ على بيت النبوة، ولكني ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ كمانع أوّل للإيلاد ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ كمانع ثانٍ للولادة، ولكنك لا يمنعك أيّ مانع ولا يقف دون مشيتك أي رادع، «وكانت» تلمح لكونها عاقراً منذ ماضٍ بعيد وهي الآن شيخة فأصبحت ذات عقرين! فهذه - إذاً - ثلاث!

﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1] ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[2].

يدعو ربه بكل ضراعة آيساً من نفسه، وهناً لعظمه وعقراً لزوجه، راجياً ربه أنه سميع الدعاء وهو خير الوارثين، فهب لي ولياً يرثني خيراً وأنت خير الوارثين، وقد تشير ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدنية رحمانية حيث الأسباب العادية قاصرة لمكان العقر والشيخوخة ورحمة لدنية رحيمية هي النبوة وهما من خوارق العادة في الرحمتين ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ...﴾!

وهنا ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ تصرف ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ عن وراثة النبوة، أو تعمها لكل وراثة من مال ونبوة[3] فلو كانت ﴿يَرِثُنِي﴾ مختصة بوراثة النبوة وهي تتطلب في أصلها وفرعها كون الوارث رضياً، لكانت ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ طلباً لتحصيل الحاصل، أو أن الله يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾!

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٥٩ وأخرج الفرياني عن ابن عباس قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

فلقد كان دعاؤه ذات بعدين ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي...﴾ ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وكما في آل عمران: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً...﴾[1] كتصريحه ثانية، ثم وتلميحة في الأنبياء ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

فلا يطلب ويستوهب ولياً غير رضي، ولا رضياً غير ولي، وإنما يطلب ولياً رضياً يرثه وهو الولد من صلبه فميراث النبوة - على مجازها - لا يختص بذرية وارثة، كما وهذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضياً. فقد يدعو زكريا ربه أن يهبه ولداً هو مجمع الوارثين، ولو اختصت بوراثة النبوة أصبحت مجازاً لا محسِّن له ولا دليل، وسقطت «واجعله رضياً» عن الفائدة. فليعن بـ ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ ميراث المال والأعم بقرينة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وبـ ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ النبوة المجعولة في وارث المال، وعلى أية حال فإرث المال أصل قاطع في ﴿يَرِثُنِي﴾ ولكي ينضبط ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!.

فهنا الحديث المختلق على الرسول ﷺ هضماً لفدك البتولة الزهراء عليها السلام، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» يردُّ إلى قائله لمخالفته نصاً من كتاب الله ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ...﴾ وحيث لا تختص بإرث النبوة، بل لا تورث النبوة حتى تشملها[3]، وإنما هي المستفادة من ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ جعلاً إلهياً ثانياً باصطفاء بعد جعل الولادة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) فالوراثة في وجه عام تختص بالمال حيث ينتقل بحكم الله إلى الورثة، فأما العلم والتقى، والرسالة وأضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال، اللهم إلا مجازاً، إن الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالورثة لمشابهتها وراثة المال رغم الفوارق بينهما، ولا مجال في هذه الآية لهذا المجاز، اللهم إلا أن يُعنى من ﴿يَرِثُنِي...﴾ [مريم: ٦] كلا الميراثين والقدر الثابت وراثة المال، حيث النبوة مذكورة في ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

ولأن عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة «معاشر الأنبياء» فلا تخصيص فيه إلّا تعامياً عن العلة فتغاضياً عن أصل الحكم، فلا يقبل تخصيصاً بالكتاب أن وراثة المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم رغم عموم النص ونص العموم في ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[(١)] أفعلى عمد يترك كتاب الله في عمومه وخصوصه؟ أو أن الصديقة الزهراء لم تكن من أولاد الرسول ﷺ أم لم تكن مسلمة ترث أباها أمّاهية؟!.

تقول فيما يروى عنها (سلام الله عليها): «أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ وقال عَزَّ وَجَلَّ فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ وقال عزَّ ذكره: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[(٢)] وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[(٣)] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا! أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟! أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أولست وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي ﷺ؟ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٥)]؟ أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ...﴾[(٦)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٦) ج ٦ بحار الأنوار، يقول صاحب البحار: هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ وينقلها هنا عن كتاب «بلاغات النساء» لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر.

هنا ﴿يَرِثُنِي﴾ يعم الإرثين أو يخص إرث المال. فماذا يعني ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾؟

قد يعني يعقوب بن ماثان أخا عمران بن ماثان أبي مريم، وكانت امرأة زكريا أخت مريم، فلأنها من آل يعقوب فإرثه عنها إرث من آل يعقوب، ولكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن إسحاق، إذاً فآل يعقوب هم بنو إسرائيل فالميراث إذاً يعم النبوة والمال.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٢).

لقد تحققت الاستجابة لتوفُّر شروطها، مسارعة في سابق الخيرات وسابغها والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله وقد جمعها في إجمال ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

وقد تعني ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ إصلاحها عن عقرها لتلد، وإصلاحها لإيلاد صالح ليصلح رضياً، مهما كانت صالحة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾!.

كما ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف(٣)

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٣) فلا يقاس بـ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] حيث يقابله غير الرضى، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلاً عن كونه من النبيين، ولكن الصالحين منهم نبي ومنهم غير نبي وزكريا طلب فقط صلاحه في ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فزاده الله تعالى نبوة ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]!.

فـ «نبياً» يعني رفيعاً فـ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعني رفيعاً من الصالحين، لا رضياً كسائر الصالحين، فهي استجابة فوق المستدعى! حيث النبي يُصطفى بين الصالحين وهم المرسلون ف ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(١)] وقد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير أنبياء.

و﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ تنفي غلاماً قبله اسمه يحيى، وقد تنفي معه من كانت من قبلُ سِمته كيحيى، فـ ﴿سَمِيًّا﴾ تشمل الاسم والسِّمة، وهكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسمياء في الاسم، لا في السمة إلا الحسين بن علي عليه السلام.

﴿لَمْ نَجْعَل...﴾ دليل أن الله هو الذي سماه يحيى وقد سمى من قبل بعض عباده بأسمائهم، و﴿سَمِيًّا﴾ لا يخص الاسم إذ ليس بخصوصه كثير الأهمية، وإنما هو مع السمة والميزة الخاصة وكما الله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٢)] حيث الاسم بمجرده ليس ليخص العبادة والاصطبار لها بالمسمى لأن التسمي بأي الأسماء هين، فالسمي هو المثل في الاسم والسمة وهي أولى وطالما المسيح كان سميه في سمات عدة فهو بعده وتنقصه سمة الشهادة الخاصة وهي للإمام الحسين عليه السلام خاصة، وكما لم يجعل له عليه السلام من قبل سمي في الاسم ولا الشهادة، اللهم إلا يحيى في سمة الشهادة! فهو أسمى الأسمياء ليحيى بعده[(٣)] وبعده المسيح عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٢٤ عن مجمع البيان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية وكذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من قبل سمي ولم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً، قيل له: وما كان بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا وفي إرشاد المفيد روى سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين بن علي عليه السلام فما نزل نزلاً ولا رحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال: ومن هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

وترى أن الله بشَّره دون وسيط كما تلوح ﴿يَٰزَكَرِيَّآ... لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ...﴾؟ أم بوسيط الملائكة ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]؟ وكيف الجمع بينهما!.. أن قول ملائكة الوحي المرسلين إلى الرسل هو قول الله، فلا فرق إذاً بين «قال ربك...» و﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أو أنه نداءان، بواسطة الملائكة أولاً، ثم دون وسيط أم بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانياً!

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾:

وترى كيف يختار زكريا فيما يدعو ويختار، فلو كان بعيداً عن رحمة الله أو مستحيلاً في قدرة الله لما كان يختاره بكل ضراعة وإصرار؟ وقد عرض في معرض دعائه مانعاً منه فيه وفي زوجه، عقراً وكبراً عتياً، رجاء من الله أن يزيله فيهب له غلاماً رضياً زكياً!

إنه لا يتساءل «كيف يكون» استبعاداً لأصل الولادة أو كيفيتها، وإنما ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ سؤالاً عن زمانها، أقريب أم بعيد، رغم أن ﴿ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ فليكن قريباً لكي تكون لي ولأمه حظوة، ولا فرق عندك بين تعجيله وتأجيله حيث الكبر والعقر قائم ولا سيما في تأجيله.

وإن كان الجواب يلوح باستبعاد لزكريا في الاستجابة ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ...﴾ فإنما هو من قصور فيه وفي زوجه، ولا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة، فأخذته الحيرة لما بشِّر بيحيى فانفلت من لسانه ﴿أَنَّىٰ﴾! إذ لم يتمالكه في عُجاب البشرى واستفسار خصوصياتها، استغراباً من الأسباب، لا من هبة مُسبب الأسباب، كما ولا يذكر إلّا عقراً لامرأته وعتياً لنفسه دون شيء من ربه إلا ما سبق في دعائه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2] ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾!.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

هنا يذكر من قصوراته في موانعه: لامرأته عقراً وشيخوخة، فلو لم تكن عاقراً لم تلد الآن للشيخوخة وهي عاقر شيخة! ولنفسه اشتعال الرأس شيخوخة وانخماد الشهوة عتوة: يبساً وجفافاً لنبعة النطفة، ضعف على ضعف وعقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبياً، يستوضح بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ زمنها وكيفيتها، لا أصلها المستجاب فيما تطلّبه بكل رغبة و:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع ولا دفعة دافع ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أفعيّاً بعدُ عن خلق غلام من أبوين؟.

وترى ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ تعني خلق زكريا من أبويه الصالحين للإيلاد؟ فهو أهون من خلق يحيى من أبوين عاقرين ولا أولوية في هذا القياس! أم يعني خلق الإنسان الأول دون أبوين، المنتهي خلق زكريا إليه؟ والصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه بـ «وقد خلقت آدم ولم يك شيئاً»!.

وقد يلمح ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ إلى خلق المادة الأولية - وهو منها - لا من شيء، وهو أولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة، حيث الخلق من شيء أهون من الخلق لا من شيء وينتهي خلق كل شيء إلى «لا من شيء».

أو أنه ليس قياساً وإنما تسوية في الخلق الهيِّن بين خلقه من صالحين وبين خلق يحيى منهما بموانعه فـ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ. . .﴾ وكان هيناً، دونما صعوبة عليّ في خارقة العادة، وهذا هو الواقع في حساب الله إن ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة وأسهل وصعوبة وأصعب، وإنما ذلك في حسابنا وكما يحدثنا بهذا الحساب: ﴿وَهُوَ الَّذِى

﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1] فالصعب يُعيي ولكن الله لا يعيى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]! وقد يعنيهما ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جمعاً بين برهاني قياس المساواة والأولوية!

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾:

﴿... أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[3].

ترى وكيف يطلب آية وهو مطمئن ببشارة الله وقد طمأنه ثانياً وعد الله؟.. أنه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد! وما هي الصلة بين آية خارقة وبين صدق الوعد؟ ونفس الوحي آية هي أقوى من كل آية! وسائر الآيات ليست إلا لتدل المرسل إليهم إلى آية الوحي المدعى للرسول!.

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق إليه نفسه ولا يعلمه بأصل البشارة. والنص ﴿ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ﴾ آية مرتبطة به لإعلامه الوقت، لا مرتبطة بالله لكي يصدِّق في البشارة، أم ليُتأكد أن البشارة هي من الله وليس من سواه! فإن ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾[4] برهان لا مرد له على تأكده أنها بشارة ربانية، فرواية هذه القيلة مطروحة[5] والأنبياء

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.
(٥) في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ذكراً فنادته الملائكة بما نادته أحب أن يعلم أن ذلك الصوت من الله أوحى إليه أن آية ذلك =

معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي، إذ لا يشتبه عليهم غير الوحي بالوحي!

وفي إنجيل (لوقا ١ : ٢١) «وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته (١٩) وكان الشعب منتظرين زكريا ومعجبين من إبطائه في الهيكل (٢٠) فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمىء إليهم وبقي صامتاً (٢١)».

وقد أقحم في هذه الآيات ما يمس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط ويصدق ما يصدقه القرآن وسائر البرهان.

و«ألا تكلم الناس - ثلاث ليال أو ثلاثة أيام سوياً إلا رمزاً» آية تامة إلهية تدله على ما يروم، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان أم لأي مرض كان، وهو يقول ﴿سَوِيًّا﴾: حال أنك سليم ولو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس وسواهم وهو يقول: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ فقد يكلم الله ويكلم ملائكة الله كما كان، لكنه يعجز في وقته المحدّد أن يكلّم الناس ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ ويؤمر أن يذكر ربه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[1]!.

= أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيام قال: لما أمسك لسانه ولم يتكلم علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٦١ أخرج إسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس في الآية - إلى قوله: فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨] خاف أنها لا تلد قال: كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين وقد خلقتك من قبل أن أهب لك يحيى ولم تك شيئاً وكذلك أقدر أن أخلق من الكبير والعاقر وذلك أن إبليس أتاه فقال: يا زكريا دعاؤك كان خفياً فأجبت بصوت رفيع وبشرت بصوت عالٍ ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل ولا من ربك قال: رب اجعل لي آية حتى أعرف أن هذه البشرى منك. قال: آيتك.. أقول ماذا يدل على أن الإجابة كانت بصوت جلي، وهل هنالك آية معجزة أقوى من الوحي نفسه؟! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

وترى كيف الجمع بين ثلاث ليال، تجمع مع نهارين، وثلاثة أنهار، وثلاثة أيام أليست إلا ثلاثة أنهار بلياليهن أم ليلتين؟ ولم يكن الحد الزمني لآيته إلا إحداهما!.

ثلاثة أيام نص في ثلاثة أنهار ظاهر في ثلاث ليال. وثلاث ليال نص - في لياليها الثلاث وظاهر في ثلاثة أنهار، ونتيجة الجمع بين النصين والظاهرين هي ثلاثة أيام بمجموع أنهارها ولياليها، واستعمال ثلاث ليال في المجموع سنة مستمرة، وقد يعني الإتيان بالليالي إبرازاً لأهميتها في هذا المجال لـ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

ثم «إلا رمزاً» سماح له أو أمر لتوجيه الناس إلى تسبيح الله:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾:

ذلك - وليعيشوا في جو النور الذي أمر أن يعيشه، تحضيراً للبشارة وشكراً على العِدَّة، و﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تعني في مجموعة ثلاثة أيام صباح مساء، وقد يعني ذكرهما أنهما كانا أصلين لأوقات العبادة في شرعة التوراة، أم هما أفضل الأوقات، لأنهما البداية والنهاية في اليقظة أو الشغل، فليبكروا بتسبيح الله وليعشوا به.

ثم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ هو الرمز المسموح له في تكلم الناس أياً كان فهو «وحي الإشارة» كما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام [1].

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾:

هنا يطوى عن «متى ولد يحيى؟ وكيف ولد؟ وماذا حصل بهذه

(١) في تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام حين سألوه عن معنى الوحي فقال: منه وحي النبوة ومنه وحي الإلهام ومنه وحي الإشارة فقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي أشار إليهم كقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

الولادة؟» طياً لصفحة زكريا في صمته بتسبيحه، وسدلاً لستار عليه وعلى الولادة، فتحاً لصفحة جديدة ومختصرة غير محتصرة عن يحيى عليه السلام حيث ليس كتاب القصة إلا ما يقص منها للنبهة والتذكرة، إبرازاً لأهم الحلقات وطياً لسائرها حيث لا تعني ما يعنيه القرآن من قصته.

يؤمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة، حاكماً به وداعياً إليه ﴿صَبِيًّا﴾ وهو قبل بلوغ الحلم، ويروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه «أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين»[(١)] و«قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى: ما للعب خلقنا اذهبوا نصلي فهو قول الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[(٢)].

أترى أن ذلك الحكم - فقط - هو الفهم والعبادة من دون وحي ونبوة؟ وله نظائر من الصبيان علماً وعملاً! وهكذا حكم ليس لزامه أخذ الكتاب بقوة، حيث البالغ المؤمن العادل يأخذ كتاب الشرعة بقوة ودون قوة ويحيى كان نبياً دونما ريبة!

أم أنه النبوة وقد عطفت بالكتاب في آيات عدة[(٣)] تجمع بين الكتاب والحكم والنبوة، مما يدل على أن الحكم ليس لزامه النبوة، ١ - فقد يؤتى الكتاب دون حكم ولا وحي ولا نبوة، كالمرسل إليهم بكتاب الشرعة، ٢ - أو يؤتى كتاباً بوحي الرسالة بحكم الولاية الشرعية كسائر المرسلين، ٣ - أم وحكم الملك كداود وسليمان عليهما السلام، ٤ - أو يضاف إلى وحي الرسالة بحكميها أو أحدهما النبوة وهي الرفعة في الرسالة، ٥ - أو يؤتى

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦٠ - أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال: أعطي...

(٢) المصدر (٣٦١) أخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

(٣) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ...﴾ [آل عمران: ٧٩] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦] ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

حكم الولاية الشرعية دون وحي كسائر ولاة الشرع، ٦ - أو ولاية الملك فقط على غرار الشرعة دون وحي ولا ولاية شرعية كما لطالوت الملك!

فالحكم - أياً كان - كائن في الخمسة الأخيرة فليس لزامه خصوص وحي الرسالة فضلاً عن النبوة!

فهل يعني حكم يحيى الذي أوتيه صبياً حكم المُلك؟ ولم يكن مَلِكاً وإنما ذبحه كما الحسين عليه السلام ملك ظالم! أم حكم ولاية الرسالة أو النبوة؟ ولا دليل عليه حين كان صبياً مهما بلغ بعد صباه إلى رسالة أم نبوة! أم حكم الولاية الشرعية ولما يبلغ أشده؟ أو حكمَ العقل والفهم بصورة خارقة للعادة وهو مادة الولاية الشرعية؟ وهو القدر المتيقن من حكمه، كخارقة إلهية لمن لم يبلغ أشده، مهما أبلغه الله شداً واحداً وهو العقل الرزين والإدراك المتين[1] فلا نبي فيمن نعرف أوتي حكماً قبل أن يبلغ أشده وكما موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2] وفي يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[3]. ولم يك عيسى نبياً في المهد مهما تكلم بوحي النبوة،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٢٥ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروي عن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: فهذا يحيى بن زكريا يقال: إنه أوتي الحكم صبياً والحلم والفهم وإنه كان يبكي من غير ذنب وكان يواصل الصوم؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أعطي أفضل من هذا، إن يحيى بن زكريا كان في عصر لا أوثان فيه ولا جاهلية ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أوتي الحكم والفهم صبياً بين عبدة الأوثان وحزب الشيطان فلم يرغب لهم في صنم قط ولم ينشط لأعيادهم ولم يُر منه صلى الله عليه وآله وسلم كذب قط وكان أميناً صدوقاً حليماً وكان يواصل صوم الأسبوع والأقل والأكثر فيقال له في ذلك فيقول: إني لست كأحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني وكان يبكي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم.

أقول: قياسه صبا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصبا يحيى دليل على أن الحكم فيهما ليس النبوة وإنما الحالة المتحضرة للنبوة الآتية.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٢.

ذوداً عن أمه المعصومة، وتبشيراً برسالته كهلاً ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) فلم يكلم الناس كرسول بين مهده وكهله!

هذا، ومن أئمتنا المعصومين من بلغ الإمامة والولاية الكبرى الاسلامية قبل أشده إلا شداً في عقله كالإمام محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه حيث تقلد إمامة الأمة في الخامسة من عمره الشريف، ثم جواد الأئمة عليه السلام في الثامنة أو التاسعة من عمره(٢).

ثم وما تعني ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾؟ إنه أخذ التوراة بقوة العلم والعمل والحكم بهما بين الناس بالولاية الشرعية لمّا يبلغ أشده(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٢) المصدر ح ٣٢ - الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن أسباط قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ فأجدت النظر إليه وجعلت أنظر إلى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينا أنا كذلك حتى قعد فقال يا علي: إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال: «وآتيناه الحكم صبياً ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة». أقول: الآية الثانية غير مرتبطة بالنبوة فإن بدايتها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا. . .﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ. . . - إلى قوله - إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فإنها ليست فيها إشارة إلى النبوة اللهم إلا الإيمان الإسلام وهو أعم، ثم الآية الأولى ليس فيها إلا الحكم وهو كما قسمناه لا يخص حكم النبوة، إذاً فهذه الرواية مؤولة أو مطروحة مردودة إلى من نسبها إلى الامام عليه السلام.

وفيه (٣٥) عن المناقب محمد بن إسحاق بالإسناد جاء أبو سفيان إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن جئتك في حاجة قال: وفيم جئتني؟ قال: تمشي معي إلى ابن عمك محمد فنسأله أن يعقد لنا عقداً ويكتب لنا كتاباً فقال: يا أبا سفيان لقد عقد لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقداً لا يرجع عنه أبداً وكانت فاطمة عليها السلام من وراء الستر والحسن يدرج بين يديها وهو طفل من أبناء أربعة عشر شهراً فقال لها: يا بنت محمد قولي لهذا الطفل يكلم لي جده فيسود بكلامه العرب والعجم فأقبل الحسن إلى أبي سفيان وضرب إحدى يديه على أنفه والأخرى على لحيته ثم أنطقه الله عزّ وجلّ بأن قال: يا أبا سفيان قل: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكون شفيعاً فقال: الحمد لله الذي جعل من ذرية محمد المصطفى نظير يحيى بن زكريا ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]

أقول: ولم يكن الحسن عليه السلام حينذاك إماماً وإنما أوتي حكماً: عقلاً وفهماً.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٢٥ ح ٢١ في أصول الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل=

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾:

«و» آتيناه حناناً من لدنا وبراً بوالديه. . .» إيتاءات وعطيات إلهية «وكان» قبلها وبعدها ﴿تَقِيًّا﴾ فلم تكن تلك الموهبات اللدنية دون شيء. فإنما «زكاة» من لدنه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ في زكاته، حيث الغايات اللدنية تنزل حسب القابليات والفاعليات فقابلية «زكاة» كانت من لدنه، وفاعلية ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ منه عليه السلام نسخة طبق الأصل!.

هنالك حنان وزكاة وبرٌّ، وبينها تقًى منذ ولد حتى الممات إذاً فكله ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾!.

والحنان هو الإشفاق المتضمن للصوت الدال على الشفقة. و﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تجعله خارقاً للعادة المألوفة وفي مربع من الحنَّة ١ - حنان من الله وعطف بما يحمله وحيه الحنون ورحمته الحنون

«كان إذا قال يا رب قال الله عز وجل: لبيك يا يحيى[1]، ٢ - وحنان له من لدنه جعله يحن إليه ليل نهار بحنين وأنينه وعبادته، ٣ - وحنان منه إلى عباد الله، يدأب في دعوتهم إلى ربهم ٤ - وحنان من الناس إليه وكما في موسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[2]! فهو إذاً محبط الحنان ومصدره بين الله

= يقول فيه: مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عز وجل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فلما بلغ عيسى عليه السلام سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين.

(١) في الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: فما عنى بقوله في يحيى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: ١٣]؟ قال: تحنن الله - قلت: فما بلغ من تحنن الله عليه؟ قال: كان إذا قال: يا رب. . .

(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.

وخلقه، ورأس الزاوية من حنانه انجذابه الخاص إلى ربه لحدٍّ لا يؤلف في سواه اللهم إلا الأخصين من الصالحين محمد ﷺ وعترته الطاهرين عليهم السلام .

هنالك حنان يمازجه ضيق ببكاء دائب إشفاقاً من ربه واشتياقاً إليه، صوت المشتاق المفتاق إلى ربه مثلما كان لاسطوانة الحنّانة حنين بفراق الرسول ﷺ ولذلك سميت حنانة!

﴿وَزَكَوٰةً﴾: آتيناه زكاة - طهارة عما يدنس ساحة الإنسانية والإيمان الإسلام «و» الحال أنه ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ فـ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] فلما كان تقياً يتقي الموبقات، آتيناه زكاة عما يُتَّقى من جهل وسوء خلق وفسوق وعصيان فأصبح زكياً دون عيب في نماء وربوة روحية متعالية، متزكياً في نفسه مزكياً لغيره، زاكياً زكياً ذكياً في كل الحقول محلقاً على كل العقول.

«و» آتيناه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وترى أن برَّ الوالدين من ميِّزات الرحمات اللدّنية الربانية؟ ولم يذكر في عدادها لسائر المرسلين! ولا من دونهم من أولياء الله المكرمين! فإنه من صفات المؤمنين قبل هذه الدرجات العليا! فكيف يذكر في سائر القرآن بين سائر المرسلين - فقط - ليحيى وعيسى عليهما السلام ؟!.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾:

إن السيد المسيح كما يأتي قد افتري عليه بخلاف البرّ لوالدته وأنه كان جباراً عليها عصياً، فدافع عنه القرآن هنا، ولأن يحيى الرسول كان مبشراً بالمسيح، وكانت مهمته الرسالية ذلك التبشير: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] .

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

لذلك يذود عنه أيضاً تلك الوصمة كإعداد لأصله المبشَّر به، فإذا كان يحيى المبشر بالمسيح براً بوالديه فأحرى بالمسيح كونه براً بوالدته! ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾: مستعلياً مستكبراً يحمل غيره على ما أراد ولا يتحمل عن غيره ما يراد «عصيا»: كثير العصيان.

هذه جوامع أحوال يحيى في نفسه وما آتاه ربه، وأمام الخالق والمخلوق، زوايا ثلاث من حياته منذ ميلاده حتى موته: حاكماً حكيماً حنوناً زكياً تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، فهو جملة وتفصيلاً سلام في سلام إلى سلام.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾:

صحيح أن ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)] جملة وسلام عليهم تفصيلاً، إلّا أنّ يحيى وأحرى منه عيسى قيل فيهما أقاويل تمس من كرامة الرسالة ولادة وموتاً وبعثاً لذلك نجد مثلث السلام لهما في سائر القرآن بين سائر المرسلين، هذا ليحيى ومن ثم المسيح عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[(٢)].

فـ «إن أوحش ما يكون في هذا الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد ويخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا وقد سلم الله عز وجل على يحيى في هذه الثلاثة مواطن وآمن روعته فقال ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وقد سلّم عيسى ابن مريم على نفسه فيها»[(٣)] فسلام الولادة

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٨١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٢٧ ح ٣٨ عيون الأخبار بإسناده إلى ياسر الخادم قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إن أوحش.

والموت سلام طول حياة التكليف، وسلام البعث حياً هو سلام الخلود في عطاء غير مجذوذ ويعني مثلث السلام للمسيح عليه السلام أكثر مما يعنيه في يحيى ذوداً عن ساحته فيها لا مزيداً لسلامه فيها[١].

و﴿وَسَلَٰمٌ﴾ في إرساله يعم كلَّ سلام من كل مسلّم: من الله في رحمتيه، ومن الملائكة طلب الرحمة كما في سائر المرسلين والصالحين، ومنه نفسه كلّما يقدمه لكل سلام منذ الحكم حتى الموت، ومن سائر الناس أن يعتقدوا فيه كل سلام. إذاً فهو في مربع السلام تكويناً وتشريعاً لا يجوز لأحد أن يقول فيه غير «سلام»! وهل يوجد بين الأتقياء أتقى من يحيى؟ علّه نعم فإنه لم يكن من أولي العزم مهما بلغ من تقاه، ثم القرآن يصرح بأن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أوّل العابدين! أو علّه لا إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مهما سبق سائر أولي العزم في سائر عزمهم على يحيى، ولكنه أتقى منهم[٢] أم هم على سواء إلا

(١) يأتي تفصيله في سلامات المسيح بعد قليل.

(٢) ويتبع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام وقد تظافرت الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فضل يحيى ففي الدر المنثور ٤: ٢٦٢ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الإفراد وأبو نصر السنجري في الإبانة والطبراني عن ابن عباس قال: كنا حلقة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم نتذاكر فضائل الأنبياء، فذكرنا نوحاً وطول عبادته وذكرنا إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما تذاكرون بينكم؟ فذكرنا له فقال: أما إنه لا ينبغي أن يكون أحد خيراً من يحيى بن زكريا أما سمعتم الله كيف وصفه في القرآن ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢، ١٣] - لم يعمل سيئة قط ولم يهم بها أقول: لعله نعم إلا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ولآية التطهير وأمثالهما من أدلة تفضيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآله على العالمين أجمعين وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن شهاب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون - وذكر مثله في معناه - فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب يحيى بن زكريا وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا لم يهم بخطيئة ولم يعملها أقول يستثنى =

خاتمهم ﷺ، فسلام عليه من عيسى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ من الله ليحيى قد يلمح لكونه أتقى من عيسى مهما كان المسيح أفضل منه في ولاية العزم اللهم إلا في تقاها[١].

وترى لماذا ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ وهو ميت حال نزول آية السلام؟ لأنه ينقل «سلام» عن حال حياته، لا أنه «سلام» بعد استشهاده حال نزول آية السلام!

ولماذا «حياً» بعد ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ﴾ والبعث ليس إلا بعث الحياة؟ قد يعني أنه لا يموت عن حياة البرزخ إلى حياة الآخرة، وإنما يزداد حياتها إلى حياته، لأنه والمسيح ممن استثنى من الصعقة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[٢] فهما ممن شاء الله ألا تأخذهم الصعقة بموت أم غشوة، وإنما انتقالاً من برزخ الحياة إلى أخراها ببعث لبدن والروح حيٌّ يزداد حياة بهذا البعث!

وقد تلمح ﴿حَيّٗا﴾ فيما تعني أنه حي في البرزخ بحياة الشهادة، حياة في

= من عمل الخطيئة كافة المرسلين وسائر المعصومين، ومن همّ بالخطيئة الرعيل الأعلى منهم وفي إنجيل متى»: «عن السيد المسيح «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان..» وهو اسم ثانٍ ليحيى حسب الإنجيل.

(١) الدر المنثور ٤: ٢٦٢ - أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن عيسى ويحيى التقيا فقال عيسى ليحيى: استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى: بل أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت أنا على نفسي وفيه أخرج أحمد وأبو يعلى وابن حيان والطبراني والحاكم والضياء عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، أقول: قد يعني بذلك من مات شاباً فلا يشمل الإمام المهدي ﷺ وأما الإمام الجواد فقد يعني من الشباب غير أهل بيت الرسالة المحمدية فإنهم في الدرجة العليا من العصمة لا يدانيهم أحد كما تدل آية التطهير ورواياته!.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

حياة لا تسلبان عنه إذ ﴿يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ وما ألطفه جمعاً بين الحياتين فيما تعنيه ﴿حَيّٗا﴾[(١)] وهو - إذاً - حال عن يحيى المضمر في ﴿يُبۡعَثُ﴾[(٢)].

فـ ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ﴾ للحياة الآخرة حال كونه ﴿حَيّٗا﴾ بالحياة البرزخية وحياة الشهادة، ولا نجد البعث حياً إلّا في يحيى والمسيح عليهما السلام مهما يبعث أضرابهما من أولياء الله الكرام أحياءً، بحياة إن ماتوا أم حياتين إن استشهدوا، فغيرهم لا يبعثون أحياءً، وإنما عن موت برزخي مهما كان الشهداء أحياءً قبل البعث أكثر من سائر الأحياء!.

زكريا ويحيى في القرآن والعهدين:

يذكر زكريا سبعاً ويحيى خمساً في سائر القرآن بكل تبجيل وتجليل، ومن ميزات يحيى أنه ولد خارقة العادة وسماه الله يحيى وآتاه الحكم صبياً، وقد تشير ﴿يَحۡيَىٰ﴾ إلى أنه يحيا حياةً طيبةً، وأنه تستمر حياته البرزخية إلى بعثه: ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ دون موت في البرزخ!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦٣ وأخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين عليه السلام عن الحسين بن علي عليه السلام قال: كان ملك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه أخوه فأراد أن يتزوج امرأة أخيه فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء فقال له: لا تتزوجها فإنها بغي فبلغ المرأة ذلك فقالت: ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه فعمدت إلى ابنتها فصيغتها ثم قالت: اذهبي إلى عمك عند الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ويقول: سليني ما شئت فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك فإذا قال لك قولي: لا أسألك شيئاً إلا رأس يحيى وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس الملأ ثم لم يمض له نزع من ملكه ففعلت ذلك فجعل يأتيه الموت من قتل يحيى وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه فاختار ملكه فقتله، فساخت بأمها الأرض..».

(٢) أجل حال لا مفعول فإن البعث يتعدى لمفعول واحد وهو هنا نائب الفاعل في «يبعث» وحتى إذا عدي البعث إلى مفعولين فلا يتعدى إلى ثانٍ هو «حيا» لأنه تحصيل لحياة حاصلة، اللهم إلّا مزيد الحياة المعنى بـ «حياً» وهي حالٌ ليحيى!.

ومما يلمح في رسالة يحيى أنها رسالة التبشير بالمسيح عليه السلام و﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] فرسالة التبشير هذه هي رأس الزاوية من رسالته المباركة.

ولأن شعب إسرائيل حسب البشارة في العهد العتيق كانوا ينتظرون المسيح، ظنوا يحيى وهو يوحنا المعمدان أنه المسيح عليه السلام فنفى لمرات عن نفسه أنه المسيح وكما في «لوقا الإصحاح الثالث»: «وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح عليه السلام ١٥ أجاب يوحنا الجميع قائلاً: أنا أعمدكم بماءً ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلَّ سيور حذائه وهو سيعمدكم بالروح القدس ونار (١٦) الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه (١٧).

وفي يوحنا ١: ١٩ - ٢٧: «وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقرّ: إني لست أنا المسيح، فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا! النبي أنت؟ فأجاب: لا! فقالوا: من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال: أنا صوت صارخ في البرية - قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي - وكان المرسلون من الفريسيين، فسألوه وقالوا له ما بالك تعمِّد؟ إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمد بماءً ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».

هذه الآيات ترسم الجوّ الإسرائيلي بانتظار ثلاثة أشخاص بعد يحيى: «المسيح - إيليا والنبي»! وقد صدقهم يحيى هكذا كما الفريسيون، وليس

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

«النبي» إلا الرسول محمد ﷺ الذي بشرت به كتابات العهدين العتيق والجديد، وقد كان معروفاً لديهم لحد الغنى عن ذكر اسمه وكأنه - فقط - نبي لا سواه، و«إيليا» هو علي دون «إلياس النبي» لاختلاف الاسم وسبقه على يحيى بزمن، وقد أتى إيليا لعلي في بشارات أخرى[١].



(١) راجع كتاب «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ

أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

عرض عريض لقصة الولادة والنبوة العجيبة لعيسى تلو يحيى لما بينهما من مشابهات فيهما. فقصته مختصرة عابرة للمبشِّر تتقدم لتقدمه في رسالة البشارة - ثم تتلوها قصة المسيح بداية من أمها في حِملها وحَملها وولادتها، وهي أعجب من قصة يحيى، فإذا ولد من عاقر وشيخ قد اشتعل رأسه شيباً فهنا الولادة دون بعل من طاهرة عذراء كأعجب ما يشهده تاريخ الإنسان إلا ما لم يشهده من خلق آدم مهما عرف بوحي القرآن.

ذلك ولكي تكون الولادة من غير أب دلالة على إمكانيتها دون أبوين، كما أن هذه دلالة على أوليتها دون أب ليهتدي أولاء وهؤلاء فلا يخيّل إليهم أصل الأنواع ولا البنوة الإلهية، وهذه الولادة بجنب ذلك خارقة لبيت إسرائيل الخارقة التي لا تحن إلى آية إلهية خارقة، اللهم إلّا جديدة محيرة كهذه، رغم أن طائفة منهم اتخذوها فرية وأخرى بنوة إلهية دون أية حجة إلّا أهواء مضللة!

يولد المسيح هكذا ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ مثالاً للخلق الأوّل وخارقة للآخرين، تدليلاً على حرية وطلاقة القدرة الإلهية دون احتباس في النواميس التي قررها فـ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

حادثة واحدة لن تتكرر حيث انقطعت النبوة بعد محمد ﷺ ولكي تبقى معَلماً بارزاً أمام البشرية على حرية المشيئة الإلهية!.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾:

﴿مَرْيَمَ﴾ لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة، وعلّها لأنها غلبت شهوتها وأحصنت فرجها رغم جمالها وكثرة الراغبين إليها، وغلبت على الولد الذي هوته أمها في قداستها وإنتاجها. وارتفعت عما افتروا عليها، وعن أقرانها من نساء العالمين وقبل كل ذلك هي موهوبة الرب وقد تقبلها ﴿رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[1] تقبلها مريمَ كما تسمت بما تعنيه من معانيها!.

وفي حين تذكر مريم خمساً وثلاثين مرة في القرآن بكل تبجيل وتجليل، لا تذكر في الإنجيل إلّا خمساً بكل مهانة وتخجيل[2].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾ هنا يؤمر الرسول أن يذكر في الكتاب مريم وما هو ذلك الكتاب؟ أهو القرآن وذاكر مريم وسواها مما يذكر فيه ليس إلّا الله، فإنه كلام الله والرسول وسيط لنقله إلى العالمين!

إنه ذكرها في القرآن بالوحي، فالقرآن هو كلام الله في الأصل، وهو كلام الرسول كرسول ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[3] فـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾ ذكر بالوحي في بعدي اللفظ والمعنى كما في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) وهي ١: قصة قانا الجليل (يوحنا ٢: ٣) ٢: إذ أرادت أن تكلم ابنها وهو يعلم تلاميذه و(متى ١٢: ٤٦) ومرقس ٣: ٣١ ولوقا ٨: ١٩ ٣: عند صلبه (يوحنا ١٩: ٢٦) ٤: وفي الأيام الأولى بعد صعوده (يوحنا ١٤١: ١٤) ٥: عند ذكر أبنائها: يعقوب، يوشي، يهودا، شمعون وعدة من بناتها (متى ١٣: ٥٥ و٢٧: ٥٦ ومرقس ٦: ٣ و١٥: ٤٠ و٤٧.
أقول لم يكن لها ولد إلا المسيح حسب القرآن والحديث ويأتي توضيح موارد الإهانة بها في هذه الآيات.

(٣) سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠.

«إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس»[١] وذكري الخمسة كلها في هذه السورة!..

أو أنه ذكرها في نفسه ﷺ مما أوحي إليه ليلة القدر وهنا التفصيل، فالكتاب إذاً هو القرآن المحكم، أو أنه يعنيهما جملة وتفصيلاً.

وذكر مريم في سورتها وسواها ذكر لواجب قصتها التي تتبنى طهارتها وطهارة المسيح عليه السلام، لا سردها على طولها كما تقص في كتب القصص!

إن مريم هي فتاة عذراء، قديسة حوراء، تستوهبها أمها من ربها فيهبها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ...﴾[٢].

هذه الفتاة - وهي حليفة المحراب، تأخذها انتباذات وهزات تنبض لها ولابنها المسيح بآية دائبة وحياة! وهي بعدما اهتزت بالبشارة الملائكية من قبلها.

نبذة أولى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا...﴾. ثم هزة ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

وهزة ثانية: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ...﴾.

وهزة ثالثة: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ وهنا نبذة ثانية ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾.

وهزة رابعة: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ وهنا بشارة تخفف عنها هزاتها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

ثم هزة خامسة: هي الأخيرة ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾

(١) وهم على الترتيب في ١٩: ١٦ - ٤١ - ٥١ - ٥٤ - ٥٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

ولكنها تسكن إلى رياحة ورحمة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ...﴾ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾!.

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ والنبذ هو الطرح المضمَّن معنى الرفض امتهاناً أحياناً: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾[(١)] ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾[(٢)] وامتحاناً أخرى ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[(٣)] فمنه مذموم ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[(٤)] ومنه غير مذموم وإن تراءى أنه مذموم، كالتكاليف النسائية الواجبة من غسل وأمثاله.

وانتباذ مريم وانطراحها مكاناً شرقياً قبل تمثل الروح لها بشراً سوياً وقبل حملها، علّه لحالة خاصة بالفتاة تستحي فيها من أهلها كالغسل عن حيضها، حيث يقتضي الاحتجاب عنهم مكاناً شرقياً تشرق عليها الشمس تخفيفاً عن برودة الماء.

ولأنها كانت دائبة المقام في محرابها كما نذرت لذلك فلم تكن عند أهلها إلا أيام عذرها. فانتباذها إذاً من أهلها مكاناً شرقياً واتخاذها من دونهم حجاباً، ليس انعزالاً في عبادتها وإنما فيما يُستحى منه وإلّا فلماذا الانتباذ والحجاب والمكان الشرقي؟!.

فها هي ذي في شأنها الخاص حيث توارت حتى عن أهلها وهي عارية عن ملابسها تفاجأ مفاجأة عنيفة تهز أركانها وتفز مذعورة منتفضة لأول مرة في حياتها:

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤٥.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ٤٩.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾:

ها هي محتجبة عن أهلها وحتى عن أمها، مشغولة بشأنها في غسلها.

مطمئنة إلى انفرادها وهي عريانة بكامل جسدها، فإذا بشر سوي أمامها يفجؤها في خلوتها وعراها رغم حجابها! فتداخلها رهبة تفجئها رغم أهبتها بما بشرت في الأولى، إذ ترى أمامها بشراً سوياً وليس هنالك سوي ولا غير سوي ليكون هو منهم، فإنها ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فما لها وبشراً أمامها، إلا اختلاساً عليها إذ يحضر عندها وهي عارية في شأنها الخاص دون أهبة ولا استئذان. وكأنه من أقرب المحارم، بل هو زوج لا يكاد يستأذن زوجه!

وترى من هو ﴿رُوحَنَا﴾ المتمثل ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؟ ولماذا لم يظهر بصورته الأصلية حفاظاً على اطمئنانها؟ هنا ﴿رُوحَنَا﴾ واهبٌ لمريم غلاماً زكياً بإذن الله نفخاً فيها في فرجها، وفي أخرى المنفوح في فرجها هو «من روحنا»: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1] وهي تفسر ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[2] أن النفخ من روحنا فيها لم يكن إلّا في فرجها[3] وإضافة «نا» الإلهية فيهما لا تعني إلا تشريفاً للنافخ والمنفوخ أنهما من الأرواح المشرفة التي خلقها، كما في آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[4] ثم في بنيه: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[5] وهذه الأرواح الأربعة: ﴿رُوحَنَا﴾ - «من روحنا» «من روحي»

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.
(٣) راجع ج ٢٨ من الفرقان تجد كيف النفخ والحمل؟.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٥) سورة السجدة، الآيات: ٧-٩.

«من روحه» كلها من أمر الله لا من ذاته ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾(١) فإنها تفسر الأرواح كلها أنها من أمر الله، وليس أمر الله ذاته أو من ذاته، وإنما هو فعله المختلف عن ذاته بكل بينونة ذاتية وصفاتية، مهما كان مفضلاً على سائر الأرواح أمّاذا؟.

«وروحنا» المرسل لذلك النفخ ليس إلا الروح الأمين النازل بالوحي ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾(٢) والنازل بروح النبوة على رجالات الوحي: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ...﴾(٣) فهو النازل بروح المسيح وجسمه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٤) مهما كان النافخ في الحق هو الله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾(٥).

ومهما كانت هذه الأرواح المضافة إلى الله مفضلة على سائر الأرواح جملة، ففيها التفاضل بينها كما بينها وبين سائرها، فـ ﴿رُّوحَنَا﴾ يمتاز عن «روحي» كما «روحي» يمتاز عن «روحه» حضوراً لجمعيته الصفات في أوّلها، وحضوراً دونها في ثانيها، وغياباً مفرداً في ثالثها، كما وأن روح المسيح عليه السلام مفضَّل على روح آدم، وهو مفضل على بنيه كمجموعة، اللهم إلا المفضلين عليه كبعض النبيين وأكابر المعصومين!

وإنما تمثل لها بشراً، حيث التجلي بالصورة الملكية ليس إلّا أحياناً لرجالات الوحي دون الآخرين: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٦)... ومن ثم ﴿سَوِيًّا﴾ فإن غير السوي لا يناسب تمثل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٥) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩.

﴿رُوحَنَا﴾ فإنه إزراء به، ولا المتمثل لها فإنه إخافة لها ومهانة في الرسالة إليها، ثم وفي بشر سوي هزة صادقة لها تهيئة لتحمُّلِ حَمل هو حِمل لها في ظاهر حالها!.

هذه هزة أولى تأخذها، عضة على أركان طهارتها وهي الطاهرة الزكية البريئة.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾:

تحاول الهرب مستعيذة بالله إذ تظنه معتدياً أثيماً، أو فاجراً زنيماً، وهي التقية المؤمنة، العفيفة الطاهرة، وتستعيذ بالرحمن خالقها منه إن كان تقياً يتقي بأس الرحمان، فغير التقي لا يستعاذ منه حيث لا يتقي على أية حال إلا بمعجزة ينجيها الله بها منه، وهي تستعيذ بالرحمن منه إن كان تقياً، استيقاظاً لروح التقوى فيه واستجاشته لكي لا يقر بها مخافة الرحمن!

ثم لماذا العوذة بخصوص «الرحمن» العام، دون «الرحيم» الخاص، وعوذة التقى تناسب الرحيم؟

هنالك عوذة خالصة بالله من الشيطان وحزبه لا يخاطب فيها الشيطان وإنما الله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ومن ثم عوذة بالرحمن ممن يؤمن به وهي ذات بعدين، أصيل هي بالرحمن، وفرع هي بمن كان تقياً، فـ «لقد علمت مريم أن التقي ذو نهية»[١] والتقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ويرجع عن دفعة الشهوة ونزعة الشيطان وقد كانت ملامح التقى ظاهرة فالمؤمن ينظر بنور الله! فـ «الله» يستعاذ - فقط - به عند الإياس عن كل دافع عن الشيطان، و«الرحيم» يستعاذ به فيما تكون للرحمة الخاصة موقع كأن يكون المستعاذ منه ذو رحمة خاصة تدفعه عما يُخاف، وكما نعوذ

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٧ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل في الآية: . . .

بالله منه «أعوذ بك منك»! بشفاعة رحمته الخاصة، ثم الرحمن يستعاذ به ممن غلبته الشهوة وهو تقي، والشهوة الغالبة لا تعرف رحمة، وإنما التقوى من الرحمن، تذكر بتلك الرحمة الشاملة التي تنفذ في كل شيء، وأنا الطاهرة مريم شيء، وأنت البشر السوي شيء. وهنا ليس أحد يدفع إلا الرحمن فـ ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا...﴾ ولكنه يعيد طمأنينتها ويسكن روعتها إذ:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾:

أنا فوق التقي الذي يتحول عند الشهوة إلى شقي ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ينحصر كوني وكياني وتمثلي عندك برسالة ربك، رسالة تربوية معصومة من ربك الذي ربّاك حتى الآن ويربيك ما دمت حياً، أما تستقبلين رسول ربك حيث يحمل لك هبة ربانية منقطعة النظير، هو البشير النذير ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ في هذه الرسالة بإذن ربك ﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ بكل طهارة وسلام؟ وكل نضارة ووئام.

فلقد طمأنها في هذا اللقاء بأمرين: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ بعيدٌ عن الشهوة الجنسية فلا حاجة إلى عوذة! ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ من دون وقاع مهما كان حلاً فضلاً عن الحرام، وإنما أحمل هبة ربانية هي خارقة.

ولكن كيف تصدقه وقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها، وكيف تهب لي غلاماً زكياً وأنت رسول وأنا ما عرفت رجلاً، وهي الآن في هذه الهزة الثانية تسأل في صراحة تغاضياً عن احتمال الحيلة، كأنها لا هي مصدقة برسالته فتطمئن إلى هبة ربها، ولا مكذبة فتجانبه فوراً، فرغم أنها اطمأنت بالأمان من ناحيته تغشيها سحابة الحزن من أخرى، وتطوف بها موجة من الأسى، إلّا أن هول الموقف ليس ليعقد لسانها، حيث تذكر هذه البشرى قبلئذٍ على إجمالها من ملاك ربها، ولكن هول البشرى - إذ هي على أشراف تحققها دون بعل، وقد تخلف تُهم الجاهلين - إنه يبعثها لسؤالها حائرة ذعرة.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾:

هبة الغلام لها وسيلة تكوينية من نكاح أم سفاح ولا أعرف ثالثة، فـ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي زمن وأيان؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بسفاح؟

وترى ألم تكن هناك في خلدها وسيلة مستقبلة لهذه الهبة الربانية بهذه البشارة؟ كلا! حيث ﴿لِأَهَبَ﴾ تقاطع كل وسيلة مستقبلة، وتصرف مثلث زمن الهبة إلى الحال، وبواسطة رسول الرب! فلا وسيلة لأصل الهبة حيث تتحقق الآن إلا ماضية من نكاح أو سفاح وهي منتفية، فلا تعرف هي من ﴿لِأَهَبَ﴾. تغاضياً عن مقاربته - معنًى إلا البشارة بغلام زكي انعقد قبل البشارة وهي نافية لكل انعقاد ماضٍ! ولمّا يخلد بخلدها أنها بشارة بخارقة ربانية دون أي لقاح من نكاح أم سفاح! اللهم إلا ما بشرته الملائكة بإجمال... فيأتي الجواب الحاسم هنا كما أتاها من ذي قبل:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ أمرك في هذه الولادة العجيبة ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الذي قلت عن رسالة ربك ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أن تلدي دون زوج، ولماذا؟ لحِكَم شتى... ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ برهاناً ساطعاً قاطعاً على القدرة الخارقة الإلهية، وعلى صدق الرسالة العيسوية، لهؤلاء الذين لا تكفيهم آيات مضت في الرسالة الموسوية ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ عليك خاصة وعلى الناس عامة، فهو إذاً آية ورحمة، مهما كان عليك حِملاً وزحمة، فإنه من الألطاف الخفية الإلهية على صعوباته ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ لا يتحول بإباء ولا دعاء! فأستعدّي لهذه الآية الرحمة مهما بلغت بك الصعوبة!

هنالك ينتهي الحوار بينهما حيث استسلمت لحكم ربها في هذه الهبة

الزكية، ونرى في آل عمران حواراً بينهما وبين الله والملائكة، فما هو التلاحم بينهما؟:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[1].

تستوحش من هذا البشارة الملائكية، وحقٌّ لها إذ لا ترى لنفسها ضجيعاً، ولم تعرض بخلدها حتى الآن قصة الزواج، وهي عارفة أن البشارة محققة لمستقبل قريب لا تلائمه الولادة كالعادة: أن تتزوج وتلد من فوره!

وهل «الملائكة» هم «روحنا» جمعاً في واحد؟ وهي هنا تحاور ربها في استعجابها أن يكون لها ولد وهناك الحوار مع «روحنا»!

إنها عرض لبشارتها بالملائكة قبل أن يتمثل لها «روحنا» بشراً سوياً، تعبيداً لطريقها إلى هذه المفاجآت والهزّات، فأصبحت على خبرة إجمالية عن هذه الكلمة البشرى، سائلة ربها ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ...﴾ فطويت الحوار هنا طياً وهي بانتظار كيف تتحقق البشرى، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ لا للبشرى إذ تقدمت بالملائكة وإنما لتحقيق البشرى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ولكنها ذعرت إذ فوجئت بما لم تحسب له حساباً أن البشارة تتحقق ببشر سوي، فحق لها أن تحتار مترددة هل إنه الذي يحقق البشرى، وما طمأنت له حتى ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ...﴾ بما سبقت لك فيه البشرى، فاطمأنت لحدٍّ مّا، ولكنها بعد متحيرة ولكي تطمئن ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ...﴾ فلما سمعت نفس الصيغة الماضية من الملائكة في بشراها

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ...﴾ انتهى الحوار وأصبحت كأنها في قرار! مستسلمة لتحقيق البشرى:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾:

فقد حملت الغلام الزكي الموهوب بنفخ رباني وإلقاء: نفخُ «روحنا» وإلقاء «كلمته». هنا ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وفي أخرى ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1] وفي ثالثة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[2] فالحامل للغلام الزكي الموهوب هو «روحنا» والمحمول هنا هو الغلام، ثم المنفوخ هو «من روحنا» والملقى ﴿وَكَلِمَتُهُۥ... وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ والحاملة هي مريم، وهل هنا فرق بين الغلام الزكي وروح منه ومن روحنا وكلمته الملقاة إلى مريم؟ تعبيرات أربع في سائر القرآن عن تكوين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولأن ضمير الغائب في «حملته» راجع إلى ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فليكن هو المحمول بروحه وجسمه، وعلّ جسمه هو الكلمة الملقاة وروحه هو المنفوخ، فتحققت إذاً ازدواجية ذلك الحمل المبارك، وفي قرن «كلمته» بـ «روح منه» تلميح بذلك القرن في حملها، وكِلَا النفخ والإلقاء من فعل الله وليس «روحنا» إلا وسيطاً في تحميل هذه الهبة الربانية وعلّها دون نفخ منه ولا إلقاء!

فلقد كان حملاً بإلقاء الكلمة في الفرج وهي النطفة الرجولية التي تشكل جسم المسيح، إلقاءً بدفع في قعر الرحم لتتزاوج نطفة الأنثى لتكوُّن الجنين، وينفخ الروح تباعاً في الجسم الكلمة ومن ثم الولادة!

وترى أن مكوث الحمل كأصله كان خارقاً للعادة؟ كأنه هو حيث «فحملته» تطوى زمن حلول الروح في الجسم طياً كأنهما مقارفتان أم

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

مقارنتان بأن البويضة في هذه الخارقة ما سارت بعد النفخة سيرها كسيرتها العادية، بل اختصرت مراحلها اختصاراً، وأعقبهما تكوُّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة![١].

ثم ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ دلالة ثانية على هذا الطي، حيث الفاء لتفريع القريب، فالانتباذ كان تلو الحمل، ولا داعي إلى الانتباذ فور الحمل إلّا طياً لدور الحمل، فقد اقتلعت عن مكان الحمل إلى مكان قصي لوضع الحمل.

ترى أكان الحمل كاملاً من ساعته أم تسع ساعات أم أية سويعات، أو ستة أشهر[٢]؟ لا ندري إلا ما تلمح لنا آية الحمل الانتباذ المخاض، قدر ما يحتاجه انتباذها إلى مكان قصي!

وكيف انتبذت مكاناً قصياً وأين ذلك المكان؟ لا ندري! وقد يكون انتباذها بنبذة إلهية خارقة ولا سيما أن المنتبذ إليه مكان قصي، أو أنها لشدة هزتها بهذه الوشيكة المواجهة بها أهلها بالفضيحة، لذلك انتبذت مكاناً قصياً بعيداً عنهم خلواً عمن يعرفها! وهذه الانتباذة تناسب بيت اللحم المعروف أنه مولد المسيح عليه السلام وتلك الخارقة تناسب الفرات كما وردت بها

---

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر عليه السلام.. فكمل الولد في الرحم من ساعته.. فخرجت من المستحم وهي حامل فحج مثقل فنظرت إليها خالتها فأنكرتها ومضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها ومن زكريا...

(٢) هنا روايات ثلاث في مدة حملها من ساعة كما رواه في المجمع عن الباقر عليه السلام أنه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل في أرحام النساء تسعة أشهر، ومن تسع ساعات يرويها عن أبي عبد الله عليه السلام ومن ستة أشهر رواها في العلل والكافي عن أبي عبد الله ولفظها «ولم يولد - ولم يعش - لستة أشهر إلا عيسى ابن مريم والحسين بن علي عليه السلام ورواية رابعة في الكافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديثه مع نصراني...

وأما اليوم الذي حملت فيه مريم فهو يوم الجمعة للزوال... وأما اليوم الذي ولدت فيه مريم فهو يوم الثلاثاء لأربع ساعات ونصف من النهار...

روايات(١)! ومما يلمح بأقصر الحمل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) ومطلق المماثلة يقتضي الولادة فور الحمل أو بفصل قريب، و﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تؤيده ألا تدرج في هذا الحل كما لم يكن في خلق آدم!

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾:

فاجأها المخاض فأجاءها - أن جاء بها - إلى جذع النخلة لتجعله لبأسها سناداً ولظهرها عماداً. فإنها وحيدة تعاني حيرة العذراء في أوّل مخاض، دون أن تعرف منه شيئاً أو يعينها أحد في شيء فلجأت إلى جذع النخلة كقابلة تسندها.

معاناة المخاض من ناحية وغربتها من أخرى وهزتها من ولادة دون بعل من ثالثة تسقطها في يديها وتحيرها في أمرها وتشد حزنها وتغلي مرجل غيظها فتقول متأوهة حائرة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾!

ترى وكيف قالت قولتها هذه وهي عارفة بأن هذه الولادة هي من الله آية للناس ورحمة للعالمين؟ علّها لكربتها وغربتها وشدة وطأتها نسيت الآية

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٢٦ ح ٢٩ عن أصول الكافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديثه لنصراني. . . والنهر الذي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه؟ قال: لا قال: هو الفرات وعليه شجر النخل والكرم وليس يساوي بالفرات شيء للكروم والنخل. . .
وفي تهذيب الأحكام عن علي بن الحسين في الآية قال: خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء فوضعت في موضع قبر الحسين عليه السلام ثم رجعت من ليلتها وح م د في روضة الكافي عن سليمان بن داود المنقري عن حفص قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يتخلل بساتين الكوفة فانتهى إلى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند إلى النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

الرحمة، و«لأنها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة ينزهها عن السوء»[١] مهما دافع عنها أهلها!

﴿مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ قد يعني قبل حملها، أو يعني قبل وضعها أم يعنيهما حتى لا تقع في هذا المأزق المزلق، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما يحق أن ينسى لدناءته كخرقة حيض أو علقته، ثم ﴿مَّنسِيًّا﴾ يعني نسياناً على نسيان! ألا يتذاكروني في شيء وأنا منذ الآن عُلقة الألسن تتداولني في نقاض ونقاش!

أترى لماذا ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ دون ﴿ٱلنَّخْلَةِ﴾؟ علّه للإشارة إلى يبوستها أن بقي لها جذع خشبة تلتجئ به! حيث الجذع هو القطع فهو إذاً مقطوع النخل منفصلاً عنه أم قطعاً عن حياته وما أنسبه لجوء العذراء التي ليست لتلد دون بعل إلى جذع النخلة اليابسة عن وليد الثمر، وليتشابها حين أثمر!

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾:

لقد ولد المسيح عليه السلام هكذا إلى جذع النخلة وفي حديث أنه كان يوم العاشور[٢] أم ماذا[٣] ما ندري إلّا أنه ولد فيا لله! طفل هو حمل لفترة قصيرة ووليد اللحظة، ينادي أمه من تحتها، يطمئنها في حالها الغريبة المضطربة، ونفس ندائه يطمئنها دون أن تحمل هذه البشارات: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لكربتك على غربتك، لوحدتك حين وهدتك ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ من الرِّفعة، وهو المسيح الرفيع، أو من السري: السريان: نهراً سرياً خلق الساعة[٤]، ووليداً

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٢٠ ح ٤٦ مجمع البيان في الآية إنما تمنت عليها السلام الموت استحياء من الناس أن يظنوا بها سوءً عن السدي وروي عن الصادق عليه السلام: أنها...

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٢ في تهذيب الأحكام عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال وقد ذكر يوم عاشوراء - وهذا اليوم الذي ولد فيه عيسى ابن مريم عليه السلام...

(٣) المصدر في من لا يحضره الفقيه عن الرضا عليه السلام قال: ليلة خمس وعشرون من ذي القعدة ولد فيها إبراهيم عليه السلام وولد فيها عيسى ابن مريم عليه السلام.

(٤) الدر المنثور ٤: ٢٦٨ وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر سمعت رسول=

سرياً يسري صيته ويجري صوته في مشارق الأرض ومغاربها، ناداها المسيح فإنه محور الكلام وحاصل المخاض فهو من تحتها، دون جبريل أم ملك سواه إذ ليس تحتها[١] وسريّها هو نهرها الساري تحتها ووليدها الخارج من تحتها فإنه سرو رفيع وسار منيع، ويا للسريين هذين من رفعة ومناعة فإنهما صنيعا ربهما كما وصنع لها رطباً جنياً، مثلثاً من خارق العادة رأس زاويته سري المسيح.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾

فلأنها اهتزت لما ولدت دون بعل، فلتهز جذع النخلة اليابسة فتهتز بالحياة دون سبب ظاهر فتحمل وتساقط عليها رطباً جنياً دون لقاح باهر ودون مكوث لفترة الإيراق والإثمار والإيناع ونحسبها علها اندهشت في حظوة وبهتت على أهبة كيف تمتد يدها إلى جذع النخلة اليابسة لتساقط عليها رطباً جنياً فإذا بالنخلة المورقة المثمرة المونعة تساقط عليها ودقاً من رطب جني طري!.

ويا لها من طاهرة عذراء تحمل دون بعل، فاجأها المخاض إلى جذع نخلة يابسة بتراء[٢] فإذا هي تثمر دون وقتها - ولا لقاح - وبعد موتها، كما

= الله ﷺ يقول: إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤] نهر أخرجه الله لها لتشرب منه وأخرج مثله الطبراني في الصغير وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ وقد روي في المجمع عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: ضرب جبرائيل برجله فظهر ماء عذب يجري.

(١) المسيح هو آخر المراجع الصالحة لضمير الغائب في ناداها إضافة إلى ما ذكر في المتن وأنها ما كانت تطمئن إلى هذه المقالة في حالتها المزرية إلا مقالة المشاهد وهو المسيح.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٣١ ح ٥٥ عن كتاب المناقب عبد الله بن كثير قال: نزل أبو جعفر عليه السلام بوادٍ فضرب خباءه فيه ثم خرج يمشي حتى انتهى إلى نخلة يابسة فحمد الله عندها ثم تكلم بكلام لم أسمع بمثله ثم قال: أيتها النخلة أطعمينا ما جعل الله فيك فتساقطت رطباً أحمر وأصفر =

أن العذراء تلد فور وهبة ربها دون وقتها ولا لقاح، ويجري في لحظتها ينبوع، طعام وشراب محضران بخارقة الرب كما هي وابنها آية للعالمين:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾:

كلي من رطب جني واشربي من السري، وما أحسنه وأسلمه أُكُلاً للنفساء رطب جني فـ «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام وليس من الشجر شجرة تلقح غيرها - أطعموا نساءكم الرطب فإن لم يكن رطب فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران»[١] «ولو علم الله طعاماً هو خير لها من التمر لأطعمها إياه»[٢].

= فأكل ومعه أبو أمية الأنصاري فقال: يا أبا أمية هذه الآية فينا كالآية في مريم أن هزت إليها النخلة فتساقطت رطباً جنياً.

أقول وفي بصائر الدرجات روي مثله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أيتها النخلة السامعة الطيبة المطيعة لربها أطعمينا مما جعل الله فيك فتساقط علينا رطباً مختلفاً ألوانه فأكلنا حتى تضلعنا فقال عليه السلام: إليكم سنَّة كسنَّة مريم عليها السلام.

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض عمره ومعه رجل من ولد الزبير كان يقول بإمامته قال: فنزلوا في منزل من تلك المنازل تحت نخل يابس قد يبس من العطش قال: ففرش للحسن تحت نخلة وللزبيري بحذاه تحت نخلة أخرى قال: فقال الزبيري ورفع رأسه: لو كان في هذا النخل رطب لأكلنا منه فقال الحسن عليه السلام وأنك لتشتهي الرطب؟ قال: نعم فرفع الحسن عليه السلام يده إلى السماء ودعا بكلام لم يفهمه الزبيري فاخضرت النخلة ثم صارت إلى حالها فأورقت وحملت رطباً قال: فقال الجمال الذي اكتروا منه: سحر والله! فقال الحسن عليه السلام: ويلك ليس بسحر ولكن دعوة ابن نبي مجابة! قال: فصعدوا إلى النخلة حتى تصرموا ما كان فيها فأكفاهم.

(١) الدر المنثور ٤: ٢٦٩ - أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب النبوي والعقيلي وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... وفيه أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مماذا خلقت النخلة؟ قال: خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم عليه السلام.

(٢) أخرج ابن عساكر عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أطعموا نساءكم في نفاسهن=

هنا اطمأنت نفسها وعاد إليها ما عزب من لبها واستجمعت قوتها، ومع الدستور الصارم تخفيفاً لوضعها العارم: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ...﴾ لا تكلمي بشراً يواجهك إلا قولة الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ للصمت لا عن الأكل والشرب ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ واليوم فقط ﴿إِنسِيّٗا﴾ مهما أكلم ربي وغير الإنس من ملك أمن ذا، ولأن الإنسي هو الذي يعارضني في ولدي دون بعل، والله بملائكته يؤنسني غير مليم!

هذا طرف من قصة الولادة المباركة العجيبة للمسيح ابن مريم عليه السلام وهنالك هرطقات إنجيلية تعارضها، مما يجعل الجمعية الرسولية الأمريكية تعترض على جوانب من هذه القصة حسب القرآن قائلة:[1] «إن القرآن مشتبه في قصة مريم إذ ينسب إليها قصة هاجر أم إسماعيل، فإنها هي التي كانت في البرية وهزت إليها بجذع النخلة ومريم كانت في بيت لحم اليهودية والمسيح لم يتكلم في المهد وهذه كلها مأخوذة من خرافات المسيحيين دون سناد عن كتابات الوحي»[2].

= التمر فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولداً حليماً فإنه كان طعام مريم حيث ولدت عيسى ولو علم الله..

وفي نور الثقلين ٣: ٣٣٠ ح ٥٠ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به أفضل من الرطب قال الله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا...﴾ [مريَم: ٢٥].

أقول: قول المسيح حينذاك وحياً هو من قول الله وفي (٥١) عن الكافي عنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكن أوّل ما تأكل النفساء الرطب فإن الله عز وجل ... قيل: يا رسول الله فإن لم يكن إبان الرطب؟ قال: سبع تمرات من تمر المدينة فإن لم يكن فسبع تمرات من تمر أمصاركم فإن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا تأكل النفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاماً إلا كان حليماً وإن كانت جارية كانت حليمة.

(١) راجع كتابنا «عقائدنا» ص ٥٠٠ - ٥٠٣ وما قبلها وبعدها ففيها تفصيل مقارن للقصة بين القرآن والإنجيل.

(٢) ج ٢ ص ٩٢ - ٩٣ من الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية نقلاً بالمعنى.

وعجب من هؤلاء كيف يخطئون في قصة هاجر وهي في برية لا ماء فيها ولا كلاء ولا نخلة أمّاذا؟ ثم أنى لهم أن المكان القصي الذي انتبذته مريم كانت برية قفراً فلا شجرة فيها ولا نخلة، فهل القصي في قاموسهم هو القصي عن الماء والكلاء؟ وليس إلا البعيد القاصي عن أهلها وعن ملاء الناس لكيلا يرونها تضع حملها فلا يسارعونها في الاتهام، وليست النخلة إلا في المعمورة، فقصيهم - إذاً - قصي عما يرام!

فهل أن القصي الطري المعمور بالنخلة ورطبها الجني أحرى بهذه الولادة المباركة للعذراء الطاهرة أم الآخور معلف الحيوان كما ينقله الإنجيل؟

فإن زعمت الجمعية الرسولية أن مكانها القصي خلو من النخل فإنجيل يوحنا يصرح: «إن الكثيرين في أورشليم أخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاء المسيح» (١٣ : ١٢ - ١٣) وبيت اللحم من ضواحي أورشليم(١).

وحين لا تسمح هذه الجمعية لمريم الطاهرة كرامة الرطب الجني تدنس ساحتها وتصدق الخرافة الهاتكة الإنجيلية «إنها جاعت فانفتحت السماء ونزل عليها إناء فيه كل دواب الأرض والزحافات والطيور وقيل لها: إذ بحي وكلي فقالت: يا رب! إني لم آكل قط شيئاً نجساً؟ فقيل لها: ما طهره الله فلا تدنيسه» (يوحنا: ١١٠ - ١٦) فهل إن الله ينزل على مريم شيئاً نجساً ويأمرها بأكله أن طهَّره أمره، أم كيف تعارض الطاهرة المتعبدة أمر ربها، أتريد إبطال حكم إلهي تعبيداً لطريقة المسيح الذي يفتدي البشرية عن لعنة الناموس إبطالاً لشريعة التوراة؟

(١) سبق أن من المحتمل في المكان القصي بعد بيت لحم هو الكوفة وكلاهما من منابت النخل كما في روضة الكافي بإسناده إلى حفص قال: رأيت أبا عبد الله يتخلل بساتين الكوفة فانتهى إلى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند إلى النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص! إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وحين تحيل الجمعية الرسولية اخضرار النخلة وإثمرارها من ساعتها بأمر الله، فلتحل مثل ذلك في عصا موسى حيث «وضعها في خيمة الشهادة وفي الغد وجدها قد أفرخت فروخاً، وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً» (عد ١٧: ٧ - ١١ وعب ٩: ٤)!

﴿... فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ رؤية حتمية لبشر ﴿تَرَيِنَّ﴾ إذا حصلت «إمّا» - «أحداً» جنس البشر واحداً أو أكثر ﴿فَقُولِيٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ...﴾ وكيف تقول مقالتها وهي حسبها صائمة عن أية قولة لبشر؟ -.

هنا تقول الجمعية الرسولية: (٢: ٥٢) إله القرآن يأمر مريمه تقول كذباً: إنها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلم اليوم إنسياً، وهي لم تكن صائمة بدليل أمره إياها أن تهز إليها بجذع النخلة... ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا...﴾. ثم أمره إياها أن تقول إنها صائمة لا تتكلم متناقض حيث أمرت أن تقول: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا...﴾.

وعجب من هؤلاء الأغفال كيف جمعوا بين صوم الصمت والطعام، و﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ...﴾ دليل أنه صوم الصمت! ثم «قولي» لا يختص بقول الكلام، حيث الإشارة المفهمة قول كما الكلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم يقل «قالت» وحتى لو قالت فـ ﴿إِنِّى نَذَرْتُ...﴾ لا يحدد بداية الصوم ولعلها بعد هذه القولة إن كانت لفظة ولم تكن.!.

ويا لها من كرامة للعذراء تعتذر بعذر شرعي شرعه لها ربها حتى لا تواجه بشراً بشرط كلمة قبل أن يذاد عنها بخارقة إلهية ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، وعلّه فقط صوم الصمت[1] أم صوم يعم الصمت ولم يكن أكلها وشربها إلا قبل أن تواجه بشراً فلم يشمله صومها إن عمّ الطعام كما الكلام،

---

(١) المصدر ح ٦٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب أبي جعفر الباقر عليه السلام وسأل طاوس اليماني أبا جعفر عليه السلام عن صوم لا يحجز عن أكل وشرب؟ فقال: الصوم من قوله تعالى: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

ولكنه الصمت فقط حيث النفاس من حالات منعة سائر الصيام، وتفريعها على صومها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾!

وصوم الصمت شرعة توراتية انقطعت بالشرعة القرآنية، فآيات الصوم تمنع فيما تمنع عن ما سوى الصمت، اللهم إلّا صمتاً عن الكذب على الله ورسوله حيث يبطل الصوم، أم مطلق الكذب حيث ينتقصه، وكما ثبت بالسنة الثابتة[1] وأما الصمت المطلق فلا صوم فيه إسلامياً!

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ - إن مكانها القصي لم يكن بذلك البعيد كالكوفة ﴿فَأَتَتْ... تَحْمِلُهُۥ﴾ دون أن تتركه مخافة العار حيث اطمأنت أنه عطية ربانية فهو ذائد عنها ما يمس كرامتها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: موضعاً لفرية بالغة المدى أم عظيماً بديعاً ف ﴿لَقَدْ﴾ تأكيد أن و﴿فَرِيًّا﴾ كمبالغة الفرية تشكل عليها ثالوث الفرية ومن ثم التأنيب كأنها ثابتة لا حِوَل عنها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ...﴾!

وهنالك مندوحة للعذراء الوالدة - مع الغض عن احتمال معجزة إلهية -: علّها اجتذبت نطفة الرجولة دون لقاح إن جلست مكاناً فيه النطفة، وحالة المؤمن وفعله محمولة على الصحة، أفلم يلمس قومها إيمانها وهي عائشة المحراب، صالحة الذهاب والإياب، فالحة في حراب الشهوات؟!.

ثم ولماذا ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وهو أخو موسى وبينهما قرون خلت؟ كما

(١) نور الثقلين ٣: ٣٣٢ ح ٥٨ في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده ثم قال: قالت مريم: إني نذرت للرحمن صوماً - أي صوماً صمتاً - صمتاً - فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا.

اعترضته الجمعية الرسولية الامريكية (٣: ٣١): «خلط هارون أخا موسى بأخي مريم!» وكأنهم يخصون اسم هارون بأخي موسى ثم لا يحق لمن بعده أن يتسمى بهارون! «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمعون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[(١)]؟!.

ولماذا يتقدم هارون أخوها على أبيها ومن ثم أمها؟ علّه لأن هارون كان أقدس أنسبائها وأشهر في قدسيته من أبيها لحد يتعالى حتى عن أن ينفى عنه السوء، ثم أبوها ما كان أمرأ سوء، ثم أمها ما كانت بغياً!

ومثلث النسبة هذه والرعاية العالية الطاهرة في ظله يجعل من البنت طاهرة بعيدة عن هذه الفعلة العاهرة، فيا للمفارقة بين هذه النسبة المباركة وتلك المقارفة النكدة الدنيئة التي لا تأتيها إلا بنات بغايا والآباء السوء!.

والقول إن هارون هذا لم يكن أخاها وإنما مثيلها في التقوى مشهوراً بها، غير فصيح ولا صحيح، حيث الحقيقة لا تُصرَف إلى مجاز إلا بقرينة، وأنهم كانوا في تقريعها وتأنيبها سابق الجملة: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ولا حقها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ...﴾ والأخوة المثيلة بهارون، لها مدحة بالغة![(٢)].

أشارت إليه إشارة قائلة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ واسألوه فإنه المجيب

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٠ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريَم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ألا أخبرتهم..

(٢) مجمع البيان: يا أخت هارون فيه أقوال: أحدها أن هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ أقول: وهذا المرفوع إليه مرفوع عنه في المعنى لما قلنا ومضى عنه ﷺ . والراوي عنه في هذين المتعارضين واحد وفصاحة القرآن تنافي الثانية.

عما تسألون! أم قالت لهم نذرها قبل بدايته وقبل أن يكلموها، ثم أشارت إليه إجابة عما افتروا عليها، هنا يبهرهم العجاب على الغيظ الذي ساورهم، كيف تتبجح فتسخر من متسائليها، صامتة مشيرة إلى ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قالوا جواباً عن إشارتها الهازئة الفالتة في حسبانهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟!.

وترى ما هي مكانة ﴿كَانَ﴾ هنا وكل أحدٍ كان في المهد صبياً مهما كان الآن أيضاً صبياً أم شاباً أو شائباً هرماً؟

علّ ﴿كَانَ﴾ هنا تامة وصبياً حال، كيف نكلم طفل المهد حال صباه وليس يأهل لكلام أو حوار ما كان في المهد، إذاً فـ ﴿كَانَ﴾ تركز صباه أنه بعدُ طفل المهد ولما يخرج منه حتى يؤهل لكلام، و﴿كَانَ﴾ هذا كأضرابها في سائر القرآن تدليلاً على تمكّن مدلولها في حال أم ماذا[1].

والقول إن ﴿كَانَ﴾ هنا زائد زائد من القول إذ لا يليق بفصيح الكلام كسائر القول هنا إلا ما نبهنا عليه والله أعلم بما ﴿كَانَ﴾!.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

تنزيهات سبع تخصه، تغلق عليه السبع أبواب جحيم الافتراءات الموجهة إليه، المفتحة عليه، وثامنة هي تقديسة تامة هامة تكرس حياته الطاهرة وحياة أمه الزاهرة العذراء: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾!

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] إن البشرية والرسالة تمكنتا في فلا أملك ما يملكه ربي - وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] حيث النصرة لزام الولي المقتول.. وكذلك ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] حيث الصبا بعدُ لزامه ولما يخرج من صباه!.

والحق أقول إنه بيان صارم على اختصاره يجرف عنها كل هرطقة عارمة تهرف أو كلمة تحرف في كتابات مزورة!.

١ - ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ...﴾؟

إن كلامه وهو في المهد صبي رضيع، وبهذه البداية المباركة يذود عنه تفريط المفرّطين: إنه ولد زنى. وإفراط المفرطين إنه الله أو ابن الله، فكيف ينطق ولد زنى بخارقة إلهية اللهم إلّا من اصطفاه الله، وكيف يعترف الله أو ابن الله أم اقنوم الألوهية أنه عبد الله؟!.

ففي حين أنه لم يصرح هنا بالطهارة عن الزنى استلزم كلامه في بعدية أنه الطاهر المصطفى آية لله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[1] وهنا يتهدم صرح كل مفْرط ومفرِّط بحق المسيح وأمه عليهما السلام، حيث الأقاويل فيهما ولا سيما فيه متشابكة متشاكسة لا يكاد تخمد نيرانها إلا بصراح القول من المسيح نفسه وهو في المهد صبي!

نجد قرابة ثمانين موضعاً في الأناجيل أن المسيح يعترف بعبوديته لله وأنه ابن الإنسان[2] ورغم تحرّفها لا نجد فيها ولا تصريحة واحدة من وحي الإنجيل أنه الله إلا «الآب والابن وروح القدس» والآب باللغة اليونانية تعني الخالق، فالابن ليس إلا مخلوقاً للخالق وهو ابن الإنسان، وروح القدس هو الوسيط بين الخالق والابن. ولكنهم رغم الحفاظ على الصيغة اليونانية يفسرونها بالأب كأنها عربية مع الغض عن مدّها، تحريفاً خارفاً مجازفاً جارفاً لم يتنبه له إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق من العارفين.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٢) كما في إنجيل يوحنا ١: ٥١ و٤: ٦ و٣: ٢٦ و٢٤ و٤: ٣٤ و١٩ و٤٤ و٥: ١٩ و٢٤، و٣٠ و٤٤ و٦: ١٤ و٢٨ و٢٩ و٤٤ و٧: ١٦ و١٨ و٢٨ و٣٣ و٤٠ و٨ و٢٦ و٢٨ و١١: ٤١ و١٢: ٢٧ هو عبد الله.

وفي متى ٨: ٢٠ و٩: ٦ و١٦: ١٣ و٢٧ و١٧: ٩ و١٢ و٢٢ و١٨: ١١ و١٩: ٢٨ و٢٠: ١٨ و٢٠ - إنه ابن الإنسان.

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ حاله ومقاله وسمة أفعاله طول حياته، مهما اختلق عليه مقالات أخرى[١] فهو لا يعرف لنفسه صلاحاً بجنب ربه فكيف يجعل نفسه عدلاً لربه؟: «وإذا واحد تقدَّم وقال له: أيها المعلم الصالح.. فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (متى ١٩: ١٦ - ١٩) - (مرقس ١٠: ١٨) (لوقا ١٨: ١٩) ويندد ببطرس المتطرف، المتطرق له لقب الرب: «حاشاك يا رب! فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان! أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى ١٦: ٢٢ - ٢٣).

ويندد بمن اختاله معادلاً لربه: آبي يعمل وأنا أعمل فمن أجل هذا قالوا: إنه كسر السبت وجعل نفسه معادلا لله» (يوحنا ف ١٧)[٢].

٢ - ﴿ءَاتَـٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ...﴾:

فرية أخرى على المسيح عليه السلام أن ليس له كتاب شرعة، وإنما الحواريون ومن أتباعهم هم الكاتبون سيرته وسموها الإنجيل، لذلك لا نرى عندهم إنجيلاً ينسب إلى المسيح إلا ما تطرق له التاريخ وأصبح منسياً مع الزمن!

إن القرآن يثبت له إنجيلاً: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[٣]! وجماعة

---

(١) كالقائلة إنه ابن الله: (متى ٣: ١٧) وأول مواليده (عب ١: ٩) وابن الله المبارك (مرقس ١٤: ٦١) والقائلة إنه هو الله والكلمة: (يوحنا ١: ١) الأزلي (عب ٩: ١٤) والرب وقد كرر في الأناجيل وأنه عمانوئيل: الله معنا (متى ١: ٢٣) ويعارضها التصريحات الثمانون في الرقم (١) ومثل: يهوه - الله: يرسل أنبياء وحكماء وكتبة (متى ٢٣: ٣٤) و(لوقا ١١: ٤٩) ويهوه هو رب الشريعة فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى ويعدله (متى ٥: ٢١) ويهوه يعقد عهداً مع البشر (متى ٢٦: ٢٨ ومرقس ١٤: ٢٤ ولوقا ٢٢: ٢٠).

(٢) راجع كتابنا: عقائدنا ص ٦٥ - ١٤٥ - تجد فيه تفصيلاً واسعاً عن خرافة الإلوهية والنبوة للمسيح وتزييفها.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

من المسيحيين ينكرون هذه الحقيقة الناصعة، ك: القس و. ت. جردنر الإنجليزي[١] و: أو ميم ميلر[٢] رغم اعتراف جماعة آخرين منهم بإنجيل المسيح وكما في الإنجيل الحالي نفسه: «بعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز - يبشر - بإنجيل ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس ١: ١٥)[٣] «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز بإنجيل الملكوت» (متى ٤: ٢٣ و٩: ٣٥) ويعرف به بولس قائلاً: «أولاً أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة

---

(١) في كتابه: محاورة الوحي باعتبار التوراة والإنجيل والقرآن، صدر من الجمعية الأسقفية ببولاق مصر - طبع بمطبعة النيل المسيحية بشارع المناخ نمرة ٣٧ - يقول فيه: «في القرون التي مضت بين المسيح ومحمد ﷺ لم يعترف المسيحيون بإنجيل غير الإنجيل الحالي أي: العهد الجديد - وليس هناك أقل بينة تدل على أنه كان لدى المسيحيين كتاب آخر غير الكتاب الحالي أو الإنجيل الحقيقي أو أن الحقيقي فقد بعد زمن الهجرة.. إن الإنجيل الحالي هو إذاً الإنجيل الحقيقي، وإن زعم وجود كتاب آخر أنزل على عيسى هو وهم وخطأ، فيكفي أن نقول فقط: إن كاتبي أسفار الإنجيل ألهموا أن يدونوها بطرق مختلفة ووسائل متنوعة ولذلك يعتبر جوهر ما دونوه موحًى به».

(٢) هو العالم الشهير الإنجيلي في كتابه: التمدن القديم في باب تعاليم المسيح، يقول فيه: «إن ربنا عيسى المسيح لم تكن له شريعة كموسى، إنما قرر شريعة التوراة، إنه كلمة الله الطاهرة وكان عنده خزائن علم الله وحكمته فلم يكن من اللازم أن ينزل عليه كتاب، والمؤمنون الأولون إنما كانوا يستفيضون من كلماته النيرة، فأين لزوم كتاب ينزل عليه؟ فإن أعماله وكلماته كانت مكتوبة على صحائف قلوب الحواريين، فلم يكونوا إذاً بحاجة إلى كتاب شريعة إذ كانت تكفيهم شريعة التوراة، ولا كتاب سنّة عملية أخلاقية لأن المسيح كان ذلك الكتاب بأعماله وأقواله - ولكن المسيحيين لما لم يروا المسيح في الجسم على الأكثر، فهم بحاجة إلى كتابات تذكرهم بمعجزات المسيح وحياته لكي يغنيهم البيان عن العيان، لذلك رأى مؤلفو الأناجيل الذين كانوا يعرفون حياة المسيح بعيان وبصيرة - رأوا من المفروض عليهم تأليف هذه الأناجيل ويشرحوا فيها أحواله وأقواله ومعجزاته وهذه الكتب هي المراجع الدينية الثانوية بعد المسيح وتلاميذه».

(٣) هذه الآية تلمح كأنهم ما كانوا ليصدقوا إنجيله إذ كان عبئاً وحِملاً عليهم، حتى يفسح لهم مجال اختلاق أناجيل أخرى.

جميعكم أن إيمانكم ينادي به في كل العالم فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع اذكرهم» (روم: ١) وفي: برنابا: «ولقد قال لي صدق يا برنابا إني أعرف كل نبي وكل نبوة وكل ما أقوله إنما جاء من ذلك الكتاب»[١] «وأنتم شهداء على هذا كيف أنكر على هؤلاء الأشرار الذين بعد انصرافي عن العالم سيبطلون حق إنجيلي بعمل الشيطان، ولكنني سأعود قبل النهاية» (برنابا ٥٢: ١٤ - ١٥) «. . .مع أنني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لأطيلن في ذلك اليوم عدلاً بدون رحمة لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي» (برنابا ٥٨: ٢١ - ٢٢) وكما يشهد بولس بهذه الخيانة الفاضحة إذ يندد بهم: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر. ليس هو آخر. غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح» (اغلا: ٦ - ٧)!

وهنالك في الأناجيل اللاحقة لهذه الأصول الإنجيلية عندهم تصريحات تتجاوب معها، كـ«إنجيل السلام للمسيح» (١ ف ٦: ١٥) وإنجيل الخلاص» (١ ف ١: ١٣) وإنجيل الرب (أول تسلو ٢: ٩).

وكذلك تصريحات أخرى من علماء المسيحية ومؤلفيهم، كـ«نارتن» حيث ينقل عن «اكهارن» وتذكر دائرة المعارف الإنجليزية إنجيل

(١) حينئذٍ قال التلاميذ: حقاً إن الله تكلم على لسانك لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم؟ أجاب يسوع: صدقوني: إنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت إسرائيل أعطاني كتاباً يشبه مرآة نقية نزلت إلى قلبي حتى أن كل ما أقول يصدر عن هذا الكتاب ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي أصعد عن العالم، أجاب بطرس: يا معلم! هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ أجاب يسوع: إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو إنجيلي (برنابا ١٦٨: ١ - ٥).

المسيح عليه السلام في عداد خمسة وعشرين إنجيلاً[١] ويؤيده كتاب اكسهوموا[٢] و«اكهارن» وكثير من متأخري علماء النمسا، ومال إليه المحققون - «ليكلرك - كوب - ميكايلس - ليسنك - نيمير ومارش»[٣].

٣ - ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا...﴾:

ترى كيف تأخرت النبوة عن إتيان الكتاب الذي يضم النبوءة والرسالة كلتيهما؟ لأن النبوّة للرسول هي الرفعة في رسالته. فهناك نبوءة ثم رسالة ثم نبوّة، فمن نبيٍّ ليس برسول ومن رسول ليس بنبيٍّ، وكما تتأخر النبوة الجامعة مع الرسالة عنها في سائر القرآن، تدليلاً على أنها أخص من الرسالة: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[٤] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[٥] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[٦] ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾[٧] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾[٨] فهذه النبوة السامية كسائر النبوات متدرجة من العبودية ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إلى نبوءة وحي ثم رسالة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ ثم نبوّة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فبين النبوءة والنبوة متوسط الرسالة، وكل من هذه الرحلات درجات حسب درجات النبوات.

---

(١) في المطبوعة ١٣ ص ١٧٩ - ١٨٠ تحت عنوان: أبو كريفل لتريجر: خرافات الأدبيات.

(٢) ألفه حكيم بروتستاني يذكره في الباب ٥ من كتابه المطبوع ١٨١٣ م في لندن.

(٣) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية» ص ٩ - ٦٠ تجد فيه تفاصيل الأناجيل.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٨) سورة الحج، الآية: ٥٢.

ثم ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تحصر كيانه ككل في النبوة رفضاً لما سواها من ألوهية أو بنوة حقيقية أو تشريفية أمّاهيه مما يهرفه الخارفون حول السيد المسيح عليه السلام من وراثة الألوهية أو النبوة!

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ بركة شاملة تكرس كيانه ككل، تسلب عن ساحته كل المثالب والمآلب التي اختلقته أيدي الدس والتجديف، ف ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة حيث تنقل من كلٍ إلى أخرى وإلى أمه الطاهرة العذراء، ما يطهر ساحته في ماضيه وبأحرى حاله ومستقبله كما يشملها مثلث السلام، فلم تكن في هذا البين مقاربة محرمة على أية حال، ولا مفارقة لها في كل حلٍّ وترحال ومن مستقبله المجيد.

إنه لم يخلد بخلد مريم الطاهرة إلا رجاء الذود عن ساحة هذه الولادة، فإذا هي تجد وليدها: «جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت»[(١)] ومعلماً ومؤدباً[(٢)].

في بركة كاملة كافلة لكافة الأصلاب والأرحام التي تنقلا بينها.

وذلك تعريض عريض على كل التقولات الكتابية في عهدي القديم والجديد، مما تدنّس هذه الساحة المباركة بمن قبلها من ساحات النبوات وسواها من أصلاب وأرحام!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٠ - أخرج الإسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وابن مردويه وابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريَم: ٣١] قال: جعلني.. وروي مثله في معاني الأخبار بإسناده إلى عبد الله بن جبلة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نفاعاً، وهذا تفسير بالمصداق الجلي.

(٢) المصدر أخرج ابن عدي وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية...

صحة الأناجيل خطر على قدسية المسيح عليه السلام:

العهدان يتناصران في تبعيد المسيح عليه السلام عن حزب الله ولا يسمحان له الدخول في جمعية الرب إذ يفتريان عليه أنه من جدود أربعة هم من أولاد زنا - وعوذاً بالله!

موآب - فارص - بن عمي - سليمان:

هؤلاء الأربعة من أجداد المسيح حسب الإنجيل، تجد كلهم من أولاد الزنا حسب الكتابات المقدسة!:

«موآب»: «عوبيد جد داود النبي أمه روث» (متى ١: ٥ - ٦) وهي من نسل موآب، والمسيح من نسل داود من سليمان (متى ١: ١) فموآب أحد أجداد المسيح وداود وسليمان.

«بن عمي»: رحبعام بن سليمان من أجداد المسيح (متى ١: ٧) أمه من نسل بن عمي (املوك ١٤: ٢١).

«فارص»: وهو أيضاً في سلسلة أجداد المسيح (متى ١: ١ - ٤) ونحن نجد هؤلاء الثلاثة وسليمان في التوراة من ولد الزنا! فموآب وبن عمي هما ابنا لوط حيث زنى ببنتيه سكراناً فولد من الكبرى موآب، ومن الصغرى بن عمي، وهما يرأسان سلسلتي موآب وبن عمي (تكوين ١٩: ٣٠: ٣٨) -.

وفارص أو برص ولد من زنا من «تامار» حليلة ابن يهودا حيث زنى بها فولدت فارص وزارح توأمين (تكوين ٣٨: ٦ - ٣٠) وسليمان من ولد «بت شبع» امرأة أو ريّا حيث زنى بها داود النبي (متى ١: ٦) وحاشاه.

فداود وسليمان والمسيح هم أولاد زنى - وعوذاً بالله - من المحارم، نتيجة تجاوب العهدين في عرض نسبهم، ثم التوراة تأتي بتصريحات تخرج المسيح وهؤلاء من حزب الله ولا تأذن لهم الدخول في جمعية الرب!.

... «لا يدخل ابن زنّى في جماعة الرب، حتى الجليل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب. لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد... لا تلتمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد» (تثنية ٢٣: ٢ - ٣ و٦)!

إذاً فلا خير في مسيح الإنجيل ولا يدخل في جماعة الرب فضلاً عن أن يرأسهم - لا يدخل: نهياً أو إخباراً - هو وكل ولد زنّى ولا سيما الموآبين وبن عمين وهو منهما! فكيف يعتبر نبياً عظيماً من أولي العزم أو ابناً لله أم إلهاً متجسداً في الناسوت، هذا الإفك والبهت الزور في العهدين تجتثه مقالة مسيح القرآن. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ -.

٥ - ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾:

تلك هي وصية خاصة رابية على أمته، بالصلاة: أداء لها بنفسه وإقامة في أمته وكما في موسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[(١)] وإبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[(٢)] وإسماعيل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[(٣)] وهذا النبي والذين معه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[(٤)] ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[(٥)] كما وأوحي إلى المرسلين أجمع: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ...﴾[(٦)].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٥.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

وقد تدل ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ في المسيح عليه السلام إضافة إلى ما يعم المرسلين أنه ما كان إلا عبد الله، لا إلهاً أو ابنه وإلّا فلمن كان يصلي؟!

٦ - ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي...﴾:

جعلني براً بوالدتي ويا للعجاب أن يصبح البر بالوالدة من الميزات الرسالية وهو من النواميس العامة، والرسالة تتخطّى براً بوالدتي أماذا من قبيله، وتختص بالميزة القمة التي لا تشارك فيها الأمة أم أدنى من القمة كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، دون البر بالوالدة، ولا نجد في سائر القرآن، يعتبره ميزة رسالية اللهم إلا بر الرحمة الإلهية: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] وفي يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[2] ثم وآيات الإحسان بالوالدين تعم الأمم!

ولكن ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ في المسيح تعني إيجابية البر بها التي لا أثر عنها في الكتابات الإنجيلية، وكما أن:

٧ - ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾:

تعني الذود عن ساحته ما مست منه هذه الكتابات أنه كان بها جباراً شقياً!.

المسيح وأمه حسب الإنجيل:

نبدأ هنا بقصة قانا الجليل ما أسوأها لمريم وعيساها إذ تنسب إلى المسيح معجزة صناعة الخمر كأولى معجزاته التي دعت تلاميذه إلى الإيمان به، وذلك باستدعاء مريم وهو يهتكها في استدعائها رغم أنه يطبّقها: «ولما

(١) سورة الطور، الآية: ٢٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ١٤.

فرغت الخمر قالت أم يسوع: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: ما لي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد - ومن فوره يأتي ساعته قائلاً: املأ الاجران ماءً.. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً...».

هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه»!(يوحنا: ٢ - ١: ١١).. فمسيح القصة يهتك أمه في كلمة لاذعة «ما لي ولك يا امرأة» رغم إجابتها من فورها لمأمولها كمعجزة أولى!.

هذا - وفتكٌ ثانٍ بها في قصة ثانية يتهمها فيها بعدم الإيمان: «إذ كان يكلم تلاميذه فجاء حينئذٍ إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه وكان الجمع جالساً حوله فقالوا: هوذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك.

فأجابهم قائلاً: من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي (مرقس ٣: ٣١) «أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون بها» (لوقا ٨: ١٩ - ٢١) (متى ١٢: ٤٦ - ٥٠).

فيا لها من نسبة فاسقة كافرة إلى مريم وإخوته تمنعاً عن مكالمتها فرية عليها أنها تاركة للصالحات، وفي حين أنه يؤكد بالغ التوكيد باحترام الأمهات وأنه من النواميس العشرة التوراتية دون شرط الإيمان وهي الطاهرة المعصومة (متى ١٩: ١٩) (مرقس ١٠: ١٩) (لوقا ١٨: ١٠) أفنقضاً للنواميس وتناقضاً بين القول والعمل بهذه المثابة. وتذليل الأبوين يخلِّف لعنة إلهية بتأمين شعب الله: «ملعون من يستخف بأبيه أو أمه ويقول جميع الشعب آمين» (تثنية ٢٧: ١٦).

ثم هو في قصة ثالثة وهي عند صلبه! ينعزل عن بُنوَّته لها ويهبها لمن يحبه من تلاميذه: (يوحنا) لتكون له أماً: وكانت واقفات عند صليب يسوع

أمه وأخت مريم زوجه «كلوبا» و«مريم المجدلية». فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة! هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته» (يوحنا ١٩: ٢٥ - ٢٧)!.

هذا - ثم المختصر في علم اللاهوت العقائدي يحاول انجبار حالة مسيح الإنجيل الجبار العصبي»[1]!.

هذه مريم عليها السلام ومسيح الجبار العصي تجاهها حسب الإنجيل، ثم نجده وأمه حسب القرآن في أرفع مقامات العصمة والطهارة.

مريم في القرآن:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

(١) تأليف لوديغ أوث ج ٢ ص ١١٢ - ١١٨ - يقول فيه».. ومريم قد اكتسبت استحقاقات وافرة لا بكفاحها ضد الرغبات الحسية بل بمحبتها لله وبفضائلها الأخرى: الإيمان - التواضع - الطاعة: (انظر القديس توما ٣/ ٢٧: ٣ على الثاني).. فعند تقديس مريم في أحشاء أمها قيدت الشهوات بحيث انتفت كل حركة حسية منحرفة، أما لدن الحمل بالمسيح فقد أخمدت الشهوات إخماداً بحيث إن القوى الحسية صارت خاضعة كل الخضوع لقيادة العقل: (انظر القديس توماس ٣/ ٢٧: ٣)... أعلن المجلس التريدنيتني: «ما من بار يستطيع مدة حياته كلها أن يتحاشى كل الخطايا حتى العرضية إلا بامتياز خاص من الله كما تعتقد الكنيسة أنه الحال في الطوباوية العذراء.
(D 338) وقد قال البابابيوس الثاني عشر في رسالته Mysticicorporis عن العذراء أم الله: «بأنها كانت في عصمة من كل خطيئة شخصية أو وراثية (D. ٢٢٩١) هذه العصمة هي متضمنة في نص لوقا (١: ٢٨) «السلام عليك يا ممتلئة نعمة...» - كان الآباء اللاتين يجزمون بعصمة مريم من الخطيئة فيعلّم القديس أوغسطينوس: إن كل خطيئة شخصية يجب أن تنتفي من العذراء مريم - والقديس أفرام يضع مريم البريئة من الدنس في مقام المسيح (انظر: ٣).

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[١].

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٢] ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[٣] وهكذا إلى: ٣٥ مرة تذكر في سائر القرآن!.

المسيح في القرآن:

إنه عبد الله ونبيه - جعله مباركاً أينما كان عبر الأصلاب والأرحام وعبر حياته النيرة (١٩: ٣٠ - ٣٢) و﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[٤] وإنما مقالته وحالته طول حياته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٥] و﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٦] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٧] ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾[٨].

وهو واحد من أولي العزم الخمسة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٥-٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥١.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٧) سورة الزخرف، الآية: ٥٩.
(٨) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

فِيهِ. . .﴾[(١)] وكتابه الإنجيل: (٣: ٣ و٤٨ و٥: ٤٦) وقد سماه الله بالمسيح ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[(٢)] وهو من شهداء الأعمال يوم القيامة» (٤: ١٥٩) و(٥: ١٨٧) ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[(٣)] ومن المصطفين المجتبين الصالحين» (٣: ٣٣ و٦: ٨٦ - ٨٧) وقد علّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» (٣: ٤٨) وكان مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ﷺ (٣: ٤٨) ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ. . .﴾[(٤)] وسيؤمن به أهل الكتاب قاطبة قبل موته: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ. . .﴾[(٥)] وإلى (١١) مرة عيسى و(٢٥) مرة المسيح المذكورة في سائر القرآن، وتربوا مرة واحدة على أمه الطاهرة مريم عليها السلام!.

٨ - ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾:

هنا في مثلث الولادة والموت وبعثه حياً بعد الموت دلالة شاملة على كيانه الإنساني فالرب لا يولد ولا يموت حتى يبعث حياً، وفي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ دلالة على نكران صلبه فإنه قتلٌ وليس موتاً، ودلالة ثانية أنه يموت ولا يبقى حياً كما الله خلاف ما يهرفونه!.

ثم ومثلث الزمان هذا هو أهم دورات الحياة: سلام في الولادة عن رحم يولده من زنى، وعن أصلاب وأرحام الآباء القدامى والأمهات حتى آدم وزوجته، وسلام يوم يموت عن أية وصمة أو لعنة، خلاف ما اختلقه

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

عليه جماعات من المسيحيين: أنه صُلب ويصلبه لُعِنَ تحملاً عن لعنة سريعة الناموس، ما يتقولونه عليه أنه أبطل شريعة العمل وحصر الشريعة في عدة عقائد خرافية، وما لعنة الصليب عندهم إلا فداء عما اقترفه المذنبون من أمته هتكاً لشريعة الناموس!.. وسلام ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ عن كل وصمة إلا سمة العصمة والطهارة القمة!

﴿أُبْعَثُ حَيًّا﴾ في عيسى عليه السلام كـ ﴿يُبْعَثُ حَيًّا﴾ في يحيى يدل على أنه ممن شاء الله ألا تأخذه الصعقة الموت حين البعث كما قدمناه في يحيى عليه السلام.

ومن قبل كان مثلث السلام على يحيى المبشر بالمسيح عليه السلام كما «وبراً بوالدي» كتقدمه للمسيح أن ليس هو المسيح فقط براً بوالدته بل والمبشر به بر بوالديه!.

وترى أن «سلام» في ذلك المثلث من المسيح على نفسه، فيتفضل يحيى عليه إذ الله هو المسلم عليه؟ كلا! حيث المسيح وهو في المهد صبي ليس كلامه الخارق إلا وحياً من ربه فـ «سلام علي» يعني سلام الله علي وكما أوحى الله إلي، إن الله سلمني ويسلمني في مثلث الزمان من كل ما لا يناسب ساحة رسالة سامية. فـ «سلام» من «السلام» على المسيح «السلام» عليه السلام دونما قيد أو شرط إلّا: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[1]!

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد المحتد عما مسّوا من كرامته في هذه الثمانية ﴿عِيسَى ٱبْنَ

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠-٣٢.

﴿مَرۡيَمَۖ﴾ لا الذي تتحدث عنه هذه الكتابات المحرفة الزور والغرور - ﴿ذَٰلِكَ﴾ اعني ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ فيه لا نفسه ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ لا ذاك، فرغم أن المسيح واحد كوناً، هو متناقض كياناً حسب القرآن والعهدين وأين مسيح من مسيح!.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ...﴾ و﴿مَا كَانَ لِلَّهِ...﴾ جملتان معترضتان تبعد كيان المسيح عما تقولوا عليه ثم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي...﴾ هو البند التاسع من كلام المسيح عليه السلام في المهد صبياً.

نجده ﴿فَمَا كَانَ لَهُمۡ﴾ في سائر القرآن نفي يضرب إلى أعماق الماضي تكويناً أو تشريعاً كإحالة لمدخولها، ولماذا الله يتخذ من ولد لنفسه حتى ولو أمكن وهو محال؟ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ ولادة ذاتية أم تشريفية أمّاهيه، ف «من» جنس و«ما كان» ينفي ذلك الجنس أياً كان ولماذا؟ حيث ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ عادياً أم خارقاً العادة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله هنا فعله بإرادته، والمخاطب تكويناً قد يكون شيئاً يتحول إلى شيء آخر عادياً كسائر الولادات، أم خارق العادة كما في آدم والمسيح، أم لا يكون شيئاً فعلياً كالمادة الأولية وأول ما خلق الله فهنا المخاطب غيره هناك، حيث التكوين هنا إيجاد لا من شيء، لا من لا شيء، كما أنه هناك إيحاد من شيء، والأشياء بجنب الإرادة التكوينية ثلاثة:

١ - لا شيء بالفعل، وبالإمكان أن يوجد شيئاً، فبعلاقة الأول يسمى قبل شيئه شيئاً.

٢ - لا شيء ولا يمكن في المصلحة الإلهية أن يوجد شيئاً، فبعلاقة الإمكان يسمى شيئاً.

٣ - شيء يجوز تحويله إلى غير شيئه عادياً أم خارق العادة وهو الشيء حقيقة، وأما المستحيل ذاتياً فليس يسمى شيئاً حتى تتعلق به القدرة و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تلكم الثلاث «قدير» لا على اللاشيء الذي لا يستحق الشيئية ولا تمكن فيه ذاتياً![1].

فكلما أن الله تعالى قضى خلق آدم من تراب دون أب وأم، كذلك قضى خلق المسيح دون أب مع أم وهو أهون عليه و﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

إن الحاجة إلى الولد تنسيلاً من الوالد مستحيلة على الله إذ لا أجزاء له، وإلى اتخاذ الولد خروجاً عن الوحدة، وسنداً في الوحشة مستحيلة لعدم الحاجة، فلماذا يتخذ ولداً سبحانه وهو مستحيل على ساحته ذاتياً وفي صفاته وفعاله؟ ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾!.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ. . .﴾ تشبه الآية الإنجيلية «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم». . . : خالقي وخالقكم، ولكنهم تغامضوا عن مد الأب حيث يعني الخالق في لغته اليونانية وفسروه بالأب، وقد جيئت بنصها في آل عمران والزخرف!. إذاً فهي معطوفة على ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ. . .﴾ والايتان قبلها معترضتان، وأصبحت البنود التسعة من كلامه اعترافاً بعبوديته بداية ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ. . .﴾ ونهاية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ خير بداية وخير ختام.

«متى أُرسل بالإنجيل وصار نبياً؟»:

أترى بعد ذلك كله أن المسيح عليه السلام آتاه الله الإنجيل وجعله نبياً وهو في المهد صبياً؟ ولم تُنقل عنه ولا شطر كلمة رسالية حين صباه إلى كهولته

(١) راجع ج ٢٩ من الفرقان - كلام في القدرة من أوّل سورة المُلك.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

إلا هذه المعرفة لكيانه الرسالي والذائدة عن أمه الطاهرة؟ إن تكليمه الرسالي بداية وهو في المهد - ومن ثم منذ الكهولة حتى صعوده ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾(٢).

فقد كان مؤيداً بروح القدس إذ يكلم الناس في المهد وكهلاً، ولم يقل من المهد إلى الكهولة، وإنما ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا...﴾ مما يختص تكليمه في الحالين دون ما بينهما، فتكليمه في المهد يكرس أنباء رسالته كهلاً ويذود عن أمه وقد سئل الرسول ﷺ «فما شأنك لم تتكلم بالحكمة حين خرجت من بطن أمك كما تكلم عيسى ابن مريم على زعمك وقد كنت نبياً قبل ذلك؟ فقال النبي ﷺ: إنه ليس أمري كأمر عيسى ابن مريم إن عيسى ابن مريم خلقه الله عزوجل من أم ليس له أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ولو أن عيسى حين خرج من أمه لم ينطق بالحكمة لم يكن لأمه عذر عند الناس وقد أتت به من غير أب وكانوا يأخذونها كما يؤخذ مثلها من المحصنات فجعل الله عزوجل منطقه عذراً لأمه»(٣).

فقد «كان يومئذٍ نبياً حجة لله غير مرسل»(٤) حيث تنبأ بنبأ الوحي ولما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٣٦ ح ٧٦ في كتاب علل الشرائع عن وهب اليماني قال: إن يهودياً سأل النبي ﷺ فقال: يا محمد! كنت في أم الكتاب نبياً قبل أن يخلق آدم عليه السلام؟ قال: نعم - قال: وهؤلاء أصحابك المؤمنون مثبتون معك قبل أن يخلقوا؟ قال: نعم - قال: فما شأنك... أقول يعني به ثبوت النبوة في علم الله وفي الإيمان به من النبيين أجمع قبل أن يُخلق ويبعث، فعلى هذه السابقة الشريفة المنقطعة النظير فما شأنك.. وقد بحثنا عن نبوءَته قبل رسالته في «الضحى» نبوءَة ونبوة غير ظاهرة الرسالة، لم يؤمر بها قبل الأربعين كما لم يوح إليه القرآن قبله.

(٤) المصدر ٣٣٣ ح ٦٦ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى ابن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على أهل زمانه؟ فقال: كان =

أرسل بكتاب، وما كلامه عن كتابه ووصيته بالصلاة والزكاة ما دام حياً وبراً بوالديه، إلا أنباءً لمستقبل أمره، فكتابه الرسالي هو منذ كهولته، وصلاته وزكاته وبره منذ بلوغه أو غلمته وأما عبوديته لله فمنذ ولادته.

ولو كان رسولاً حجة على الخلق أجمعين منذ تكلُّمه في المهد لكان حجة على زكريا ويحيى، وإنما «كان في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال»[1] دون الخلق أجمعين فضلاً عن زكريا ويحيى!

وهذه الكرامة الإلهية للمسيح تفسح مجالاً لتصديق كرامات أخرى لآخرين من أوليائه الصالحين كما للبعض من أئمتنا المعصومين في مظاهر أمرهم[2] وإن كان كلهم أصحاب هذه الكرامات منذ ولادتهم!

= يومئذٍ نبياً حجة لله غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم: ٣٠-٣١] قلت: فكان يومئذٍ حجة الله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان وكان زكريا الحجة لله عزوجل بعد صمت عيسى بسنتين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عزوجل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله إليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض».

(١) المصدر.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٣٤ ح ٦٧ - عن أصول الكافي عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهب الله لك فقر عيوننا فلا أرانا الله يومك فإن كان كون فإلى متى؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين! قال: وما يضره من ذلك شيء قد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين وفي نقل آخر عنه عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى بعث عيسى ابن مريم رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر عليه السلام. =

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾:

اختلفوا في كل من هذه البنود الثمانية، في ١ - عبوديته، ٢ - وكتابه، ٣ - ونبوته، ٤ - وبركته، ٥ - وصلاته وزكاته، ٦ - وبره بوالدته، ٧ - وإن لم يكن جباراً شقياً! ٨ - والسلام عليه.

ففي كونه عبداً وهو أهم كونه اختلفوا من بينهم بين مثلثين(١) ومريميين ثنوية(٢) أو مثلثين(٣) ومؤلهي المسيح كإله واحد(٤)، غضاً عن ألوهية الله وموحدين حقيقيين وقليل ما هم(٥) وكما اختلفوا في ولادته وحياته وموته، وفي كتابه وشريعته أماذا من كيانه وأمه!.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن القول الحق في المسيح عليه السلام ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أوّله يوم الرجعة حيث ينزل المسيح عليه السلام وثانيه يوم الموت، وثالثه يوم القيامة وهي أيام الله وإن كان الأخير أعظمها! -:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨)﴾:

= أقول: الرسالة الفعلية للمسيح عليه السلام منذ ثلاث من عمره لا يصدقها تاريخ رسالته ولا القرآن، بل و﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] في آيتيه لعله يعارضها، إضافة إلى الحديث السابق حيث بدأ رسالته من السبع، فلا يصدق من هذه الروايات إلا ما يصدقه القرآن أو لا يكذبه والله أعلم.

(١) ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

(٢) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [المائدة: ١١٦].

(٣) في اللاهوت العقائدي ج ٢ ص ١٠٨ لمؤلفه لوديغ أوث «إن مريم هي حقاً أم الله تقول الكنيسة في قانون الرسل بأن ابن الله ولد من مريم العذراء فهي أم الله من حيث هي أم ابن الله.

(٤) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ [المائدة: ١٧] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

(٥) هم الثلثان من أعضاء نيقية الموحدون حيث اضطهدوا بالثلث غير الموحدين ويأتي تفصيله بطيات آياته.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فرادى و﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ جماعات يومي الموت والقيامة الكبرى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: ما أسمعهم وأبصرهم بالحق فيهما بعدما عاشوا صماً وبكماً في الظلمات يوم الدنيا، فلا ينفعهم ما يسمعون من الحق وما يبصرون إذ قضي الأمر ولات حين مناص، فليقولوا حاسرين ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾(١) ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ إذ ظلموا في صممهم وعماهم عامدين ﴿الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ في ضلال هناك نتيجة ضلالهم هنا، عن رحمة الله، فقد تناسوا في اليوم الأول غده ثم ليس لليوم الآخر غد يقدمون له!.

ثم الحق الذي يسمعونه ويبصرون هو كل الحق، ما تركوه وكذبوا به، وما خلّفه تكذيبهم، حيث السمع والبصر هنالك حديد: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢).

وقد يشمل ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أمر الرسول ﷺ كشهيد الشهداء أن يجعل سائر أهل الحشر يسمعون ويبصرون(٣) حالة هؤلاء الظالمين النكدة، إذاً فـ «اسمع» جامعة هنا بين الأمر وأفعل التعجب، ولا يعني العجاب هنا إلا أنه موضعه لمن يعجب دون الله سبحانه فإنه ليس ليعجب!.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾:

﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ هو يوما الموت والقيامة الكبرى حسرة على الظالمين: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾(٤) ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(٥) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٣) و﴿بِهِمْ﴾ [الكهف: ٣٨] اعتباراً بأفعل التعجب دون الأمر فإنه متعدٍ بنفسه.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[١] لذلك فهو لهم ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أمر التكليف ومجال التوبة عما أترفوا فيه، فلا حسرة عما مضى إن كان هنالك انجبار يصلح ما يأتي.

وقد يعني يوم الحسرة هنا فقط يوم الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث البرزخ ليس يوم الغفلة ولا يوم الإيمان حتى يُندَّدوا بعدم الإيمان، اللهم إلا لمن يجمع يوميه ظالماً وهو الذي يموت بالنفخة الأولى ويحيا بالثانية وهم قلة قليلة أمام جمع الظالمين المحشورين، فمهما كان يوم القيامة الكبرى هو يوم الحسرة الكبرى ولكن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يختصه هنا بالقيامة الصغرى، اللهم إلّا أن يعتبر اليومان واحداً هما ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فـ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بداية يوم الحسرة وهو القيامة الصغرى، وقد يعني ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ - فيما يعني - قضاء أمر الموت[٢] لأهل الجنة تماماً، ولأهل النار ما داموا هم في النار.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

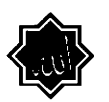
(٢) الدر المنثور ٤: ٣٧١ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حيان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرفون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده وقال: أهل الدنيا في غفلة» وفي تفسير القمي أبو ولاد الحناط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ قال: - وذكر مثله إلى قوله: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت أبداً ويا أهل النار خلود فلا موت أبداً وهو قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: قضي على أهل الجنة بالخلود فيها وقضي على أهل النار بالخلود فيها.

أقول: يختلف الخلودان والأبدان في الخلودين في الحديثين، فالخالدون في الجنة لا يموتون أبداً فإنها ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] والخالدون في النار منهم من يخرج إلى الجنة =

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

تأكيدات أربع «إن - نا - نحن - نرث» تدليلاً صارماً على وراثة الأرض ومن عليها لله الواحد القهار، ومن ثم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

إنه لا وارث لله من ولد يتخذه مسيحاً أم سواه، بل هو الوارث للأرض ومن عليها مسيحاً وسواه. لقد ملكنا ربنا أنفسنا والأرض محنة التكامل بالاختيار ومهنته بما هبانا من وسائل وأسباب، ملكاً عرضياً مؤقتاً لذلك الهدف الأسمى، دون ملك حقيقي فإنه لزام ربوبيته دون انتقال، ثم الله ينشئ النشأة الأخرى حيث تزول هذه الملكية العرضية فهو الوارث لما ملكه من ﴿ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فإنهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلّا ما قدموه يوم الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] فهم منذ موتهم حتى الأبد معزولون عما ملكوا يوم الدنيا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[2] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3]!



= فلا يموت كسائر أهل الجنة، ومنهم من يظل في النار ما دامت النار فلا موت إذاً في النار، وأما الفناء بفناء النار فلا ينافي الخلود ولا أبده في النار، فأبد الخلود في النار يقدر بقدر أبد النار كما الجنة بالجنة - راجع ج ٣٠ تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبإ: ٢٣] وسورة الإسراء من هذا التفسير ففيه بحث فصل حول الخالدين في النار.

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾:

نجد «إبراهيم» عليه السلام ٦٩ مرة في الذكر الحكيم، وأصله العبراني آبراهام - أو - أب رام، يعني: أبا جماعة كثيرة، وكما في التوراة: التكوين ١٧ : ٢٠ :

«وُليشمَعيل شِمَعتيخا هِينّه بَرختّي اوتو وَهيفْرتي اوتو وهيْربتي اوتو بمئُدمِئُد شِنيم عاسار نسَيئيم يولَدْ وِنتّيو لغُوي غادُل».

«ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميه وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة»[1].

(١) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾: كثير الصدق ومبالغه في تطابق حاله وأقواله وأفعاله في حلِّه وترحاله ﴿نَّبِيًّا﴾: رفيع المنزلة بين الصديقين فإنهم بين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾[1] ثم معصوم لا رسول ولا خليفة رسول كمريم عليها السلام: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾[2] ثم خلفاء الرسول المعصومين ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾[3] ثم الرسل ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾[4] و﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ...﴾[5] فإبراهيم نبي: رفيع المنزلة بين الصديقين الرسل فضلاً عمن سواهم، وقد يكفي ﴿نَّبِيًّا﴾ تدليلاً على رفعته بين الرسل، إلّا أن صديقاً يضيف إليه نبوة بين الصديقين الرسل فضلاً عمن سواهم، ومن نبوته الصدِّيق حواره الصارم مع أبيه حيث لم يجرفه جوّ الربوة والتربية الشركية، فلم يزلزله عن موقفه الصارم في التوحيد ودعوته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾:

أبوه هذا ليس الأب الوالد، بل هو عمّه أم جد لأمه، فكان يربيه كأب منذ طفولته إذ مات والده، وهنا يوبخه باحترام ودونما اخترام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾[6]! سائلاً عنه السبب لعبادته الأوثان من دون الله، وأقله أن تسمع أو تبصر، ومن ثم تغني وتكفي عنه شيئاً، وأكثره أن يكون الخالق الكامل الكافل لكل ما يحتاجه عبده، ولا تملك الأوثان كثيراً ولا قليلاً مما يسبب عبودتها،

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٤) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٤٦.
(٦) الدر المنثور ٤: ٢٧٢ - أخرج أبو نعيم والديلمي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حق الوالد على ولده ألا يسميه إلا بما سمى إبراهيم أباه: يا أبت - ولا يسميه باسمه - أقول هذا لا يدل على أن أباه كان والده حيث الاحترام للوالد ومن هو بمنزلته كالعم والجد.

والرب يكون مع عبده يراعيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[(١)] ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

إنه لا بد للجاهل متابعة العالم ولا سيما الذي جاءه من العلم ما جاء إبراهيم من علم الملكوت وحياً إضافة إلى علمه الفطري الناضج وآزر يحرم العلمين قصوراً عامداً وتقصيراً!.

وليست الهداية إلى صراط سوي دونما عرج ولا حرج ولا عوج إلا على ضوء علم يأتي الإنسان من الله ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ حيث العلم الداخل من فطرة وعقل، أو مكتسب كما الداخل من غير الله، هذا العلم ليس معصوماً عن خطإٍ مهما أصاب، فلا يصيب الصراط السوي الا على ضوء العلم الخارج وحياً!.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾:

أترى بعد ما يندد به لأنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر، كيف ينهاه هنا عن عبادة الشيطان واسمع به وابصر؟! وإن كان لا يغني عنه شيئاً؟ علّه لا يعني من عبادة الشيطان اتخاذه معبوداً كما الله، وإنما طاعته المطلقة كأنه معبودٌ ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[(٣)].

فما لم تكن هنا طاعة مطلقة للشيطان فكيف يتَّبع فيما ليس له من سلطان أن تعبد من دون الله أوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعني شيئاً؟ فلو أن

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٣) سورة يس، الآية: ٦٠.

الشيطان كان مطيعاً للرحمن لم تحق له العبادة ومطلق الطاعة، كيف وقد ﴿كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فالرحمن الذي منه الرحمة العامة لكل كائن كيف يترك إلى الشيطان وهو عصيٌّ الرحمن، يبدل رحمته نقمة وهداه ضلالاً.

وترى إذ كان أبوه يعبد الشيطان فكيف يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن فيكون ولياً للشيطان، ومس العذاب وولاية الشيطان لزامان لمن يعبد الشيطان؟ والخوف يلمح بتردد راجح!.

في ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ لمحة أن إبراهيم عليه السلام لمّا يعرف حتى الآن أن أباه عدوٌّ للرحمن، فكأنه مستضعف جاهل أو يحتمله، كما وأن ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ لمحة أخرى تؤيدها أنه لم يكن يعلم آنذاك ولايته المعمدة المعاندة الحق للشيطان، ومن ثم ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أيدت تلك اللمحة فأعذرت إبراهيم في وعد الاستغفار وتحقيقه!.

ثم الإنسان ولي لمن والاه في الآخرى كما الأولى ولله الآخرة والأولى.

وهذه الدعوة اللطيفة الخفيفة بقاطع البرهان وأرق الألفاظ وأدقها لم تكن لتصل إلى قلب خاوٍ هاوٍ فإذا بآزر في عربدة نكراء وطنطنة غوغاء.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾:

فلم يكن لولي الشيطان جواب إلا سؤال التنديد الشديد: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ رغبة عما أعبده وأنا أبوك وهي آلهتي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن هذه الرغبة المعارضة ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ إذ كان الرجم شر عذاب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾[1] ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فاعزب عن محاورتي واغرب عن مواجهتي طويلاً! فالتملي بشيء هو التمتع به بملاوة من دهر، وهناك شعٌّ له الرجاء بعد الخوف والعناء

(١) سورة هود، الآية: ٩١.
(٢) سورة يس، الآية: ١٨.

كأن أباه يتمهل بالهجر الملي أن يفكر ملياً علّه يخرج عن غيّه، وذلك تمهُّلٌ وشك مقدس أم إلى قداسة ولذلك يسلم عليه إبراهيم ويعده الاستغفار إذ:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾:

هناك يسلم عليه ويعده الاستغفار ولما، ولماذا السلام على المشرك ووعد الاستغفار؟ و﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1]!.

الجواب - ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[2]... ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ هنا تبين أنه استغفر له قبل التبيُّن فـ ﴿عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ لا تعني إلا موعدة آزر لإبراهيم حيث ترجى فيها هداه، فلم يتبيّن له أنه عدو لله رغم ما تقدم من عداه، ولا مجال لتفهم هذه الموعدة في القرآن إلا ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ فلو أنه كان مصرّاً في عداه لكان يرجمه أو يلزمه. كي لا ينشر دعوته ضد الآلهة، إذاً ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ تمتعاً بملاوة من الدهر، يرجيه بموعدة التفكير ملياً علّه يهتدي، أم يقول كلمته الأخيرة بعد مليٍّ التفكير، لذلك يسلم عليه إخباراً أنه سوف لا يرى منه سوءً، ودعاءً أن الله يوفقه في هجرة الملي لهداه، ثم يعده الاستغفار موعدة عن موعدة فاستغفر له بعد ملي لم ير منه ما كان يسمعه ويراه من عداه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[3] فـ ﴿كَانَ﴾ هنا تضرب إلى ماضي حاله، وأما حاله ومنذ موعدته ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ فلم تتبين له أنها استمرارية ضلاله، ولذلك يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ فلم يعد يستغفر لأبيه وإن استغفر لوالديه في نهاية أمره وخاتمة عمره عند بناء

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.

البيت، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[(١)] فلو أن والده أبوه لأصبح كلام الله ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ كذباً، وأصبح إبراهيم رسول الله عاصياً إذ «لم يتبرأ منه»!

إذاً فأبوه - هنا - لم يكن والده، ولم يستغفر لأبيه إلا عن موعدة لم يتبين فيها أنه عدو لله فساحته إذاً براء عن الاستغفار للمشترك على تبين عداه، فإنما لا يجوز الاستغفار لمن تبين أنه عدو لله فهو من أصحاب الجحيم، دون المشكوك هداه وعِداه.

إذاً فالاستغفار جائز لمن يجوز له أن يُغفر وإن كانت حالته الحاضرة كافرةً لا تُغفر إذ يجوز تحوله في مستقبل قبل أن يأخذه الأجل فيجوز له أن يغفر. وأما الذي تبين أنه من أصحاب الجحيم، إذ مات مشركاً فلا يستغفر له، لأنه تحميل على الله ما ليس ليقبله أو هزء به!

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ إذ وعدتني في هجري الملي خيراً ولـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾: براً لطيفاً، فالحفاوة الربانية تقتضي غفرك بما أستغفر لك، وهي لا تقتضي غفراً لأصحاب الجحيم..

فقد كان إبراهيم معذوراً في استغفاره لأبيه خطأً في موضوعه لا في حكمه وموضعه، فلم تكن الأسوة الحسنة فيه تشمل خطأه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ...﴾[(٢)] ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾[(٣)].

وترى السلام على المشرك هل يجوز حال شركه مهما جاز الاستغفار له قبل أن يتبين كونه من أصحاب الجحيم؟.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ قد يعني الإخبار أن لا يصلك مني إلا سلام عدل أم فضل دونما ظلم ولا نقير، وهكذا سلام واجب كل مؤمن وجاه الآخرين أياً كانوا، مقالاً وحالاً وأفعالاً.

وقد يعني الدعاء أن يسلمك الله وينزل عليك رحمته السلام، وهذا لا يحق إلا لمن يستحق سلاماً من الله من مسلم لله أمَّن هو في سبيل الإسلام أو مشكوكة حاله ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[1] وأما المقطوع انقطاعه عن الله، الشريد عن الله، والطريد عن رحمه الله، فلا يستحق سلاماً كما الاستغفار.

وكما جاز وعد الاستغفار لأبيه إذ لم يتبين له أنه عدو لله، كذلك السلام ولا سيما في مواجهة الدعوة إلى الله، حيث تجلب المدعو بحنانه إلى الله، وحتى إذا تبين أنه عدو لله، فسلام عليك بمعنى الإخبار لا محظور فيه! ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾[2] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[3] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[4].

إذاً فسلام الإخبار عام لا محظور فيه، وسلام الدعاء يخص غير من تبين أنه من أصحاب الجحيم، كدعاء الهداية والاستغفار، مهما كان في حاضره من الكفار.

والقول إن جواز السلام على الكفار لعله شرعة إبراهيمية ليست في الإسلام كما وعديد من الأحاديث تمنعه، جوابه أنه لم ينسخه القرآن. بل وأيده: «وقل سلام - سلام عليكم - قالوا سلاماً» وهذه الأحاديث مطروحة

(١) سورة طه، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

بمخالفة القرآن، أو مؤولة إلى سلام الدعاء، المحظور على من تبين أنه من أصحاب الجحيم، دون سلام الإخبار، والسلام!.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾:

وترى كيف يعتزل صاحب الدعوة الرسالية مرسلاً إليهم ويدعو ربه بعيداً عنهم؟ إنه اعتزال عنهم وما يدعون من دون الله! فإذ يهدده المرسل إليه «لأرجمنك» وفي إمكانيته رجمه، ثم يطلب إليه هجره ملياً في لمحة إمهاله علّه يفكر ويرجع عن غيِّه، وإلّا فليعش في جوّ الإشراك بالله دونما فائدة إلا ظلامة القرب من الأوثان، فالاعتزال إذا واجب أو راجح ذو أبعاد ثلاثة، وفيه ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ وعله يخفف عن وطأة الشرك في أبيه أو يهديه ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ هجر ملي ودعاء غير شقي ورب حفي وهنالك تتم وهبة الرحمة الربانية بلسان صدق علي فـ «رحم الله عبداً طلب من الله عز وجل حاجة فألح في الدعاء استُجيب له أو لم يستجب...»[1].

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٥٠﴾:

أترى أن إسحاق هو بكر مواليد إبراهيم فيفرد بذكره هنا؟ أم هو إسماعيل كما يتقدم عليه فيما يذكران[2]؟ بكره هو إسماعيل لتقدمه حيث

(١) نور الثقلين ٣: ٣٣٩ ح ٨٦ في أصول الكافي عن ابن قداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ... وتلا هذه الآية.

(٢) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٤٠] و٣: ٨٤ و٤: ١٦٣ و٢: ١٣٣ و١٣٦.

يذكران، وقد يفرد بذكر إسحاق حيث المقام مقامه والأنبياء الإسرائيليين[١] وهنا كأمثاله يقتصر على ذكره حيث الهدف ذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك يعقبه بيعقوب إبنه دون إسماعيل أخيه، كما قد يذكر إسماعيل وحده دون إسحاق عليه السلام [٢] حيث المقام يخصه دونه، وحين يجتمعان يتقدمه إسماعيل دونما استثناء! وفي التوراة تصديق أن إسماعيل بكر ولده[٣].

﴿وَكُلًّا﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ رسولاً رفيع المنزلة بين الرسل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ من طيبة الولادة والعلم والعمل الصالح، رحمات متصلة بهم ومنفصلة عنهم، ومن الثانية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهو إجابة لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[٤] وما الآخرون في البيئة الرسالية الصادقة إلا محمد وعترته المعصومون عليهم السلام فهم إذاً لسان صدقه العلي!

هنا وإن لم يذكر إسماعيل عليه السلام إذ لم يكن المقام محله، فقد ذكر عالياً في لمحة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ حيث الآخرون هم من نسل إسماعيل وهم لسان صدق لهم عليٌّ ينطق بالرسالة الصادقة والولاية الفائقة ما لم يسبق له مثيل.

---

(١) ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦] ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨] ولا مجال هنا لذكر إسماعيل إذ ليس أبا يوسف وإنما عمه.

(٢) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨] ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥].

(٣) تكوين المخلوقات الأصحاح ١٦ - الآيات ١ - ٦ ومنها قول سارة زوجته «ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين»(٢).

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

ولسان صدق من إضافة اللسان إلى أفضل حالاته وأشرف متصرفاته، وعلّ اللسان هنا لسانان: لسانهم الرسالي لأممهم، المبشر بلسان صدق في الآخرين كما بشروا في كتاباتهم بالرسول محمد ﷺ - ولسان آخر منفصل عنهم يصدقهم فيما أرسلوا وبَشروا وهو محمد خاتم النبيين، لولا لسانه الصدق عنهم، المصدِّق لهم لما صدقنا رسالاتهم ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(١) والخاتَم هو المصدق آخر الكتاب، ومحمد يختم كتاب الرسالات ختاماً وتصديقاً ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ. . .﴾(٢).

فهم - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - لسان صدق علي، ولهم في الآخرين لسان صدق عليٌّ محمد ﷺ وعلي وعترتهما المعصومون وهم أعلى! فأين نبيٌّ من نبي وولي من ولي وعلي من علي؟.

وقد يعني ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ - في أهم ما يعنيه - أهل بيت الرسالة المحمدية، كما وأنهم لسان صدقٍ علي(٣) «ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله ويورثه(٤) أو «يورثه من لا يحمده»(٥)!.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٣٩ في تفسير القمي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٠] يعني لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾: رسول الله ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني أمير المؤمنين حدثني بذلك أبي عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام.
أقول: يعني أمير المؤمنين تفسير بمصداق مختلف فيه ليلحق بالمصداق المتفق عليه وهو الرسول ﷺ.

(٤) المصدر ح ٨٨ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام.

(٥) في نهج البلاغة قال عليه السلام: إن اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (٥١) وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا (٥٢) وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا (٥٣) وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (٥٤) وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا (٥٥) وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا (٥٦) وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا (٥١)﴾:

المخلص - فتحاً - هو الذي أخلصه الله بعدما أخلص هو نفسه فأصبح مخلصاً لله، عصمة إلهية تجعل العصمة البشرية بالغة المدى لحد ينتجب لرسالة، ونبوة إلهية، و﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ مر بيانه وسطع برهانه.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا (٥٢)﴾:

﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ هنا كما في ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾[1] صفة تفضيل لجانب، يعني الجانب الأيمن من الطور لا اليسار ولا اليمين، وليس صفة للطور حيث الأيمن في طه منصوب لا يناسب صفة للطور، وإنه لم يوصف في ثمان أخرى[2] بالأيمن! ولأن الوحي يمن ويمين فمناداته جانب الأيمن مكاناً كما هو الأيمن مكانة! أفضل اليمن واليمين.

ثم و«من» تقرر منفذ الوحي إليه في كلام يسمع فليكن في مكان كما

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٢) هي ٢: ٦٢ و٩٣ و٤: ١٥٤ و٢٨: ٢٩ و٤٦ و٥٢: ١، وقد وصف مرة بسيناء ٢٣: ٢٠ وأخرى بسينين ٩٥: ٢.

الموحى إليه في مكان، مهما لم يكن للموحي المنادي مكان ولا زمان، حيث يخلق الكلام كما يخلق سائر الخلق، ولكنه كلام خارق سنَّة الكلام في لفظه ومعناه حيث هما من الله دون مكلِّم بشري أو ملائكي أمن ذا؟

فكما الله خلق المسيح دون أب، وخلق آدم دون أبوين، كذلك الكلام الذي كلّم به كليمه خلقه دون لسان وشفه ومخرج صوت.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا...﴾:

﴿نَجِيًّا﴾ حال من المقرَّب وحال من المتقرب وعلى أية حال يعني النجوى كما يعني النجاة: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[1] اللهم إلّا نجاة الله إذ لا يخاف حتى ينجو، فقد قربه ﴿نَجِيًّا﴾ هو عمن يبعِّده أو يشغله من أهله، وعمن يتربص به دائرة السوء كآل فرعون، ومن ثم ﴿نَجِيًّا﴾ في نجواه إليه وحياً، ونجوى موسى إلى ربه وقد يجمعهما ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[2].

ف ﴿نَجِيًّا﴾ هذا يجمع بين شرطي ذلك القرب، سلباً في نجيٍّ النجاة عمن سوى الله، وإيجاباً في نجي النجوى مع الله، وقد يشير إلى نجاته ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[3] - وإلى نجواه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[4]!.

وهل هناك نجيّ النجوى دون من إليه يوحى؟ أجل وقد يكون أجلّ وأجلى من بعض الرسل كأئمة الهدى[5] حيث النجوى تعم الوحي والإلهام

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.
(٢) سورة طه، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣.
(٥) نور الثقلين ٣: ٣٤٠ ج ٩٢ في بصائر الدرجات عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد =

بمراتبهما، فوحي النبوة يخص الأنبياء، وإذا ختم الوحي بختم النبوة فإلهام قد يكون أرقى من بعض الوحي كما كان يلهم إلى أئمة الهدى!.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾:

هارون! يا له من وهبة رحيمية ربانية لبلاغ الرسالة الموسوية ﴿نَبِيًّا﴾: رسولاً رفيع المنزلة هبة باستدعائه واستعداده ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي... قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[(١)]!.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾:

لم يذكر إسماعيل في (١٢) موضعاً يذكر في القرآن، بمشروح أحواله إلا هنا، إلا شذراً أنه ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٢)] ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾[(٣)] ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٤)].

= الله عليه السلام إن سلمة بن كهيل يروي في علي أشياء قال: ما هي؟ قلت: حدثني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان محاضر أهل الطائف وأنه خلا بعلي يوماً فقال رجل من أصحابه: عجباً لما نحن فيه من الشدة وإنه يناجي هذا الغلام مثل اليوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنا بمناج له إنما يناجي ربه فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذه أشياء يعرف بعضها من بعض أقول: يعني عليه السلام أن هذه النجوى تعم أئمة الهدى عليهم السلام وفيه ح ٩٤ بإسناده إلى أبي رافع قال: لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام يوم خيبر فتفل في عينيه ثم قال له: إذا أنت فتحتها فقف بين الناس فإن الله أمرني بذلك قال أبو رافع فمضى علي عليه السلام وأنا معه فلما أصبح بخيبر وقف بين الناس وأطال الوقوف فقال الناس: إن علياً يناجي ربه، فلما مكث أمر بانتهاب المدينة التي افتتحها قال أبو رافع فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: إن علياً وقف بين الناس كما أمرته فقال قوم: الله ناجاه؟ فقال: نعم يا أبا رافع، إن الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة تبوك ويوم خيبر.

وفي رواية علي بن أعين عنه صلى الله عليه وآله وسلم في قصة الطائف.. فسمعنا صرير الرحا فقيل ما هذا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! قال: إن الله يناجي علياً أقول وإذا يناجيه في حياة الرسول فبأحرى أن يناجيه بعد وفاته وهو وحده الرابط بينه وبين خلقه بالهامات متواصلة.

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة صٓ، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.

فمن صبره وخيره ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١] كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق[٢] وحقيق له صدقه في صبره، وصبره في صدقه ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[٣].

فإسماعيل هذا هو ابن إبراهيم عليه السلام جدّ الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا سواه وكما في سائر الاثني عشر موضعاً، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينة تميزه عن إسماعيل في سائر القرآن[٤]!

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾:

في مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هي في القمة، وصدق الوعد والأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هي من أهم فروعها الرسالية، ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ تكريس لحالاته كلها، في نفسه وأهله ومن أرسل إليهم والناس أجمعين، كان في هذه كلها عند ربه مرضياً، وهي قمة المقامات عند الله مهما كانت لها درجات.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ٩٩ - أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره سنة فسماه الله عز وجل صادق الوعد ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك! ورواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.
أقول: هذا الحديث في أن إسماعيل هو ابن إبراهيم ظاهره كظاهر القرآن، وأما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات أو يوماً بكامله، وزائد الانتظار زائد في كل الموازين، ولا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٧٣ - أخرج مسلم عن واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة - أقول: كنانة من أجداد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٤٢ ح ١٠١ في كتاب علل الشرائع في باب العلة التي من أجلها سمي إسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ...﴾ [مريَم: ٥٤] لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عز وجل الى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه..» أقول وهو لا يناسب ظاهر القرآن..

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾:

لم يذكر إدريس في سائر القرآن الا هنا وفي الأنبياء: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فله مواصفات أربع: صديق نبي من الصابرين ومرفوع إلى مكان علي.

تعرفنا من ذي قبل إلى «صديق نبي» لإبراهيم، وإن كان بينه وبين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين[١] فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم ونوح وحتى آدم نفسه، إذاً فإدريس أفضل من آدم ومن بعده إلى نوح.

ثم ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ دليل معراجه عليه السلام لمكان ﴿مَكَانًا﴾ دون مكانة، وقد عُرِفَت مكانته بـ ﴿صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه السماء الرابعة[٢] رفع إليها كما رفع عيسى عليه السلام ويروى أنه كان خياطاً[٣].

وإذ يرفع إدريس مكاناً علياً فقد رفع محمد صلى الله عليه وآله وسلم مكاناً أعلى إلى سدرة

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٤ - أخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً وكان يقسم دهره على نصفين: ثلاثة أيام يعلم الناس الخير وأربعة أيام يسيح في الأرض ويعبد الله مجتهداً وكان يصعد من عمله وحده إلى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع أعمال بني آدم...» وتتمة الحديث طويلة وكما هنا أحاديث أخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفعناه مكاناً علياً قال: في السماء الرابعة وعن أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثله وفي نور الثقلين ٣: ٣٤٩ ح ١٠٨ عن علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن يزيد بن سلام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سأله عن الأيام: فالخميس؟ قال: هو يوم خامس من الدنيا وهو يوم أنيس لعن فيه إبليس ورفع فيه إدريس، وفيه عن تفسير القمي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معراجه: ثم صعدنا إلى السماء الرابعة وإذا فيها رجل فقلت: من هذا يا جبرائيل؟ فقال: إدريس رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه وسلم عليّ واستغفرت له واستغفر لي.

(٣) نور الثقلين ح ١١٠ عن الكافي عن عبد الله بن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة: أما علمت أنه موضع بيت إدريس النبي عليه السلام الذي كان يخيط فيه؟.

المنتهى، ومكانة أعلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾[١] وكما رفع ذكره في الملأ الأعلى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٢] وكما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ:

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبنيه حول «من هو أفضل الخليقة؟» فإذا أنا «آدم» بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضياء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هؤلاء؟ فأوحى إلي أنهم أشرف خلقي والوسطاء بيني وبينهم:

«إني لَهِوْ يَوْه أنا لِبْرين وارَخْ لا الشِّماى ولا ألْ أرْعا ولا الرِدِس ولا الكَيْهَن ولا الشِمس وَلا السَّعر»:

«لولاهم لما خلقتك» يا آدم «ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر».

قلت «آدم»: ما هي أسماء هؤلاء الأكارم؟ قال: انظر إلى العرش ترى:

- «**بارقليطا**»: محمد ﷺ «**إيليا**»: **علي** عليه السلام «**طيطه**»: **فاطمة** عليها السلام «**شِبِرّ**»: حسن «**شبِّيْر**»: حسين.

«هَلَيْلوه لِتْ آلَهَ شُوقْ مِنِّي محمّد أنْوِي دِآلَهَ» -: **«هلّلوني فإنه لا إله إلا أنا ومحمد رسولي»**[٣].

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٣) طبع كتاب إدريس عليه السلام باللغة السريانية في لندن ١٨٩٥ وهذه البشارة في ص ٥١٤ - ٥١٥ منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام في كتابه أنيس الأعلام - وقد فصلناه في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ١٣١ (عربية) وفي كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص ٢٢٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا (٥٨) ۩ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا (٦١) لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا (٦٢) تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا (٦٥) وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا (٦٩) ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا (٧٠) وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا (٧٢)﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا (٥٨)﴾ :

كما النعمة الربانية درجات كذلك المنعم بها عليهم درجات أفضلهم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

وقد تلمح ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ دون «آدم ومن ذريته» إلى أنه ما كان من النبيين مهما كان من المرسلين أمن ذا؟.. والذين أنعم الله عليهم - على درجاتهم - هم الذين نستهدي في صلواتنا صراطهم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾(٢) ونحن أيضاً درجات كما هم درجات، فلا تستهدي كل درجة إلّا صراط من فوقها دون من يساويها أو أدنى، وكما الرسول محمد ﷺ وهو على قمة الصراط لا يستهدي في صلاته إلّا أفضل من المنعم عليهم أجمع فإنه إمامهم أجمع!

والنبيون المذكورون هنا هم: زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم، وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، عشرة من المذكورين في سائر القرآن وسواهم، ومريم المذكورة معهم من الصديقين و﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾(٣) وقد تشملها ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ﴾(٤).

وترى من ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أما كانت تشمل كافة صفحات النبوة في تاريخ البشرية؟ فما هي الحاجة إلى «وممن - ومِنْ - وممن..»؟.

قد تعني هذه الثلاث الثلاثة الباقية من المنعم عليهم وسائر النبيين

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٤) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٤ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين عليه السلام قال عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ﴾ [مريم: ٥٨] نحن عنينا بها.

ف ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ تعم الصديقين والنبيين غير المذكورين هنا، وأئمتنا المعصومين عليهم السلام كما فاطمة صديقة ومريم صديقة. ف ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ و﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ تعمان كل نبي وكل صديق في تاريخ الرسالات الإلهية ثم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تشمل كل شهيد وصالح.

إذ ليس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نبي أم ولا صديق إلا في ذريته وذريتهم، والنص ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾ لا «من ذرية من حملنا» حتى تعني النبيين من هذه الذرية، ثم ولا تختص النبوة بذرية إبراهيم وإسرائيل حتى تعني النبيين من هذه الذرية.

إذاً ف «من» الأولى بيانية وسائر الأربع تبعيضية، تحمل الخَمسُ المنعَم عليهم الأربعة ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وفي تقسيم أبعاض الآية إلى المذكورين تكلف ظاهرٌ: أن ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ هو إدريس وحقه إذاً «من نبي من ذرية آدم»! ثم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنه إبراهيم إذ هو من ذرية من حمل مع نوح، وحقه إذاً «ومن ذرية نوح أو من ذرية مَن حملنا مع نوح»! ثم ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إن «من إبراهيم»: «إسماعيل وإسحاق» ومن إسرائيل «زكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون»! وحقه إذاً ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ حيث تعم كافة النبيين من فرعيه: إسماعيل وإسرائيل دون اختصاص بالمذكورين.

وقد يكون في من ﴿حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ صديق كما فيهم صالح وشهيد، ولكنما ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ يعم مع النبيين غير المذكورين هنا كل صديق وصالح وشهيد، كما ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ تعم كافة النبيين في صفحات النبوات!.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ومواصفة لهم ثانية شاملة للأربع: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فإنهم المنعم عليه بنعمة الهداية والعبادة القمة، لا تخالجهم غواية في أية حِلَّة وترحالة، سجّداً للرحمن وبكياً في كل حالة ومقالة وفعالة، فعّل الخُرور سجداً وبكيّاً هو كمال الخضوع والخشوع أمام آيات الرحمن حين تتلى عليهم، من وحي آيات الوحي المتلوة عليهم بشؤون الربوبية والعبودية والرسالة والنبوة، سواءٌ أكان التالي هو الرحمن أم وسيطٌ في الوحي وحياً أمّاذا من تلاوة حسب درجات المنعم عليهم، من النبيين إلى الصالحين، حيث الآيات تأخذ بأزمة قلوبهم فيخرون بكياً ومن ثم بقوالبهم فيخرون سجداً.

وإذا كانت السجدة والبكاء للرحمن فلماذا هي ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولا يختص مقام الرحمن بما تتلى؟ إنه مزيد الإيمان والانجذاب إلى الرحمن حين يكلم المنعم عليهم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ثم للسجود والبكاء حين تتلى آيات الرحمان درجات أدناها الاستماع إليها والإنصات لها ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3] فإنهما من السجود الخضوع دون تمامه، وهما لزام لأصل الإيمان وأدناه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾[4] مهما كان كمال السجود والبكاء لزام كمال الإيمان وأعلاه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ... خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.
(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

فكما يجب أن يكون المؤمن بالله ساجداً لله خاضعاً له في أحواله كلها، كذلك السجود لآيات الله ولا سيّما حين تتلى، فترك الاستماع إليها والإصغاء لها نابع من عدم الايمان!

ولماذا ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دون «الله» أو «الرحيم» لأن العناية المناسبة لمطلق السجود والبكاء تقتضي الرحمة العامة بما فيها بشارة الثواب ونذارة العقاب، فالسجود نتيجة البشارة والبكاء نتيجة النذارة مهما عمهما السجود والبكاء في توسُّع يليق بالمنعم عليهم.

وكما السجود في وجه عام يشمل أدناه إلى أعلاه كذلك البكاء تشمل التباكي وحالة البكاء كما تشمل أعلى البكاء، درجات حسب الدرجات.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾:

﴿فَخَلَفَ﴾ هؤلاء المنعم عليهم «خلف»[١] خالفوهم فيما هم وتخلَّفوا عما هم حيث ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ كما خلَف من بعدهم خَلَفٌ أقاموا الصلاة وتركوا الشهوات فسوف يلقون رياً.

لكل صاحب دعوة إلهية خلْفٌ وخَلَف، وطبيعة الدعوة وصنيعتها تقتضي الخلَف دون الخلْف، وخلْف الدعوة الصارمة والتخلف عنها لزامه مضاعفة الغي والعذاب، كما أن خَلَفها والاستمرار فيها لزامه مضاعفة الري والثواب!

فلأن آيات الرحمن منها مبشرة لمن يعبد الرحمن وقمتها الصلاة، وأخرى منذرة لمن يتركها اتباعاً للشهوات، فهؤلاء الخلف طول الرسالات والدعوات الإلهية أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، نقطة مضادة لأسلافهم المنعم عليهم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾!

(١) الخلف بالسكون البدل السيِّيء وبالفتح ضده وقد يعكس على ندرة والأصل هو الأول.

وإضاعة الصلاة لا تعني فقط فيما تعني ترك الصلاة[1] فإن إضاعة شيء ليست إلّا بعد تكوُّن هذا الشيء، فالذي يعزل فلا يولد له ليس مضيعا للولد، إنما هو الذي انعقدت نطفته فأضاعها منذ انعقادها إلى الولادة إلى الموت عن المصالح المتوجهة إليه لولده.

فإضاعة الصلاة هي إتيانها دون إقامة لها على وجهها الواجب واللائق، في أوقاتها وشروطها وأجزائها ونياتها، وعلى الجملة في قلبها وقالبها فهم ليسوا بمقيمي الصلاة، وإنما يأتونها: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[2]، أو يقومون إليها: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]. أم هم سكارى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[4] أم ساهون عنها متساهلين فيها فهم بين تاركيها وفاعليها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[5] غير معتنين بشأنها، فلا يقيمونها كما يجب مهما أتوها وقاموا إليها!.

وقد تربو إضاعة الصلاة - غياً - عن تركها، كما يربو الشرك بالله - أحياناً - على الإلحاد في الله، فتارك الصلاة قد يتركها جهلاً بالله أم جهالة في الله، ولكن الذي يصلي إضاعة لها، هو هازئ متهتك بالله رغم

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٦ عن المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن تركوها أصلاً.
أقول: يعني لم يتركوا أصلها وفيه ١١٥ عن الكافي عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] قال: كتاباً ثابتاً وليس أن عجلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الإضاعة فإن الله عزّ وجلّ يقول لقوم: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٥) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

تصديقه، لذلك ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ...﴾ لا «التاركين لها»! وإن كان تركها قد يربو إضاعتها كفراً وعصياناً!.

وكما أن لإقامة الصلاة درجات أعلاها صلاة المقربين، كذلك لتضييعها دركات أسفلها صلاة المبعدين الأسفلين وبينهما متوسطات، فهناك صلاة هي في أحسن تقويم، وأخرى في أسفل سافلين، ثم متوسطات لحد الواجب أم دونه أم فوقه، فما دون الواجب فيها تضييع لها وما فوقه إقامة للراجح فيها.

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾:

الشهوات قد تَتبع إنسانَ العقل الوحي فتصبح رحمات وكما يروى عن الرسول ﷺ «شيطاني أسلم بيدي» وقد يتبعها الإنسان خلاف العقل والوحي فتصبح حيونات ونقمات، ويقول الله: «إن القلوب المعلقة بالشهوات عين محجوبة»[(١)] وقد يشير الرسول ﷺ إلى أخلاف من بعده وتلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ من بعد ستين سنة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر[(٢)].

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن الأشعث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: أن القلوب...

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية..
أقول ولعله يعني ستين سنة من الهجرة حيث أعلن الفسق زمن يزيد بن معاوية وقتل الحسين عليه السلام.
وفيه أخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل الدين قلت: يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا فقلت: ما أهل الدين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات.

ومِمن اتبع الشهوات «من بنَى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور»[(١)] ويجمعه «الدخول في الدنيا واتباع الهوى وشهوة البطن وشهوة الفرج»[(٢)] وفوق الكلِّ شهوة الرئاسة والعلو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[(٣)].

فالشهوات هنا تعمها كلها وأهمُّها شهوة الرئاسة التي تضم سائر الشهوات وتجعل الديار بلاقع.

وذلك النفي والإثبات في إضاعة الصلاة واتباع الشهوات يلقي غياً وعياً: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: في الحياة الدنيا عما خلقت له وهُيِّئت، وفي البرزخ والقيامة عما قدره الله وقرره لعباده الصالحين، غيّاً في الحياة الدنيا يتمثل في نشآت ثلاث ولا سيّما منذ الموت، حيث العمل السيِّء هو الجزاء بملكوته يوم يكشف عن ساق وتبلى السرائر: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٤)] و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٥)] لقد عملتم غياً فسوف تلقَون غياً، جزاءً في نفسه عذاباً وفاقاً! ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[(٦)]:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾:

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات - إلى الله ﴿وَآمَنَ﴾

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١١٧ في جوامع الجامع ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريَم: ٥٩] رووا عن علي عليه السلام من بنى.

(٢) المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سلم من أمتي من أربع خصال فله الجنة: الدخول...

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٤) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٥) سورة النمل، الآية: ٩٠.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

بالله بعدما كفر عملياً كالمؤمن المضيع، أم وعقيدياً كالمضيع الناكر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يجبر ما ضيع، فلا تكفي التوبة دون إيمان ولا إيمان إلّا بصالح العمل فيصبح مؤمناً صالحاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ إذ تُوفّى هناك أجورهم، دون أن يُنقص منها شيء لماضي تضييعهم، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾﴾:

﴿عَدۡنٍ﴾ هو الاستقرار فـ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ هي جنات الآخرة حيث لا خروج عنها وإنما خلود استقرار، وتقابلها الجنات البرزخية غير المستقرة حيث تفنى بفناء الدنيا فيخرج الداخل فيها إلى المحشر ثم إلى جنات عدن، فهذه تبتدىء بفناء السماوات والأرض، وتلك تنتهي بفنائهما ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾(١) والفترة بين الجنتين لا تعتبر جدّاً لعطاء فإنها قلة لا يحسب لها حساب، فانتقاله إلى عطاء أوفى!

﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ وعدهم وهو بالغيب كما وهي بالغيب، والوعد كذلك بغيب الوحي، مثلث الغيب في وعد الرحمن ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ في الغيب، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!... وترى ما هو مكانة ﴿كَانَ﴾ وإتيان وعده سوف يكون؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ في موضع تعليل، فلـ «إنه كان» منذ كان كائن ووعدٌ من الله لايّ كان ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ دون تخلف في أعماق الماضي فليكن مأتياً في المستقبل وهو أهون عليه.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾:

ليس فيها لغو حتى يسمعونه، إلّا سلاماً، استثناء منقطع يجتث أي لغو

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

فيها ويقطعه ويخص مسموعها بـ ﴿سَلَٰمًا﴾ ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[(١)] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝﴾[(٢)] ولأن ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[(٣)] فـ «تحية» هنا سلام وليكن سلاماً» غير التحية من قول سلام، إن المسموع فيها كله سلامٌ إخباراً ودعاءً أمّاذا، لا ألّا كلامَ فيها إلا سلام، فهم إذاً خرس عن أي كلام إلّا السلام! وإنما كلامهم لا يعد وكلاماً سلاماً من تحية أم أي سلام!

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وهل في جنات عدن بكرةٌ وعشي؟ لزامهما شمس طالعة وغاربة! والشمس مكوّرة عند قيام الساعة!

هذه الشمس تكور ثم تخلق شمس أخرى يستظل أهل الجنة بظلالها عنها: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[(٤)] ولا ظل إلّا عن ضوء و﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[(٥)] فلتكن في الآخرة شمس وزمهرير لا يرونهما، كميِّزة لأهل الجنة عن أهل النار، فلو لم تكن هناك شمس ولا زمهرير فأهل الجنة والنار على سواء في «لا يرون»!.

وإذا كانت هناك شمس فلتكن طالعة وغاربة وأهل الجنة لا يرونها فإن «ظلها دائم» ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ كأصول الأوقات الصالحة للأكل وإن كان فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين و﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾[(٦)] يأكلون متى شاؤوا ولا سيما بكرة وعشياً، أو قد يعني: دوام الأكل كما يقال: أُكُل الجنة صباح مساء، يعني أنها مستمرة في الأوقات كلها.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٥.
(٥) سورة الإنسان، الآية: ١٣.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

ودلالة آية الغدو والعشي وآية المقيل بقرينة قاطعة فيها على البرزخ[١] لا تقتضي دلالة آية البكرة والعشي على ما دلتا، وهي محفوفة بقرينة من قبل «عدن» ومن بعد «نورث» تدل على القيامة.

جنة البرزخ مؤقتة ما دامت الدنيا فليست عدناً ولا سيما للداخلين فيها قبيل الساعة، ووراثة جنة عدن تعني البقاء فيها من بُعدين، إذاً فهي جنة الآخرة، و﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾[٢] دليل وجود الشمس فيها مستورة، ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليل كونها طالعة غاربة، اللهم إلّا أن يدل ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[٣] على دوام النهار فليس فيها - إذاً - بكرة وعشي، ولكنهما نص على شمس طالعة وغاربة، فليقيد دوام ظلها بأوقات النهار[٤] فالرواية المنسوبة إلى الرسول ﷺ[٥] تؤوّل! أو يقال يكفي في كونها عدناً مواصلة

(١) كقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٤، ٢٥].

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٤) فكما أن دوام الأكل لا يعني دوام الآكل وإنما تهيؤ الأكل، للآكل، كذلك دوام الظل لا يعني إلا الأشجار الملتفة التي تمنع من إصابة الشمس، فقد يكون ظل غير دائم كالأظلال المؤقتة المتحركة كالشمسيات أو السحاب أو السقف الثابتة ولكنها ظل ما دمت تحتها، ولكنما الأشجار الملتفة هي دائمة الظل.

(٥) الدر المنثور ٤ : ٢٧٨ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل يا رسول الله ﷺ! . هل في الجنة من ليل؟ قال ﷺ: وما هيجك على هذا؟ قال: سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] فقلت: الليل من البكرة والعشي! فقال رسول الله ﷺ: ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرماح على الغد وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات إلا أنه يزف إلى ولي الله تعالى فيها زوجه من الحور العين أدناهن التي خلقت من زعفران.

الجنتين لحد يعبر عنها بعطاءٍ غير مجذوذ في الجنة البرزخ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[(١)] ثم الغدو والعشي علهما يختصان بالجنة البرزخية، ثم لا غدو وعشياً في جنة الآخرة، وإنما شمس طالعة دون غروب «ظلها دائم» في دوام الطلوع!

ثم ورزق البكرة والعشي خير الرزق ف «تغد وتعش ولا تأكل بينهما شيئاً فإن فيه فساد البدن»[(٢)].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾:

هل هي ميراث من الله لأهل الله؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾! ولا يموت أو ينعزل عن ملكه حتى يورث! أم هي ميراث ممن أدخل النار إضافة إلى ما يملكه أهل الجنة؟ ولم يكن لأهل النار نصيب من الجنة!.

إنه «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة»[(٣)] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

فقد كان منها منازل للذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ثم لم يتوبوا فأورثها الله من كان تقياً، فليست الجنة - إذاً - وراثة النسب إذ تنقطع هنالك الأنساب وتتقطع الأسباب، اللهم إلّا سبب التقوى حيث يورث أهلها منازل أهل الطغوى الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات!

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٥١ ح ١٢٠ في محاسن البرقي عن ابن أخي شهاب بن عبد ربه قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع والتخم فقال: تغد.. أما سمعت قول الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] ورواه في كتاب طب الأئمة عن محمد بن عبد الله العسقلاني عنه عليه السلام.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:.. - ثم قال -: وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الزخرف: ٧٢].

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧٢.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾:

هاتان الآيتان تلمحان أنهما معترضتان بين آي السورة، ترى أنهما من كلام الله؟ وهو لا يتنزل! وليس له رب! ولا له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك! أم من كلام أهل الجنة وليس دخلوها تنزلاً إليها فإنه تصاعد وتعالٍ، ولا يخرجون تنزلاً عنها، ثم ولا يناسبهم بقية القول إذاً فهما من كلام ملائكة الوحي أم أولاهما، كأن هناك سؤالاً، لماذا ذلك التباطؤ في التنزل بالوحي أم قلته[1] والجواب ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ...﴾ والواو فيها لمحة إلى معطوف عليه محذوف كـ«ما تباطئنا من أنفسنا أم تقلّلنا ولا قليناك أو نسيناك.. بل.. وما نتنزل إلا بأمر ربك..» ليس تنزُّلنا بالوحي إلّا لتربيتك، فأنت الأصل الرسولي ونحن الفروع الرسالي، وهو يعلم كيف ومتى وبماذا

(١) وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس قال: سئل النبي ﷺ اي البقاع أحب إلى الله وأيها أبغض إلى الله؟ قال: ما أدري حتى أسأل جبرائيل وكان قد أبطأ عليه فقال: لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أن بربي علي موجدة فقال: وما نتنزل..

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبرائيل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل فقال النبي ﷺ: ما نزلت حتى اشتقت إليك فقال له جبرائيل: أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له: وما نتنزل إلا بأمر بك..

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: احتبس جبرائيل عن النبي ﷺ بمكة حتى اشتد حزنه عليه فشكى ذلك إلى خديجة فقالت خديجة: لعل ربك ودعك وقلاك فنزل جبرائيل بهذه الآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] قال: يا جبرائيل احتبست عني حتى ساء ظني فقال جبرائيل: وما نتنزل إلا بأمر ربك..

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: لبث جبرائيل عن النبي ﷺ اثنتي عشرة ليلة فلما جاءه قال: لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت الآية..

وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل عليه السلام: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت الآية.

ينزّلنا، فـ ﴿رَبِّكَ﴾ لا «ربنا» ولا «رَبِّ الْعالَمِينَ» يوصل ذلك الوحي إليه من الله حيث يربيه التربية القمة بذلك الوحي المجيد.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ بالوحي أماذا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ليس لنا من الأمر شيء كما ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] وكياننا نحن وأنت وجاه ربك: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو يشمل الكون أجمع أياً كان وأيان! ـ: فـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبله من زمان ومكان أو كائن فيهما أياً كان ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما نستدبره كذلك - ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ من أنفسنا وإياك وما نحمله من وحي من أو إلى - كل ذلك له لا لنا ولا لك ولا لسوانا، ومما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ما نتنزل به من وحي، فليس استنزاله لك ولا التنزل به لنا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كما وأن القول ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ...﴾ أيضاً ليس ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فلسنا نحن إذاً مقصرين في تباطؤ الوحي عليك واحتباسه عنك.

وأما ربك فلا ينزّلنا بالوحي لا بحكمة الربوبية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يودّعك نسياً أو يقلاك تناسياً: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[2]!

فـ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ نفى عنهم التقصير ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ نفاه عن الرب وعن الرسول ﷺ فلا بد من حكمة خفية في البين، فلا هو نسيٌّ ينسى مقصراً، ولا أنه نسيٌّ يتناساك غضباً، ويتمثل ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ في ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ حيث التوديع نسيان، والقلى تناس غضباً، ولقد كان حقاً للرسول ﷺ أن يستوحش من إبطاء الوحي لاشتياق نفسه للاتصال الحبيب بوحي الحبيب.

ثم و﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عبارة أخرى عن ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وعلّه من كلام الله ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ تفريع لتوحيد العبودية على توحيد الربوبية ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أمر باستقامة العبادة ومنها تنزل الوحي عليه رسولياً ورسالياً، فعليه الاصطبار مهما احتبس عنه لفترة قصيرة أم طويلة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ من الاسم لـ «الرب» أو «الله»[1] فهل تعلم له رباً سواه يشاركه في ربوبيته، ومن السموّ، هل تعلم له مشاركاً في سموّه رباً لكل شيء، ليس له شريكٌ في اسم الرب فضلاً عن حقيقته وسمته، والربوبية المطلقة الوحيدة لساحته المقدسة تقتضي عبادته وحده، والاصطبار لعبادته وحده!

هنالك للمثول الدائب بين يدي المعبود بوحيه الحبيب وتلقي رسالته، عبادة دائبة واصطبار لها، فاعبده واحشد نفسك في سبيلها لتحّمل أعباء وعناء، تجرداً عن كل شاغل، وتمرداً عن كل حائل، وتحفزاً بكل جارحة وخالجة.. وليكن كلّك عبادة لربك، بحالك ومقالك وأفعالك، بحلّك وترحالك، والعبادة في حواجز الشيطنات وعوائق بوائق تحول دونك وعبادة ربك، إنها بحاجة إلى اصطبار باستمرار، ولتصل إلى ساحة القرب فلا تحس بغربة وكربة حين انقطاع الوحي! فـ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ تسمّيه أو يتسمى باسمه أو تسمو إليه؟!.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)﴾:

﴿الْإِنسَانُ﴾ هنا نوعه بطبعه وعقله المكسوف بطوع الهوى، كما الإنسان

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٥٢ ح ١٢٥ في كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه لرجل سأله عما اشتبه عليه من آيات الكتاب وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] - فإن ربنا تبارك وتعالى علواً كبيراً ليس بالذي ينسى ولا يغفل بل هو الحفيظ العليم... وأما قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فإن تأويله: هل يعلم أحد اسمه الله غير الله تبارك وتعالى..».

في ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[(١)] وقد يصح تسميته إنساناً لأن الله تعالى عهد إليه فنسي[(٢)] أن أصله انسيان: افعلانٌ من النسيان[(٣)]، وقد يؤيده هنا ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وكما في سائر القرآن[(٤)] فالإنسان بنسيانه فطرته وفكرته، أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً، يبتلى بهذا السؤال الاستبعاد الاستنكار.

«ويقول» دون «وقال» لمحة إلى استمرارية هذه المقالة للإنسان أياً كان وأيان إلّا من تذكر..

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ النسيانُ مهما نسي سائر الأدلة الآفاقية والأنفسية على أنه سوف يخرج حياً ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟ والواو هنا عطف على ما لم يذكر مما يجب أن يُتذكر من دليل، وقد ذُكر الأعم ذكراً والأقرب تذكراً، الذي يصدقه كل عاقل ومجنون: أنه خُلق من قبل ولم يك شيئاً، فهل أن بدءَ الخلق أهون أم إعادته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٥)] أهون عليه في حسابنا، وأما في حساب الله فكله هين لا صعوبة فيه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[(٦)].

---

(١) سورة العصر، الآية: ٢.

(٢) لسان العرب ج ١ ص ١١٢ - رواه عن ابن عباس.

(٣) المصدر قاله أبو منصور وهو مثل كيل اضحيان من ضحى يضحي وقد حذفت الياء فقيل إنسان.

(٤) كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] فحين يمسه الضر يذكر ما تخبأ في فطرته فلما كشفت عنه ضره ينسى ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩] ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] وهكذا نرى في الكثير من (٦٥) مرة يذكر الإنسان في سائر القرآن يقرن بنسيان الفطرة وسواها مما يجب عليه أن يتذكرها.

(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٦) سورة ق، الآية: ٣٨.

أترى ماذا يعني ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟ هل إنه خلق الإنسان كسائر الخلق لا من شيء كان فخلقه للمادة الأولية في أصلابهم، حملٌ لنا و﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[1] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[2] فالذي خلق الأشياء - كمادة أوّلية - لا من شيء ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾: «في كتاب ولا علم»[3] هو قادر على أن يخلق الإنسان مرة ثانية وهو شيء بروحه الحي وجسمه التراب أمّاذا؟.

أم إنه خلقُ الإنسان الاوّل من تراب ولم يك شيئاً إنسانياً «لا مقدراً ولا مكوناً»[4] وإنما هو تراب، فخلقه وهو روح وتراب أهون عليه.

أم إنه خلق كل إنسان - بعد الأوّل من نطفة ثم... ولم يك شيئاً مذكوراً ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[5]؟

كل ذلك خلقٌ للإنسان من قبل، ففي الأول - حيث المادة الأولية - لم يك شيئاً في كتاب التكوين حيث الشيئية كانت للمادة الأوّلية، ولا في العلم في علم غير الله، إذ كان الله ولم يكن معه شيء وقد كان في اللوح المحفوظ حيث لا يعزب عنه شيء!

وفي الثاني كان في كتاب التكوين والعلم المفصول ولم يك مقدراً إنسانياً كسيرة الخلقة، ولا مكوّناً إنسانياً وإن كان كنطفة.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١١.
(٢) سورة يس، الآية: ٤١.
(٣) محاسن البرقي عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال عليه السلام: لم يكن شيئاً في علم ولا كتاب».
(٤) في أصول الكافي عن مالك الجهني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: «مقدراً ولا مكوناً».
(٥) سورة الإنسان، الآيتان: ١، ٢.

وفي الثالث «النطفة» لم يك شيئاً مذكوراً يحق ذكره كإنسان، أو يليق بالذكر لمكان قذارة النطفة، مهما كان مقدراً في طريقه إلى التكامل، ومكوناً كخطوة أولى من كينونته فقد «كان شيئاً ولم يكن مذكوراً»[١] «كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق»[٢] [٣] أو «كان شيئاً مقدراً لمّا قدّر من نطفة أمشاج ولمّا يكون إنساناً!

وقد تعني الآية كل هذه الثلاث، على اختلاف دلالاتها، على أن الخلق المعاد أهون عليه»، ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ إذ خلقنا أوّل خلق - وإذ خلقنا الإنسان الأول - وإذ خلقنا النطفة ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ - أم شيئاً مقدراً لخلق الإنسان كسيرة مستمرة مثل النطفة - أم شيئاً مذكوراً مهما كان نطفة!، وإن كان ﴿شَيْـًٔا﴾ في سياق النفي تستأصل كلّ شيئية كما في الخلق الاوّل، ولكنها تتحمل نفي الشيء الإنساني كالأخيرين، ضمن أصل الشيء كالأول، وقد تؤيده ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[٤] وبرهان المماثلة الأولوية يثبت إمكانية المعاد، وبرهان العقل العدل والنقل يثبتان معه ضرورته!

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾:

(١) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر عليه السلام عن الآية فقال: . . وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليه السلام مثله.

(٢) عن سعيد الحذاء عن الباقر عليه السلام: . . . .

(٣) الكافي بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فقال: لا مقداراً ولا مكوناً» وسئل عن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ . . .﴾ [الإنسان: ١] قال: كان مقدراً غير مذكور.

(٤) سورة مريم، الآية: ٩.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ تحمل برهاني العدل والنقل، فربوبيته تعالى ولا سيما الرسالية المحمدية تقتضي الحشر والجزاء، فلولا الحشر لبطلت الربوبية الحكيمة العادلة وبطلت الرسالة المحمدية وما دونها، فليس القَسم هنا إلّا بأدلّ دليل على ضرورة المعاد، وقد تمت البراهين الأربعة: إمكانية بالأولوية، وضرورة بأصل الربوبية العدالة - ضرورة أخرى بالربوبية الرسالية المحمدية فلولا الحشر لبطلت - والرابع هو النقل الحامل لهذه الثلاث!

ترى ومن هم الشياطين المحشورون معهم؟ إنهم ﴿شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[(١)] وهم ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[(٣)]:

هم دركات كما الشياطين دركات وقد تربو شيطناتهم على شياطينهم أو هم على سواء أم دون ذلك طرائق قدداً، والله يحشرهم وإياهم من أجداثهم:

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: بروكاً على رُكَبهِم ذلاً وانكساراً، وإجماعاً حولها كالتراب والحجارة ترذلاً وانحساراً[(٤)] والثاني يعني الأوّل تضمناً، فهم إذاً حول جهنم ناظرين حكم أحكم الحاكمين، فإذا ادّاركوا حولها جميعاً ركاماً بعضهم على بعض ننزع منهم صلاءَ الجحيم ووقودها، التي يتّقد بها ويُحرق سائر أهل الجحيم:

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾: : هنالك أئمة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٤) الأول أصله فعول جمع جاثي وهو البارك على ركبتيه - والثاني عن ابن عباس أنه جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة. وقد يناسبه ما أخرجه عبد الدين أحمد في زوائد الزهد والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال: قال رسول الله ﷺ: كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين.

الضلالة وأشياعهم، ولا يختص وقود النار بالأصَلاء بل ومن الفروع ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ لننزعن للوقود ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ تمرداً وعصياناً، لنجعل وقوداً على وقود فنركمه جميعاً، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ والصِلى مصدر صلى: الوَقود، فمن الوقود ما هو في أصول الجحيم، وهو أولى بها صلياً، ومنه ما هو في سائر الجحيم وهو دون ذلك صلياً: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1] ثم لا وقود إلّا من يتقد من فروع الضلالة:

صحيح أنها ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾[2] ولكنما الوَقود أن هما الأشقى بالنسبة لسائر الأشقياء مهما كان الأولون هم أولى بها صلياً، فننزع الأشد على الرحمن عتياً ليس لأصل الدخول في الجحيم حيث هي مكان العاتين أجمعين، فليس النزع إلّا لِصلاء الجحيم، ولكن ليسوا في صلائهم سواء ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾! فهناك وليٌّ للصِليّ وهنالك أولى لها!

وآيات الصلي كلّها شاهدة على أنها لا تعني مجرد الدخول في النار ولا سيما آية الأشقى فإنها تحصر صليها بالأشقى، فلو أنه الدخول فغير الأشقى إذاً - لا يدخلها!

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾:

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ خطاب صارم لكافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، فلا يختص بأصحاب الجحيم إذ ليس منهم المتقون الناجون من الواردين[3]

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٢) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٨٢ أخرج ابن سعد وأحمد وهناد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري والطبراني وابن مردويه عن أم مبشر قالت: قال رسول الله ﷺ: لا يدخل =

﴿وَإِنْ مِنكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ دخولاً فإنه نصٌ فيه، لا مروراً أم قرباً مهما عنياً من الورود بقرينة وكما يروى عن الرسول ﷺ «لا يبقى بر ولا فاجر إلّا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت لإبراهيم ﵇ حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1]:

إنهم يرونها على سواء «ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم في رحله كشد الرجل ثم كمشيه»[2] وأحاديث المرور تطرح أم تُأوّل لمخالفتها القرآن والسنّة[3]:

ف «واردها» و﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ و﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ شهود صدق على الدخول مهما كان عذاباً أو رحمة، فلا عذاب في مرورها، ولا يذر الظالمين مارين عليها، وإنما هو الورود للجنة والناس أجمعين:

= النار أحد شهد بدراً والحديبية قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١]؟ قال ﷺ: ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريَم: ٧٢]؟

وفيه عنه ﷺ قال: من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١].

(١) الدر المنثور ٤: ٢٨٠ أخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال: وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه - صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى...

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن الأنباري والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: يرِد الناس كلهم النار ثم يصدرون...

(٣) مثل ما في الدرِ المنثور - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يقول: مجتاز فيها.

أقول لم يقل مجتاز بها - بل - فيها، مما يدل على الورود، فبعض يردها ورود الاجتياز كالمقربين وآخرون يصدرون عنها بأعمالهم ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريَم: ٧٢].

﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] و(٣٢: ١٣) مِلءٌ دون استثناء، وإنما يستثنى، المتقون عن عذابها دون ورودها وملئها!:

.. وقد تلمح ﴿وَارِدُهَا﴾ دون «يردها» إضافة إلى حتمية الورود باسم الفاعل، إلى انسلاخ ذلك الورود عن الزمان فقد يشمل مثلث الزمان يوم الدنيا والبرزخ والقيامة، فـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ مثلث الجحيم فالدنيا بشهواتها ولهواتها جحيم كما البرزخ والقيامة نتيجةً لها، ولكنما الذين اتقوا منجّون عنها، عن بواعثها يوم الدنيا حيث يتقون موجبات النار، وعن كوارثها في برزخها يوم البرزخ وعن نار الخلود يوم الخلود، إذاً فهنالك مثلث للورود، مهما كان فيما سوى الأخير ورود الاجتياز لفترة قصرت كما الدنيا أم طالت كما البرزخ، ومن ثم ورود في مختلف درجاته أو دركاته بمختلف الاستحقاقات والتخلفات!

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فـ «ربك» وهو في أعلى درجات الربوبية يورد كلاً في الجحيم الأخرى كما أوردهم في الأولى، ثم ينجي كلاً هناك كما نجي «بالتقوى» هنا، ولكي يرى المتقون سجن المتمردين فتكون لهم حظوة، ويرى المتمردون المتقين فتكون عليهم حسرة، وهذه قضية الربوبية القمة ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ المحتومة بما حلف: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]! فقد كتب على نفسه عموم الورود في الجحيم بربوبيته كما ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾[3] ومن الجمع الرحمة قضية الربوبية الجمع في الجحيم!

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ والفترة المستفادة من «ثم» درجات حسب درجات

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

التقوى كما سبق عن الرسول ﷺ «فأولهم» كلمح البرق - وهو منهم - وآخرهم كمشية، وهم أخر من ينجّى مهما بقي ردحاً فيها، وإن كثيراً كالخالدين غير الآبدين فيها، فـ «ثم» تعم اللّمحة إلى الخلود غير الدائب! ولكن:

﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ قد تخرج المعذبين في النار عن المتقين وهذا هو الحق، وبقاء الظالمين يشمل بَعد المشية إلى الخلود وإلى الأبد، فلا تعني «ثم» إلّا اللمحة إلى المشية، ثم الباقون هم الظالمون على دركاتهم! ويا ويلنا ونحن كلنا واردوها وهذا يقين، ومَن هذا الذي يخرج منها وليس إلّا شكاً بعد يقين، اللهم الّا ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ولا تنقض اليقين بالشك بل انقضه بيقين مثله، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «فقد علمت أني وارد النار ولا أدري كيف الصدور بعد الورود»[١].

ولقد أثرت هذه الآية في أصحاب الرسول ﷺ أثراً بالغاً يدهشهم فـ «إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاك إنك وارد؟ فيقول: نعم! فيقول: هل أتاك إنك خارج؟ فيقول: لا فيقول: ففيم الضحك؟[٢] أجل وإن يقين ورود النار لا يقطعه إلا يقين التقوى المنجية عن النار، وقد بينها الله في كتابه المبين، ونحن

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير قال: لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشام أتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة لكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية... فقد علمت...» وفيه أخرج ابن المبارك وأحمد في الزاهد وابن عساكر عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما نزلت هذه الآية ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى فجاءت المرأة فبكت وجاءت الخادمة فبكت وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون فلما انقطعت عبرتهم قال: يا أهلاه! ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لا ندري ولكن رأيناك بكيت فبكينا قال: إنه أنزلت على رسول الله ﷺ آية ينبئني فيها ربي تبارك وتعالى إني وارد النار ولم ينبئني إني صادر عنها فذاك الذي أبكاني.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا...

كلنا - إلا المعصومين - سوف نردها، وهل ننجو منها؟ الله أعلم! إذ لا ندري هل تختم عاقبة أمرنا بالتقوى فنموت أتقياء، أم دون ذلك، فعلينا إذاً الجهاد الدائب في التقوى مستعيذين بالله من كلّ شيطان رجيم!

ولا تُناحر آيةُ الورود آيةَ الإبعاد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[١] بل وتناظرها، حيث الإبعاد ليس إلّا بعد الورود أو القرب، وآية الورود تبعدهم عنها بعد الورود، فـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ تعني ما تعنيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ - ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾[٢]:

تتلقاهم الملائكة إلى الجنة حين ينجّون ويبعدون عن النار، دون أن يسمعوا حسيسها، ودون أن يحزنهم الجحيم، بل وقد يفرحون بما رأوا سجن المتمردين رحمة على رحمة، وكما هي على أهل النار عذاب فوق العذاب! فالنار إذاً للمتقين خامدة[٣] مهما كانت لأهلها محرقة اللّهم إلّا حيناً كلمحة، وهنالك جَثْوٌ حول جهنم للظالمين وجثوٌ آخر فيها لهم وأين جثوٌ من جثوٍ:

إن الذين هم أوّل المقذوفين في الجحيم يردون تصلية للجحيم، من أئمة الضلالة ومن كل شيعة هم أشد على الرحمن عتياً، وطليعة الصادرين من كل الواردين هم الرسول ﷺ وأئمة الهدى وسائر النبيين من المقربين وطائفة من أصحاب اليمين، وبينهما متوسطون من الصادرين والباقين:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٢، ١٠٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٢٤٤ عن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة فقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة.

وترى لماذا غير الظالمين يردونها حتى يُنجَّوا منها؟ إن ورودهم فيها لهم حظوة رحمة حيث يرون سجن الظالمين مبتهجين أنهم لم يردوها معذبين فإنها لهم برد وسلام وللظالمين حرق وإيلام!:

وقد يتحدث المسيح عليه السلام فيما ينقله برنابا الحواري عن هذا الورود العام:

(أجاب يسوع: «يتحتم على كل أحد أياً كان أن يذهب إلى الجحيم (٨) بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون إلى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقاباً أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلّا الخوف (١٠) وماذا أقول لكم؟ أفيدكم أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله (١١) فترتعد ثمة الجحيم لحضوره (١٢) وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم (١٣) ولكنه لا يقيم هناك إلّا طرفة عين (١٤) وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله (١٥) ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقيد قائلاً بعضهم لبعض: اهربوا فإن عدوّنا محمّد قد أتى (إنجيل برنابا ١٢٦: ٧ - ١٥):

ثم في الآيات ١٧ - ٢١ - تصريحات أن من مات على دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمصيره إلى الجنة وإن كابد العقوبة للأعمال السيئة وترك الصالحات فإنه بالمآل ينتقل إلى الجنة بدعاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن عذب في نار البرزخ والقيامة كما يستحق:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾:

هرطقة نكراء وطنطنة خواء في قولة هراء من الذين كفروا للذين آمنوا في حوار دائبة بتراء تضللهم أو تقلل من إيمانهم، ولكنما المؤمن حق الإيمان لا يتزعزع بهذه الزلازل، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف!

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ لا يتفهمونها وهم يسمعون، مبتهجين ومتبجحين بالقيم المادية الفانية قائلين: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ منا الكافرين ومنكم المؤمنين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾: قياماً في هذه الحياة بوسائلها المتوفرة لدى

الناشطين، وقواماً فيها، ومكاناً لكل قيام وقوام، فمن هو خير في مثلث ﴿قِيَـٰمًا﴾ «ثم» ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: نادياً لتنادى الشورى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾[1] في مصالح الحياة! ونادياً لكل أنس والإتيان بمختلف الشهوات ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[2]؟

إنهم يرونهم في نوادي فخمة ومجامع مترفة بكل ترف وفي كل طرف، وإلى جنبهم تلك النوادي المتواضعة والمنتديات الفقيرة، دون أبّهة ولا زينة وكبرياء فيتقولون لهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وإذا الإيمان بالله يعجز عن إصلاح الحياة الحاضرة فهو عن إصلاح المستقبلة - لو كانت - أعجز!

ومن هؤلاء سادة من قريش، قادة الكفر - كالنضر بن الحارث وعمرو ابن هشام والوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي لهب وإخوانهم المترفين وجاه سادة الإيمان، كبلال وعمار وخباب وأضرابهم من المؤمنين المعدمين ف ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ...﴾؟ ذلك! رغم أنها حكمة الله في صراط الحق أن تظل العقيدة الصادقة مجردة من الجواذب المادية زينة وطلاءً وإغرائاً، ليقبل عليها من يريدها خالصة لحقها دون زخارفها، ويدبر عنها من يبتغي زينة الحياة الدنيا.

هنا يأتي جواباً واقعياً غابراً عن ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ لمحة إلى مصارع الغابرين:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا (٧٤)﴾:

إن القرون الهالكة المالكة هي أكثر مما يملكون و﴿أَحْسَنُ أَثَـٰثًا﴾ الظاهرة، بأحسن منهم مظهراً ﴿وَرِءْيًا﴾ إنها ليست قلة منسية، فعادٌ ﴿وَثَمُودَ

(١) سورة العلق، الآية: ١٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾[1] هؤلاء وأضرابهم هم أحسن منهم أثاثاً ووسائل العيشة ورئياً: منظراً في أنفسهم وأثاثهم وبيوتهم وما يملكون، فقد هلكوا بما ملكوا فأي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً؟!

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾:

﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ غارقا تائهاً ومضى على ضلالته ردحٌ من الزمن فهو لا يهتدي، أترى ماذا يفعل به الرحمن؟! أحملاً على الهدى وهو مصر على الردى؟ أم لا يمده في هوى أو ردى وكفى به - لو أمكن - استمراراً في الردى! أو ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جزاءً وفاقاً إملاءً: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[2] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3] ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ الإملال الإمهال عُمراً وأسباباً، من بنين وأموال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[4] مداً لهم في أسباب العذاب ثم مداً في العذاب ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾[5]!:

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ قبل الساعة كتقدمة ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ التي هي بداية العذاب الأصيل وهنا أو هناك ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عين اليقين ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ وجاه ما كانوا يقولون للذين آمنوا ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ حيث يرون أنفسهم شراً مكاناً رغم

(١) سورة الفجر، الآيات: ٩-١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٥) سورة مريم، الآية: ٧٩.

ما كانوا يزعمونهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ وكانوا في زعمهم أحسن ندياً: نادي الأعوان الجنود ونادي الشهوات، فيرونهم «أضعف جنداً! فلا تنفعهم جنود النوادي أياً كانوا بل يضرونهم كما كانوا يضلونهم»:

فقد زادوا ضلالاً على ضلال في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المرذولين، وأما الذين اهتدوا:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾:

كما هناك مدٌّ للذين كفروا، كذلك هنا مد للذين آمنوا وأين مدٌّ من مدٌّ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]:

فمدّ الهدى يتبنى هدىً قبلها كمدّ الردى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[2] والخير في هذا البين ليس الذي يزعمه الذين كفروا من أثاث ورئي يفنى، بل ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[3] [4]:

الأقوال والأعمال كلها باقية بما يستنسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5] ولكنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً» يثوب ويرجع إلى الإنسان حالاً واستقبالاً، حيث الثواب هو رجوع الشيء إلى حالته المقدرة المقصودة ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مكان ردها وزمانه في الجنة يوم القيامة وما قبلها.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٤) راجع تفسير الآية في الكهف فلا نعيده هنا إلا ما أشرنا إليه.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

وأما الطالحات الزائلات بشهواتها ولهواتها، الباقيات بخطراتها التي هي لزام فاعليها، إنها شر عند ربك عقاباً وشر مردّاً، فمن هو إذاً خير مقاماً وأحسن ندياً وأثاثاً ورئياً وخير مكاناً وأقوى جنداً؟ أهم أصحاب الباقيات الصالحات، أم الزائلات الباقيات الطالحات؟!

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ استفهام عجاب واستنكار في ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيد الربوبية ومعادها والرسالة الإلهية بينهما، كفراً بمثلث الآيات آفاقية وأنفسية.

فرغم أنه ﴿كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلها دون إبقاء، يتميع بما يخيل إليه أنه يتمتع ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هنا أم في الحياة الأخرى، وأنا رابح في الأولى الواقعة، وفي الأخرى لو أنها واقعة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[١].

طنطنة حمقاء، وهمهمة جوفاء، ويكأن وفراً من المال والولد هو جزاء الكفر بآيات ربنا! ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ فيما هنا أم هناك ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ هنا لما هنا وهناك ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فلا غيب له مطلع، ولا عهدٌ عند الرحمن فإنهما أو واحدهما لزامهما صلة عريقة مع الرحمن، وقد ﴿كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فما قولته الجوفاء إلّا طنطنة خواء وهرطقة هراء والله منها براءٌ:

وإنها قولة تكرر من حماقى الطغيان، كأنهم يملكون الكون بمكوِّنه، فهم يحاسِبون بديل أن يحاسَبوا، فكما هم أولاء هنا غارقون فيما يشتهون، كذلك هم في الأخرى - لو كانت - فيما اشتهت أنفسهم خالدون:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

وهل أن ﴿ٱلَّذِى. . وَقَالَ﴾ شخص كافر غابر ليخصه التعجيب التأنيب؟ علّه نعم حيث العبارة العامة «الذين. . يقولون»! أو علّه لا مهما كان مورداً لنزول الآية حيث المورد لا يخصص، فـ «لا تكونن ممن يقول في شيء إنه في شيء واحد».

ويظهر من ﴿كَفَرَ﴾ حادث الكفر بعد الإيمان، أم مزيده دون إيمان، فيعم التعرق في الشرك كالذي خاطب خباب بن الأرت حين طالبه ديناً كان له عليه فأجاب بما أجاب: «موعد ما بيني وبينك الجنة فوالله لأوتين فيها خيراً مما أوتيت في الدنيا»[1] كما يعم ضعيف الإيمان الذي كفر حين خيِّل إليه أن الكفر يجلب مالاً وولداً!

﴿كَلَّاۚ﴾! ليس كما يهرف بما لا يعرف ﴿سَنَكْتُبُ﴾ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ قولة نكراء وهي وبالة عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ هناك ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ بدلاً عن أي مال وولد! ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ لو أوتي هنا أو هناك مالاً وولداً فـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ دون مال ولا ولد فممّ يكون له - إذاً - مال وولد؟!:

---

(١) رواه فيمن رواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ومثله في معناه في الدر المنثور عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله الآية.
أقول تخصيص نزول الآية بموردها هذا بعيد، إلا أن يكون من مصاديقها.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٠.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ۝٨٤ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ۝٨٧ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ۝٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ۝٩٨﴾

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾:

واذلّاه لمن يتخذ من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً، تحطيماً لكرم الإنسانية، وتعزيراً للذليل وتقديماً له على من خلقه الله في أحسن تقويم، كيف يردُّ نفسه بتخيّل العز أسفل سافلين.

أترى العز في ألوهة الأصنام والأوثان والجبت؟ وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أنفسها شيئاً فضلاً عن عابديها!

أم في ألوهة الطواغيت؟ وقد استكبروا عليهم وحطّوا من كرامة إنسانيتهم حيث استخفوهم وسقّطوهم عن كرامتهم!

أم في ألوهة الأولياء من الملائكة والنبيين؟ وهم يرون عزّهم وإياهم في عبادة الله، وليسوا هم ليغنوا عنهم من الله شيئاً إذ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾![1] أم ليعتزوا بهم عند الله، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[3]؟ وفي ذلك مسّ من كرامة الله أن يُتخذوا سلطاناً من دون الله ما آتاهم به الله، وأن يُعبدوا من دون الله إزراءً بساحة الربوبية، وكيف يصلح المبعد مقرباً، أم كيف يطلع البغيض عزيزاً! ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾[4].

فأين ذلك العز الأعز من ألوهة الله وحده وعبوديته؟ وهكذا يكون دور من يستند إلى غير القرآن ويستعين به تاركاً لكتاب الله، معتزاً بسواه لتعزيز دين الله بألقاب براقة مطنطنة، وكلمات عملاقة! هي عن كثير من الحق فاضية خاوية!

«كلا» لا عز هنا وهناك أم هنالك، «وهم» الآلهة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[5]: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[6]. كما وهم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٣) الزمر، الآية: ٣.
(٤) سورة يس، الآيتان: ٧٤، ٧٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ٢٨.
(٦) سورة فاطر، الآية: ١٤.

أولاء ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1]:

وهذا من ألطف الجمع بين ضميري الجمع، سيكفرون بعبادتهم حيث يعم الكفرين واقعاً لا نكير له! ثم ﴿وَيَكُونُونَ﴾ كلٌّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على كلٍّ ﴿ضِدًّا﴾ حيث زيّل الله بينهم فظهر الحق عن الباطل وغُلب هنالك المبطلون!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾:

إنهم تهزهم تحريكاً بشدة وإزعاج هزاً، وتحرضهم على الشر حرضاً، ولو لم يكن الكافر هزاً في نفسه بزاً لم يسطع الشياطين أن تهزهم هزاً.

ولا يعني الإرسال هنا بعثاً إليهم ليضلوهم أكثر مما هم، بل عدم المُنعة عن هزهم، وهو يمنعهم عن هز المؤمنين، وفي «على» هنا دون «إلي» لمحة حيث تعني الاستعلاء، فيذرهم الله في خوضهم يلعبون وفي غيهم يترددون جزاءً بما كانوا يعملون ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

فهو - إذاً - إرسال «على» وليس إرسالاً «إلى» وليس إلّا جزاءً وفاقاً حيث كذبوا المرسلين الصالحين إليهم، فأبدلهم الله بإرسال الشياطين عليهم تؤزهم أزاً.

فليس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فقط في الحياة الأخرى، بل وفي الأولى إذ تؤزهم أزاً وهم يعبدونهم ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾! وفي «يكونون» هنا وجاه «سيكفرون» لمحة لضدهم في الآخرة والأولى، مهما اختص كفرهم - إلّا الصالحين - بعبادتهم في الأخرى.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بفنائهم ودمارهم إذ لا يستقلون ويغلبون أمامنا، فلا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

نمهلهم إلّا عليهم حيث ﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾ سيئاتهم البئيسة وأنفاسهم التعيسة و﴿عَدًّا﴾ كما قدّرنا لهم فالمعدود لهم عداً هو «كل شيء حتى النفس»[١] بل «لكنه عدد الأنفاس»[٢] بما تحمل فيها كل نفس ظالمة من كوارث أنحاس! ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٣].

ليس أمد بقاء الإنسان بتعميره إلّا بلاءً حسناً بتعميره أم سيئاً بتدميره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤].

وليس قصر المدة أم مدّها إلّا كما قدر لكل نفس في صالحاتها وطالحاتها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٥] ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ﴾ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ﴾[٦]:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

إن بين الحشر الوفد والسوق الورد بوناً شاسعاً كما بين المتقين والمجرمين، فالوفد هم القوم الركب الوافدون لزيارة أو استنجاز حاجة وقد «يحشرون على النجائب»[٧] والورد هم العطاش المتحرون عن تروية لهم فلا

---

(١) الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي جعفر محمد بن علي في الآية: . .
(٢) الكافي بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] قال عليه السلام ما هو عندك؟ قلت: عد الأيام، قال: الآباء والأمهات يحصون ذلك ولكنه عدد الأنفاس.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.
(٦) سورة يونس، الآية: ١١.
(٧) في محاسن البرقي بإسناده عن حماد بن عثمان وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال:=

يردون إلّا جهنم ليشربوا من حميمها، هذا لطغواه وذلك لتقواه حيث اتقى يوم الدنيا عن ورد الجحيم، وهؤلاء طغوا وبغوا فلهم - إذاً - ورد الجحيم!:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أن يشفعوا أو يشفع لهم لا أولاء ولا هؤلاء ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ وعامته عهد العبودية ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[1] وذلك تعم الشافعين والمشفع لهم، ثم وخاصته عهد الشفاعة كشافعين ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]:

فلا شفاعة هناك بين العبّاد والمعبودين من دون الله، إذ لا عهد لهم اتخذوه عند الرحمن، وقد زال عزهم المخيّل إليهم هناك، كما لم يكونوا لهم عزاً هنا ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[3] ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]!

= يحشرون على النجائب.

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن شريك العامري عنه عليه السلام قال: سأل علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير هذه الآية قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي! الوفد لا يكون إلا ركباناً أولئك رجال اتقوا الله عز وجل فأحبهم واختصهم ورضي أعمالهم فسماهم الله المتقين..

وروي في حديث آخر تفصيل خروجهم من قبورهم وركوبهم من نوق الجنة ووفودهم إلى الجنة ودخولهم فيها وتنعمهم بما رزقوا من نعمها.

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال صلى الله عليه وآله وسلم: أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وارمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة.

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٨.

(٤) سورة الحج، الآية: ١١.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾:

واتخاذ ولد للرحمن أياً كان حقيقة أو تشريفاً، إنه إدٌّ: منكر فضيح فظيع ﴿شَيْئًا﴾ واقعاً ولن يكون! أم قولاً زوراً فلا يهون.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾:

لولا أن الله يمهل هؤلاء الحماقى الأغباش، لكان تفطُّر السماوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال هداً: في هدم واقع ساقط - واقعاً، إذ هي ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1] فإنهم ﴿لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾[2] ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ فإنه الخالق لكل شيء برحمة رحمانية: فكيف يتخذ ولداً؟ أبولادة؟ وهو خالق وليس والداً، أم بتشريف ولا تشريف أعلى من العبودية، والبنوة التشريفية تزييف لساحة الرحمن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤)﴾:

كلّهم يأتونه عبداً ليوم الدنيا ويوم الدين، طوعاً أتوه أم كرهاً حيث العبودية ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، ومهما هم آتوه هنا بأموال وبنين وسائر زخرفات الحياة زينةً لها وابتلاءً فيها، ولكنهم:

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾:

﴿فَرْدًا﴾ عن كلما لديهم يوم الدنيا إلّا ما قدمت لهم أنفسهم أو عليهم،

(١) سورة الكهف، الآية: ٥.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢.

فهم إذاً فردٌ يومئذٍ عما كانوا يظنون، وشفع بما لم يكونوا يحتسبون، فويل لهم من فردهم وويل لهم من شفعهم، إلّا فرداً عبداً، وشفعاً بعبودية!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾:

إن الإيمان وعمل الصالحات هما في ميزان الله محوران أصيلان للوُدّ الحب، جعلاً له قدَرَهما طول الزمان وعرض المكان، مهما كان ليوم الرجعة والبرزخ واليوم الآخر عرضه العريض كلٌّ حسبه، ولكنما الدنيا أيضاً لها نصيب مهما غشيته أية غاشية، فإنها تبرز في مواردها حجة للإيمان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١):

وفي ﴿سَيَجْعَلُ﴾ الرامية إلى مستقبل قريب تلميح مليح بمثلث الأيام، مهما شمل مستقبل الإيمان وعمل الصالحات منذ بزوغها وأين مستقبل من مستقبل، وأين ودٌّ من ودٍّ؟:

وقد تظافرت أسباب النزول عن الفريقين في قول الرسول ﷺ: إنها نزلت في علي عليه السلام (٢) وهو أعلى منزل لهذه النازلة الفاضلة كتأويل بأعلى المصاديق وأعلى منه الرسول ﷺ فإنه وده فوق ودّه، فهذا - إذاً - تأويل مصداق مختلف فيه في قمة الود، يذكره الرسول ﷺ كأنه فقط ذلك الود وترفيعاً لمنزلته وتثبيتاً لمحتده، وهذا لا ينافي في عموم الآية لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ككل كما هو منطوقها وقد نطق به الرسول ﷺ (٣):

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ١٣.

(٢) القمي بإسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قلت قوله عزّ وجلّ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريَم: ٩٦] قال: ولاية أمير المؤمنين هي الودّ الذي ذكره الله، وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله الآية...

(٣) الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن علي عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريَم: ٩٦] ما هو؟ قال: المحبة في قلوب المؤمنين =

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾:

﴿يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ لا فقط «بلغتك، فمن العربية ما هي صعب التفهم ومن غيرها سهلة، ولكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد ﷺ بياناً له وتبياناً، فيه مثلث بارع من التسير، وهذه سنَّة دائبة للرسل أن يرسلوا بلسان قومهم، لا فقط بلغتهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

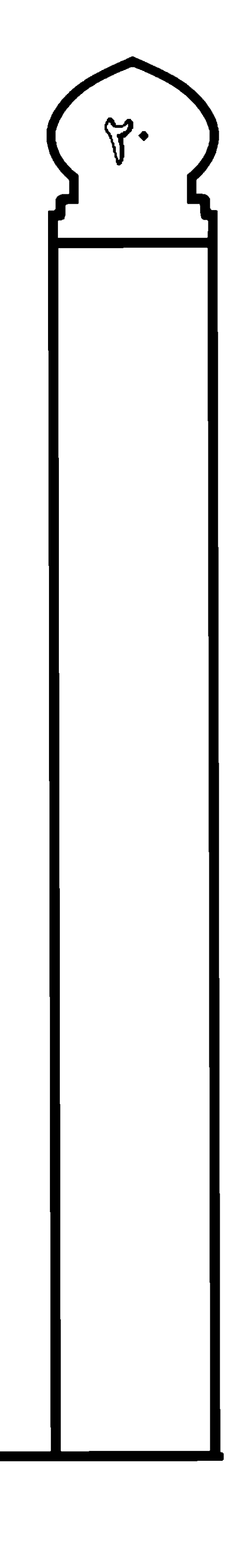
فالتبيين بالقرآن والتبشير والإنذار والتذكار، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تأخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بياناً للقرآن العظيم، الذي «فيه تبيان كل شيء» حاوياً كافة المعارف الممكن التعرف إليها وحياً إلى البشير النذير، تبشيراً للمتقين وإنذاراً لقوم لدٍّ لا يؤثر فيهم التبشير ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3].

﴿يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بعد أن كان عسيراً في أم الكتاب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾[4] تيسيراً للمحكم بتفصيل، وتيسير ثان تفصيله باللغة العربية، وثالث تفسيره ببيان الرسول ﷺ تبيناً للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضاً، وتبييناً ثانياً بسنَّته.

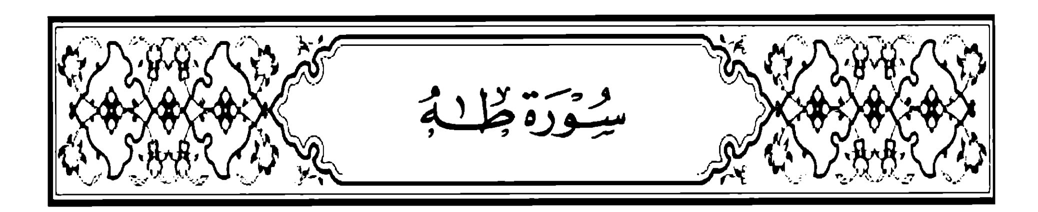
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ جماعات في قرون مضت قِرن بعض وتِلوه ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أثراً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً، فلا صيت لهم ولا صوت، وإنما موتٌ دون فوت.

= والملائكة المقربين، يا علي إن الله أعطى المؤمن ثلاثاً: المتعة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٣، ٤.



سُورَةُ طٰهٰ



مكية وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ

يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾

ملامح السورة ومصارحها برهان قاطع لا مرد له أنها كلها مكية، وفيها من ذكريات التسليات من تاريخ الرسالات ولا سيما الموسوية، ما تُطَمئِن خاطر الرسول الأقدس محمد ﷺ وكما تبدأ به ﴿طه﴾ وتختم به: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ... قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وبينهما قصص موسى وهارون، ثم آدم وزوجه وهما أهم القصص الرسالية ومعارضيها طول التاريخ الرسالي، وأكثرها ذكراً في الذكر الحكيم.

ويا لها من ظل ظليل يغمر غالبية جوها، علوي جليل تخشع له القلوب وتحار دونه الألباب وتخضع النفوس: تجلي الرب بالوحي بالوادي المقدس على عبده موسى كما تجلى بربوات المقدسين على «فاران» حرى! تلك المناجاة الطويلة في بزوغ وحي التوراة، والليل ساكن وموسى وحيد، وكما ناجى محمداً ﷺ في ساكن الليل والرسول وحيد بفاران، وبين الرسولين والوحين والكتابين تشابهات منقطعة النظير عن كل بشير ونذير، مما تربط السورة كلها بهذا البشير النذير.

﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)﴾:

﴿طه﴾ اسم من أسماء النبي ﷺ نداء كـ«يس» «ن»[١] في القرآن أو سواه[٢] وهنا ﴿عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ دليلان اثنان على ذلك النداء، وثانيتهما يبرهن على مدى شقائه في مرضاة الله، هيماناً في الله، وشغفاً في ذات الله، ابتغاءَ مرضات الله، اصطناعاً لنفسه أكثر مما هي، واصطناعاً للمرسل إليهم أكثر مما هم، وكما أمر بالأمرين في المزمل ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . . . إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[٣] فقدم الإمر من الأمرين فقام الليل طويلاً طويلاً حتى تورّمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً[٤]، وكان يربط نفسه بحبل كي لا ينام[٥] ويضع إحدى رجليه على الأخرى[٦] وقد يروى عن أخيه

---

(١) ففي القرآن ما في تفسير البرهان ٣: ٢٩ عن التوحيد للصدوق سعد بن عبد الله عن إبراهيم بن هاشم عن غثم بن عيسى عن حماد الطنافسي عن الكلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال يا كلبي كم لمحمد ﷺ من اسم في القرآن؟ فقلت: اسمان أو ثلاثة فقال: يا كلبي له عشرة أسماء: وما محمد إلا رسول - ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد - ولما قال عبد الله - طه - يس - ن - يا أيها المدثر - يا أيها المزمل - قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً - قال: الذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر..

أقول: وقيل إنه من أسماء القرآن أو السورة أو اسم الله أو مفتاح الاسم الطاهر والهادي، والمصدق منها إضافة إلى أنه من أسماء رسول الله ﷺ مفتاحاً لصفات من الرسول ﷺ واسماً للسورة.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٨٩ - أخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: لي عشرة أسماء عند ربي قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد وأحمد وأبو القاسم والفاتح والخاتم والماحي والعاقب والحاشر وزعم سيف أن أبا جعفر قال: الاسمان الباقيان طه ويس.

(٣) سورة المزمل، الآيات: ١-٧.

(٤) المصدر أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: لما نزل على النبي ﷺ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً فهبط عليه جبريل فقال: طه -. . .

(٥) المصدر أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل كي لا ينام فأنزل الله عليه طه.

(٦) المصدر أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: كان النبي ﷺ يربط نفسه ويضع إحدى رجليه على الأخرى فنزلت طه..

علي عليه السلام : لقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفرَّ وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجلّ : ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾ بل لتسعد[1]، ويؤوَّل «الليل اجمع» هنا بما يناسب آية المزمل كما أمر ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ حيث قلَّل قليل النوم لحد كثير حتى صح القول «يقوم الليل أجمع» فلم يكن مخالفاً لأمر ربه، بل مرجحاً إمر الأمر المخير بين مربعه، ثم «لتسعد» بفتح التاء هي سعادته نفسه بالقرآن، بشقاء العبادة والذكر عن الخشية، وبضمنها هي إسعاده الآخرين، والمعنيان علهما معنيَّان، فتحلِّق ﴿لِتَشْقَىٰٓ... إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ على شؤون النزول كلها.

وهي بطبيعة الحال عتاب حنون يدل على شغفه البالغ لحدٍّ رجح الأكثر مما عليه.

وكما يدل على الجهل البالغ في آباء الجهالات حيث نسبوه إلى الشقاء بنزول القرآن، تركاً لما هم فيه وآباءهم من الجاهليات الساقطة فـ «بل لتسعد» تفسيراً لمقابل «تشقى» ناظرة إلى شأني النزول، فلا هو شقي بنزول القرآن خلاف ما افتري عليه، ولا عليه أن يتعب نفسه به في نفسه وفي دعوته، فقد وضع عنه إصر مثلث الشقاء عناءً، ورسول الهدى من غير السعادة في الشقاء براء.

ففي ذلك الخطاب العتاب الحنون رد على الذين قالوا «لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله طه»[2] وعلّه مثلث الشقاء، وقد يروى عن طه «إن الله

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن الحسين بن علي عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...

(٢) الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن جرير عن ابن عباس وفي تفسير الرازي ٢٢: ٣ قال مقاتل: إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال صلى الله عليه وآله وسلم : بل بعثت رحمة للعالمين قالوا: بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد بأن دين الإسلام هو السلام.

تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا»[1].

ولأن الرسول ﷺ كان دائب العبودية في أصعبها ليطهَّر أكثر وأكثر، وكان دائب الدعوة الصارمة حرصاً على هداهم، ضائق الصدر عن رداهم، كما ﴿لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ لمحة إجمالية عنهما، وفي القرآن المفصل تفصيلهما، فعله لذلك خوطب هنا بطه، إنه الطاهر لقمتها دون شقاء في العبادة، والهادي لقمتها دون شقاءٍ في الدعوة، فهو الطاهر الهادي فلماذا يشقى.

إنه ﷺ الطهارة القمة فهو «ط»[2] وهو الهداية القمة فهو «ه» وذلك بعصمة إلهية بما اصطنعه ربه واصطنع هو نفسه، فتكفيه ما فرض عليه ربه في بعدي العبودية والدعوة دون زيادة وعبءٍ فيه شقوةٌ، فيا له من مكرمة ربانية شغفا بالغاً في تحقيق عُدَّة العبودية وتطبيق المسؤولية في الدعوة، لحدٌّ يقول له ربه قف يا طه. ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ وأنت أوّل العابدين وسيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين.

أم أنه «طالب الحق الهادي إليه»[3] فكذلك الأمر، حيث الطلب بالعبودية لاصطناع نفسه والهداية لاصطناع غيره.

---

(١) المصدر أخرج الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله...

(٢) البرهان تفسير الثعلبي في (طه) قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: طهارة أهل بيت محمد ﷺ ثم قرأ آية التطهير.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وأما طه فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد. أقول: علَّ التاء هنا مفتوحة ومضمومة حملاً على بعدي السعادة لنفسه والإسعاد لغيره.

وأما أن «طَه» كلمة معربة عن لغة «عك» أو النبطية أو الحبشية أو السريانية[١] فغير وجيه ولا صحيح، ومعناها فيها «يا رجل» فكيف يخاطب أوّل العابدين وسيد المرسلين بـ «يا رجل» وهو رسول ونبي في سائر القرآن؟ ومع الغض عن ذلك الغض في مكانته فلماذا لم يأت «يا رجل» في صيغته العربية، انتقالاً إلى لغة أجنبية غير بهية؟!.

ولا أنه بمعنى «طأ» قلباً لهمزته هاءً، قلباً لرجله إلى الأرض بعد رفعها ما رفع، مهما وردت به رواية، فإنها مردودة إلى راويها حيث تنافي القرآن البيان.

كلا! إنه الطاهر الهادي، أو طالب الحق الهادي إليه، كما يروى في أخرى تناسب موقف القرآن لفظياً، والخطاب معنوياً ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾.

ومن الموافقات هنا في منزلة ذلك البدر الساطع المنير أن «طَه» حسب حروف الجمل ١٤.

وهي ليلة البدر، أتراه بعدُ متخلفاً عن أمر ربه في «تشقى» حتى يُنهى هنا؟ كلّا! فإن ذلك كان طبيعة الحال في عبد شكورٍ مثله حتى تأتيه الرخصة تخفيفاً بعد أمره في المزمل وبعد ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[٢] وكما أجاب سائله «يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً»![٣] مما يدل على دؤوبته في صعوبة العبودية على تخفيفه منها بعد طَه، وقد عده الإمام السجاد عليه السلام في

(١) وهي مروية على الترتيب عن الكلبي وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة كما في الدر المنثور.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٥.
(٣) المصدر في أصول الكافي بسند عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله...
قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه ﴿طَه﴾.

مجلس يزيد من مفاخره قائلاً: أنا ابن من هو ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾.

والشقاء منها العناء في طلب الخير تعباً فوق الميسور كما هنا، ومنها العناء من جراء الشر وهي الضلالة في الأولى والأخرى، وساحة الرسول الأقدس براءٌ عنها، و﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ تلمح لمحة لامعة بمناسبة الحكم والموضوع أن نزول القرآن كان له شخصياً ورسالياً منزل الشقاء والعناء ولأنه قول ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فالقول الثقيل يقتضي للمقول له العبء الثقيل، والتعبد الثقيل، دون أن يكتفي بالميسور القليل، ولذلك أخذ يتكبد فيما يتعبد حتى جاء أمر الجليل بالتقليل ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾:

أجل، ليس القرآن مجالاً للشقاء على أية حال، حيث المحور الأصيل فيه في كافة مجالاته وجلواته يُسردون عسر، فإنه ميسَّر للذكر لكل مدّكر فضلاً عن مَنْزِل وحيه ومهبط رسالته: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١) فلا تتجاوز تكاليفُه طاقة الإنسان أياً كان، إذ لا يفرض إلّا ما في الطوق والسعة، نِعمة دون شقوة ونَعمة.

كما أننا ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ في حمل الناس على الهدى، فتغيُّظاً وتضيُّقاً حين لا يؤمنون، واستزادة حين يؤمنون، إذ ليس عليك هداهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولا تك في ضيق مما يمكرون، فإنما الغاية القصوى منه محصورة في:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ تذكرة للمدَّكر، وتبصرة للمتبصر، فـ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(٢)

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٢) سورة يس، الآية: ١١.

والاستثناء هنا من أوصل المتصلات دونما انقطاع، فـ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ في الأولى أو الأخرى، ولا لأمور أخرى ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ومما يشهد لذلك الحصر أن الذكر هو من أسماء القرآن الأصيلة، ذكراً لكافة الآيات آفاقية وأنفسية جملة وتفصيلاً.

وقد تتوسع ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ وما أولاها، إلى أنك تشقى وتتعب في نفسك ودعوتك تذكرة لمن يخشى، حيث تنذر به قوماً لداً، فما شقاؤك وعناؤك كرسول إلّا للذكرى، وأما أنت يا رسول الهدى فقد يكفيك ما أنت دون نَصَب في تعبدك فإنك ﴿أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾[1].

فالمعني إذا - ضمن ما يُعنى - ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ هكذا ﴿إِلَّا﴾ شقاءً وعناءً ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ بهذا القرآن ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾! فلولا تعب المذكر في اصطناع نفسه ثم المحاولة في اصطناع غيره، لم تكن التذكرة تلك الكافية البالغة لمن يخشى.

والخشية هي الضراعة في الجوانح كما الخشوع للجوارح، وهي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يخشى منه فـ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[2] وعلى ضوئها الخشية من الحياة الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾[3]: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾[4].

فحين لا تكون خشية فحَمل القرآن حِملٌ وشقاء، وإذا جاءت الخشية فحمله نعماء مهما كانت فيه من عِناء، وأنت يا أوّل العابدين في شغف بالغ من خشية الله، يسهل عليك كل عناء في سبيل الله، ولكن لا عليك أن تشقى بالقرآن فوق ما عليك.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.

ولأن التذكرة ليست إلّا عن غفلة، فلتكن مادتها موجودة لمن يخشى، وهي كذلك لمن يخشى ومن لا يخشى، حيث الفِطَر مفطورة على معرفة أصول المعارف الدينية، والعقول الصافية الضافية تتبناها في نضدها ونضجها، استيحاءً من وحي الله التي يكملها ويفصلها، فالعقول تأخذ من الفِطَر بشمائلها الميمونة، ومن الوحي بأيمانها الميمونة، وذلك المثلث البارع ينتج ديناً بارعاً لا عوج فيه ولا ريب يعتريه.

وهكذا يكون القرآن تذكرة بالفعل لمن لم تحجب فطرته، ولم تُكسف عقليته، فهو خاش للحق، متحرٍ عن الحق، متربص تشريفه ليتذكر ما استغفل، ويكتمل على غراره ما هو قاصر، فمن يخشى وهو يسعى فالقرآن له ذكرى، ومن لا يخشى وهو يتلهى لم يكن له ذكرى، باقياً في غفلته، باغياً في غفوته وشقوته.

وترى لماذا التعبير عن عبء التعب بـ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ دون صيغته الأصيلة السائغة للكتاب البيان؟ لأنه لا يعني - فقط - منعه ﷺ عن التعب البالغ في بعدي الرسولية والرسالية، بل وجواباً عما افتري عليه: «إنك لتشقى حيث تركت دين آباؤك» إذاً ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ بيان مجمل جميل عن هذا المثلث، سلباً للشقاء عناءً وغير عناء، وتثبيتاً لشقائه وعنائه بعض الشيء تذكرة لمن يخشى.

إذاً فشقاؤه ﷺ في ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ بين موجبة وسالبة، موجبة دون الحرج تذكرة لمن يخشى، وسالبة حدَّ الحرج إذ تورمت قدماه، وسالبة ثانية هي فرية المفترين عليه أن في نزول القرآن شقاءه إذ خرج عن دين الآباء!.

وطبعاً ليست «لتتعب» لتعني ما عنته ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ من مثلث المعنى المعني حسب شؤون النزول هنا.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾:

ذلك القرآن المنزل عليك ذكراً وتذكرة لمن يخشى، حقاً فيه الكفاية

لكل تذكرة، دونما حاجة إلى نسخ أو تكملة، لأنه ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فكما أن خلقه التكوين يعم الكون كله، كذلك كتابه التشريع التدوين يشمل الخلق كله ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ في كل ذكرى تتطلبها الحياة الإنسانية العليا على مدار الحياة ومرّ الزمن.

وكما ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ سيطرة مَلِكية ومالكية على الكون كله، كذلك كتابه العظيم مسيطر في ذكراه على العالمين أجمعين.

وهنا في ﴿تَنزِيلًا﴾ وجوه عدة وجمعها أوجه: نصباً على المفعولية لـ ﴿يَخْشَىٰ﴾ حيث يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى».

ونصباً، بدلياً عن «القرآن»: ما أنزلنا عليك القرآن.. تنزيلاً، وثالثاً على المدح والاختصاص: نخص تنزيلاً... وذلك الاختصاص هو الذي يؤهله للتذكرة العامة الدائبة، ورابعاً على الحالية للقرآن المُنْزَل، ومربع المحتملات محتملات تحتملها الآية لفظياً ومعنوياً.

وهنا تَقَابُل الأرض للسماوات العلى يلمح أنها جنس الأرض الشامل للأرضين السبع، كما تلمح له ثانيةً ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فهما - إذاً - تعبيران عن الكون كله ككل كتاب التكوين، تأشيراً عشيراً أن القرآن هو كل كتاب التدوين.

وإشارة أخرى، الأرض هي أراضي القلوب خاشية وغاشية، والسماوات العلى هي القرآن حيث تضم كل سماوات الوحي، يحمله الرسول الخاتم ﷺ، فلا شقاء للسماوات العلى أن تمطر غزيرة الوحي الهاطل على أراضي القلوب، ثم لا شقاء للقلوب في تقبلها تلك الأمطار، لا شقاء العناء ولا غير عناء، مهما شقيت قلوب مقلوبة خاوية عن الهدى، مليئة بالردى.

ثم ﴿ٱلْعُلَى﴾ في مواصفة «السماوات» دليل علوها على الأرض كلها

حول أكنافها، محيطة بها، حائطة لها، منزلة عليها من مائها وسائر رحماتها، إذاً فالأرض محاطة بالسماوات فمدورة كما السماوات، سائرة حائرة في خِضمِّها، غير مائرة في حراكها حيث ﴿ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾(١).

فكما الأمطار تنزل على الأرض من عليا السماوات مكاناً، كذلك القرآن منزل من عليا سماوات الوحي مكانة، إذ ليس لله مكان ينزل منه القرآن، وإنما ﴿تَنزِيلٗا﴾ من عليا الربوبية، إلى دنيا القلوب.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ - رَفعاً، خبراً عن «هو» المقدرة، أم مبتدأً لـ ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ أو «الله» المؤخرة وكلها صالحة - هي من أعم الصفات الإلَهية، شاملة لكل الرحمات تكوينية وتدوينية، فهو مستوٍ مستولٍ بعدما خَلَق على كل ما خلق تكويناً وتشريعاً، دون تفلُّت لها عنه تعالى، ولا تلفت له تعالى عنها، فهو المدبر لها كما هو الخالق إياها، سبحانه وتعالى عما يشركون.

فللّه عرشٌ قبل خلق السماوات والأرض وهو على المادة الأولية الأم: «الـمـاء» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾(٢).

وعرشٌ بعد خلقهما في حياتهما الدنيا، وقد تعنيهما العرش هنا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وعرش في قيامتها ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾(٣) وكل ذلك يعني استيلاءه على الخلق، مهما اختلف الخلق في مثلث نشآته.

ثم لا عرش لله فعلياً قبل خلق الخلق، حيث السلطة تقتضي مسلطاً

(١) سورة فاطر، الآية: ٤١.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

عليه، اللّهم إلّا كامناً في حيطته العلمية وفي القدرة في معنى «خالق إذ لا مخلوق».

فالعرش على أية حال لا يعني مخلوقاً هو سبحانه متكئ عليه، مهما كان الملأ الأعلى من العرش حيث تصدر منه أوامره تكوينياً أو تشريعياً بعد الخلق.

وجملة القول في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ إنه «استولى على ما دق وجل»[١] و«استوى من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب استوى من كل شيء»[٢] «استوى تدبيره وعلا أمره»[٣] و«من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدَثاً، ومن زعم أنه في شيءٍ فقد زعم أنه محصور، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً»[٤] وإنما «بذلك وصف نفسه وكذلك هو مستولٍ على العرش بأين من خلقه من غير أن يكون العرش حاملاً له، ولا أن يكون العرش حاوياً له، ولا أن يكون العرش ممتازاً له، ولكنا نقول: هو حامل العرش وممسك العرش ونقول ما قال: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[٥] فثبّتنا من العرش والكرسي ما ثبّته ونفينا أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً وأن يكون عزّوجلّ محتاجاً إلى مكان أو إلى شيءٍ مما خلق بل خلقهُ محتاجون إليه»[٦] فهو «المستوي على العرش بلا زوال»[٧].

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧١ في احتجاج الطبرسي عن الحسن بن راشد قال: سئل أبو الحسن موسى عليه السلام عن الآية فقال: . .

(٢) المصدر في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن الآية فقال: . . .

(٣) المصدر في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] يعني وكذلك (٤) فيه عنه عليه السلام.

(٤) المصدر.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٦) نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل فقوله: الرحمن على العرش استوى، قال أبو عبد الله عليه السلام: . . .

(٧) المصدر في كتاب التوحيد خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وفيها: -. .

وعلى الجملة «إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حِدَة فقوله: رب العرش العظيم - يقول: الملك العظيم، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ يقول: على الملك احتوى، وهذا ملك الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل منفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه يطلع البدع ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي وعلمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رب العرش العظيم، أي صفته أعظم من صفة الكرسي وهما في ذلك مقرونان»(١).

ثم الآية التالية بيان لذلك العرش وكما نجد له بياناً في كل آيات العرش:

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾:

﴿لَهُۥ﴾ فقط لا سواه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ومعهما - بطبيعة الحال - السماوات والأرض ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

عرفنا السماوات والأرض، فما هو الثرى وما تحت الثرى؟ هذه الآية منقطعة النظير في ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فما هنالك آية أخرى تفسرها، إلّا أن آيات انحصار الكون في السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، تجعل ما تحت الثرى مما تحتهما، إما في السماوات أم في الأرض، هذه أم سائر الأرضين المعنية من الأرض؟ فلنفتش عن الثرى وما تحتها في هذه الثلاث.

---

(١) المصدر عنه بإسناده إلى حنان بن سدير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش والكرسي فقال: . . .

الثرى هي التراب النديُّ، أو الذي إذا بلّ لم يصر طيناً لازباً، والأرض الثريّة هي الندية واللّيِّنة بعد الجدوبة، وأثرى المطر بلَّ الثرى، وفي الحديث «فإذا كلبٌ يأكل الثرى من العطش» أي التراب الندي، وثرّى التراب إذا بلّه، وأرض مُثرية إذا لم يجف ترابها.

إذاً فـ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ هو ما تحت الترابات الندية للأرض، وهي في الأغلبية الساحقة في باطن الأرض، وهنا الثرى لا تشمل ما في الأرض على أكنافها حيث تشمله ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلتكن الثرى الترابات الباطنة لها، وهي بطبيعة الحال ندية.

إذاً فـ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ تعم كافة المواد الأرضية التي هي تحت تراباتها الندية من ثروات تحت الأرضية كالفلزات والبترول والفحم الحجري وما إلى ذلك من أثقالها الباطنة تحت ثراها، وإلى الواجهة الخلفية لكل أفق من الأرض، فحينما كانت الكرة الأرضية مستورة الواجهات الأخرى، وراء الآفاق التي كانوا يعيشونها، فـ ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ تعني - فيما تعني - خلفيات الثرى كلها من ثرواتها، ومن الآفاق الخلفية الأرضية ورائها.

إذاً فآية الثرى من آيات الكروية الأرضية، وكما تلمح لأرضين أخرى هي أيضاً ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ وتوضِّحها آية الطلاق ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1] أرضون ست أخرى تماثل أرضنا، وهي كلها ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ منبَّثة حول الكرة الأرضية في خِضَمِّ الفضاء، فإن كل أفق من الأرض ما تحتها واجهة أخرى من الأرض، فأرض أخرى غير هذه الأرض، فقد تحوُلُ الأرضون الست حول هذه الأرض في مكاناتها، كما أن ما تحت الثرى تعمها كلها.

ولماذا ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ دون «ما فوق الثرى» حين تعني سائر

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

الأرضين؟ لأن المجهول عند الناس حين نزول القرآن وإلى زمن بعيد هو ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ وأما ما فوقها وهي السماء بأنجمها فمعروفة للناظرين، إذاً فحق الكلام كما هو: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾.

وأصدق ما يروى وأحسنها تفسيراً لما تحت الثرى ما عن رسول الهدى ﷺ حين سئل «ما تحت هذه الأرض قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض حتى انتهى إلى السابعة...»(١).

فـ «تحت هذه الأرض» تعني تحت الأفق الذي كان يعيشه السائل، وطبعاً فيه خلق، فإن في كل أكناف الكرة الأرضية خلق كما نحن، ثم «ما تحتهم أرض» هي الأرض الثانية، توسعة في التحت لكل أكناف الأرض! إذاً فـ ﴿تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ تعم التحت المتصل بالأرض وهو ثرواتها، ووراءها، والمنفصل عنها ومنها سائر الأرضين.

وقد تعني ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ كل ما نجهله من خلق الله، فتحت ثرى

(١) الدر المنثور ٤: ٢٩٠ - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إذ عارضنا رجل مترحّب يعني طويلاً فدنا من النبي ﷺ فأخذ بخطام راحلته فقال: أنت محمد! قال: نعم - قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان فقال: سل عما شئت قال: يا محمد ما تحت هذه يعني الأرض قال: خلق.... - إلى السابعة - قال: فما تحت السابعة؟ قال: صخرة، قال: فما تحت الصخرة؟ قال: الحوت. قال: فما تحت الحوت قال: الماء قال: فما تحت الماء قال: الظلمة قال: فما تحت الظلمة قال: الهواء قال: فما تحت الهواء قال الثرى قال: فما تحت الثرى ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء فقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل ما المسؤول بأعلم من السائل قال: صدقت أشهد أنك رسول الله يا محمد أما أنك لو ادعيت تحت الثرى شيئاً لعلمت أنك ساحر كذاب أشهد أنك رسول الله ثم ولى الرجل فقال رسول الله ﷺ: أيها النّاس هل تدرون ما هذا قالوا: الله ورسوله أعلم قال: هذا جبريل.
أقول: ونحن لا نعلم عما تحت الأرض السابعة مما روي عنه ﷺ شيئاً.

الأرض منها وهو ثرواتها وخلفها المتصل بها، ثم تحتها من سائر الأرضين الست، هذه الثلاث هي من عامة ما كنا نجهلها، وقد عرفنا شطراً منها بعد أمة من الزمن! ثم يبقى علينا الأرضون الأخرى ولمّا نكشف النقاب عنها، وقد صرح بها آية الطلاق كما لمحت لها آية الثرى، هذه!.

وأما ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ككل ما هنالك فـ «هيهات هيهات عند ذلك ضل علم العلماء»[١] «عند ذلك انقضى علم العلماء»[٢] «وما يعلم تحت الثرى إلا الله»[٣] مهما كان الرسول ﷺ والأئمة «جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»[٤] والحجة البالغة على شيء عارف - بطبيعة الحال - ذلك الشيء، فضلال علم العلماء وانقضائه عند ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ يعني غير الحجة البالغة، واختصاص علمه بالله هو حق العلم بما تحت الثرى كما الثرى وما فوقها.

---

(١) المصدر عن أبان بن تغلب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت قلت: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء قلت: فالماء على أي شيء هو قال: على الصخرة قلت: فعلى أي شيء الصخرة؟ قال: على قرن ثور أملس، قلت: فعلى أي شيء الثور؟ قال: على الثرى قلت: فعلى أي شيء الثرى قال: هيهات...

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٧٢ في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت، قيل له: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء، فقيل له: الماء على أي شيء هو؟ قال: على الثرى، قيل له: فالثرى على أي شيء هو قال: عند ذلك انقضى علم العلماء.

(٣) المصدر في علل الشرائع عن علي عليه السلام قال ليهودي وقد سأله عن مسائل: أما قرار هذه الأرض لا يكون إلّا على عاتق ملك وقدما الملك على الصخرة والصخرة على قرن الثور والثور قوائمه على ظهر الحوت والحوت في اليم الأسفل واليم على الظلمة والظلمة على العقيم والعقيم على الثرى وما يعلم تحت الثرى إلا الله....

(٤) المصدر في أصول الكافي بإسناده إلى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يذكر فيه الأئمة عليهم السلام وفيه: جعلهم الله... ومثله في بصائر الدرجات بسند عن محمد الجعفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:... وفي الكافي عن سعيد الأعرج عنه عليه السلام مثله.

ومِمن تحت الثرى سكنة سائر الأرضين، والأنجم العامرة التي فيها مدن كمثل التي في الأرض[1].

والأحاديث الواردة في ترتيب الثرى بما قبلها مجهولة المعنى إلّا في تجهيل من سوى الله لما تحت الثرى.

ولنا أن نفتش عما تحت الثرى، كما حصلنا لحد الآن على مواضيع منها، وبقيت أخرى لمَّا نصل إليها، منها ما علَّنا نصل إليها على ركب العلم روحياً وزمنياً مهما ضل عنها الأوّلون، ومنها ما لن نصل إليها كما يشير إليها أئمة الهدى «عند ذلك ضل وانقضى علم العلماء، وما يعلم تحت الثرى إلا الله».

وبعبارة أخرى وصيغة أحرى، إن العلم الحق وحق العلم بكل ذلك، كما حقُّ القدرة والقدرة الحقة، إن ذلك كله مخصوص بالله تعالى، كما تلمح له «له...» حيث يدل تقديم الظرف على الحصر، ونحن لا نعلم - فيما نعلم منها - إلّا ظاهراً ضئيلاً، وجانباً قليلاً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]!

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ أياً كان، مع ربك كما في صلاتك وسائر دعائك، أم مع غيره أو نفسك، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فضلاً عن الجهر.

فلماذا ﴿تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ مع ربك؟ ألأنه لا يعلم السر؟ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾! أم لأنك تلتذ بسماع صوت الدعاء إلى الله منك أو سواك، فلا عليك إذاً أن تجهر بالقول، أم لأنك تعني بجهرك أن تُسمع الآخرين تشجيعاً

---

(١) في البحار عن الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: إن لهذه النجوم التي في السماء مدائن كمثل التي في الأرض مربوطة بعمودين من نور طولها في السماء اثني عشر عاماً.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

على الدعاء أم تعليماً؟ فكذلك الأمر، أم لأنك ترائي في جهرك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ مهما لا يعلم من نيتك السريرة غير الله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(١) سراً وأخفى، ولكن أدب الدعاء يقتضي دون الجهر العال: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾(٢) ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾(٣) ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾(٤).

ولقد كان النبي ﷺ يجهر - أحياناً - في الدعاء تعليماً، وهو محبور دون الجهر العال إلّا إذا اقتضت الحال: فـ «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»(٥).

هذا ولكنه دون المرتفع العال وكما قال ﷺ لمن ارتفعت أصواتهم «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه معكم سميع قريب»(٦).

أجل ولكل قال مجال، ولكل حال قال يقتضيه المجال، فلا جهر

(١) سورة الملك، الآية: ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١١٠.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١٦ : ١٦٣ قد صح ما يزيد على عشرين حديثاً في أنه ﷺ كثيراً ما كان يجهر بالذكر وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول الله ﷺ ....
(٦) المصدر عن الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري قال: كنا مع النبي ﷺ وكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: ....

لإسماع ربنا المتعال، ولا فوق العال على أية حال، فلا مرجح لجهر القول في الدعاء في ذاته بل هو مرجوح غير ممنوح، اللهم إلّا لتعليم أو تذكير، أم سنّ سنة الدعاء، أم حَظوةٍ من سماعها تزيد في عمقها.

ثم ذلك هو السرُّ فما هو الأخفى؟ «السر ما أكننته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم أُنسِيته»[١] ثم وأخفى من ذلك الأخفى ما لم تَنوِه، أو لم تعلمه ثم تنويه، أو لم تعلمه فتفعله أم لا تفعله[٢] والأخفى المطلقة في الآية تعمهما وما لن ينوه أو يعلمْه أو يفعله أبداً، مثلث من الأخفى تقابل السر، والكل مقابل الجهر، وهذه الخمس في علم الله سواء: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[٣] مهما كان لا سواء بالنسبة لنا علماً وحظوة في الدعاء الجاهرة في رنينها وطنينها وحنينها.

وقد يعني ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما هو سرٌّ عنك كما عن غيرك حيث أُنسِيتَه، ثم ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم تعلمه بعد، وما لن تعلمه، حيث السرّ هو الكائن السرير، فالأخفى هو غير الكائن الذي بالإمكان كونه بعدُ أم لا، وعوان بين السرّ والجهر هو النجوى، فإنه جهر لمن تناجيه وسر عن سواه، وهي هنا مشمولة للسرّ، وإن كان مع النجوى كالظرف والمجرور إذ اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾[٤] ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٥].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ بسند متصل عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] قال: ....

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٠ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في الآية قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فإنه يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٨.

فلأن الآية في مقام عرض العلم المحيط، لم تكن الأخفى لتختص بما سوف تعلمه أو تنويه أو تفعله، بل وما لن تعلمه من الحقائق الكائنة في الكون، بل وغير الكائنة كُوِّنت بعْد أم لم تُكوَّن، كما السر لا يختص بغير النجوى، إذاً فالسرّ هو دون الجهر من القول من نجوى يسمعها صاحبها، ومن إخفات تسمعه في نفسك وقد يسمعه غيرك، أم إخفات لا تسمعه في نفسك وإنما تعلمه وهو النية السريرة.

ومثلث العلم لله: جهراً وسراً وأخفى، هي المواطن الثمانية، ١ - جهراً، ٢ - دون الجهر نجوى، ٣ - إخفاتاً قد يسمعه غيرك، ٤ - إخفاتاً لا يسمعه غيرك وتسمعه في نفسك، ٥ - أم لا تسمعه، ٦ - وسراً عن نفسك ما كنت تعلمه ثم أنسيتَه، ٧ - أم لم تكن تعلمه وبالإمكان أن تعلمه، ٨ - أم ليس بالإمكان أن تعلمه.

فهذه الآية تتكفل عرضاً موجزاً عن عرش العلم في مواطنه الثمانية كما آية الثرى عرضت عرش المَلِكية المالكية المطلقة، فهما إذاً تفسيران لعرش الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

ومن ثم الأسماء الحسنى لذي العرش الواحد القهار، عرضاً لوحدة الأسماء الحسنى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾:

﴿ٱللَّهُ﴾ قد يكون تعريف التصريح باسم الجلالة بعد المواصفات السابقة السابغة، من ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ ... ٱلرَّحْمَٰنُ.. لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ فذلك المربع الصفات هو ﴿ٱللَّهُ...﴾ خبراً عن ﴿هُوَ﴾ المحذوفة، وكما أنه مبتدأ لخبريه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ - ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والجمع

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

أجمع وأوفر، رباطاً بما قدم وأخر، مهما كانت هنالك احتمالات أخر(١).

في سائر القرآن آيات أربع تتحدث عن أسماء الله الحسنى(٢) هذه منها، وقد تحدثنا عنها في حشرها(٣) ونزيد هنا أن أسماءه الحسنى لا تختص بالصفات ذاتية وفعلية، بل والرعيل الأعلى من عباده المخلَصين هم من أسمائه الحسنى، نتيجة الصفات الفعلية العليا، فإنهم يدلون على الله ويوجهون إلى الله بما يحملون من رسالات الله وحياً أو إلهاماً.

وفيما أمرنا أن ندعوه بها ونذر ما وراءها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾(٤) تعم الدعوةُ الدعاء الخالصة، فهي بالأسماء الأولى، كل دعاء باسم يناسبها، وبواسطة المقربين، سواءً في دعاء الاستغفار وسواه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(٥).

أم في دعاء المعرفة والعبودية فهي برجالات الرسالات حيث يعرِّفونه كما عرَّف لهم نفسه، ويبيِّنون طرق عبوديته ومسالك طاعته كما بُيِّن لهم.

فدعاء الله بغير الأسماء الحسنى - سواء الأولى أو الأخرى - قبيحة ملحدة نذرها وراءنا ظهرياً فـ ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٦).

وأحسن الأسماء الحسنى هو ﴿هُوَ﴾ وهو ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمان للذات المقدسة، وهما مذكوران في كلمة التوحيد التي هي أحسن الكلمات، وهي

---

(١) كأن يقال ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] هما وصفان و«الله» خبراً لـ «هو» أمّاذا والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه.

(٢) وكذلك الآيات ٧: ١٣٧ و١٧: ١١٠ و٥٩: ٢٤.

(٣) في الفرقان ٢٨: ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

ضمان الجنة كما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «ما زلت أشفع إلى ربي ويشفعني وأشفع إليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفِّعني فيمن قال: لا إله إلا الله - قال -: يا محمد! هذه ليست لك ولا لأحد وعزتي وجلالي لا أدع أحداً في النار قال: لا إله إلا الله»[١].

أجل وهي الشجرة الطيبة الطوبى، والكلم الطيب، والحق المتواصى به، والواحدة الموعوظ بها، والوقفة المسؤول عنها، والقول الثابت في الأولى والأخرى.

وقد قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك به، قال: قل لا إله إلا الله - قال: كل عبادك يقولون: لا إله إلا الله! فقال: قل لا إله إلا الله! قال: إنما أردت شيئاً تخصني به! قال يا موسى: لو أن السماوات السبع ومن فيهن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن: لا إله إلا الله»[٢].

وهي بطبيعة الحال ليست فقط قالة القال فإنها قالٍ، بل هي قالة حاكية عن الحال على أية حال وهي درجات.

وترى من قالها بقلبه ولمَّا تظهر على لسانه دونما ضِنَّةٍ ولا استكبار، هل هو من أهلها؟ أجلّ! وإنها أجلُّ من قالِها باللسان لأنها حكاية عما في الجنان، وهو محطة الإيمان، فلو عكس الأمر، قالا باللسان دون الجنان فلا إيمان، مهما قبلت كظاهر الإسلام! هذا - ولكن الذي يعتقدها ثم لا يبرزها بلسانه، كيف يُعرف إيمانه في كتلة الإيمان؟ وحتى إذا عرف فما باله لا يبرزها باللسان وهو شعار الإيمان وشعورٌ بالإيمان![٣] اللهم ﴿إِلَّا مَنْ

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٠ عن أنس بن مالك قال: قال عليه السلام: . . .

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١١ أن موسى بن عمران قال: . . .

(٣) تفسير الرازي ٢٢: ١٠ - أن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من قام في السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير «كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً في الجنة.

﴿أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] وطبعاً فيما إن كانت البُقْية على نفسه أنفس من ظاهرة الإيمان.

ثم بعد اسمي الذات، الأسماء الثلاثة لصفات الذات: الحي العليم القدير، ومن ثم سائر التسعة والتسعين هي أسماء صفات الفعل، وكلها حسنى.

فاختلاق اسماء الله في أيٍّ من هذا المثلث إلحاد في أسمائه، كما اختلاق رسالة ليست من الله إلحادٌ في أسمائه.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ ومتى أتاه ومن أين وهو أمي ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[2] إلّا أن يأتيه بالوحي، وقد ذُكرت القصة في القصص بتفصيل أكثر مما هنا، وهي بطبيعة الحال مؤخرة عن ﴿طه﴾ وإلّا فقد أتاه حديث موسى إن كانت مقدمة عليها، مهما كان في النقلين فوارق تُكمِّل كلٌّ الأخرى، والاستفهام هنا لتقرير العجاب عن حديث موسى وأولى به ثم أولى.

فالقصص تقص الذي حصل لموسى قبل قصته هنا، وهذا بداية الوحي الرسالي لموسى بعد وحي النبأ من ذي قبل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[4]: -.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٩.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ مكثاً يسيراً ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ والإيناس هنا مما يلمح أنه كان في برد قارص كما يدل عليه ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ كما تلمح إنه ضل الطريق وكان الليل مظلماً ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[1] وكما يقال أنه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء وبردة قرصاء، وريح عاصفة وغنم له متفرقة وطَلْق الزوجة، فرأى ناراً فقال لأهله امكثوا، كأنهم كانوا ناظرين فُرجة إلهية وهي الآن على مشارفها!.

وقد نهتدي من ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ إلى تفرُّسه من هذه النار هدى رسالية بعد ضلاله في سنيّه العشر، كما ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ قد يخبر بهذه الفروسية.

وطبيعة الحال في هذه الفترة الطائلة عشر سنين تقتضي أن يتفرس في رجعته هذه من النار نوراً ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾[2] - ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ وعلى هامشه القبس الجذوة لعلكم تصطلون، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ لعلكم تهتدون.

هنا موسى - وهو بمنصرفه من مدين إلى مصر ومعه أهله - يأنس من جانب الطور ناراً، وذلك - بطبيعة الحال - استئناس شخصي لموسى دون أهله، وإلّا فلماذا ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ دون أهله؟ ولو كانت أهله ترى ما يرى فلماذا ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[3] دون «ألا تستأنسوا ناراً» وقد أكد شخصية الرؤية بـ ﴿إِنِّىٓ﴾ ثم ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ دون «تعالوا معي إلى النار» مما

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «آتيكم منها بقبس» يقول: آتيكم بقبس من النار تصطلون من البرد أو أجد على النار هدى - كان قد أخطأ الطريق - يقول: أو أجد على النار طريقاً.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٩.

يؤكد أن رؤية النار وأنسها كانت له دونهم، فقد يُطَمْئِن أنه تفرس من النار نوراً، فإن كانت ناراً فـ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ - ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾[1] وإن كانت نوراً ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ دون «نجد» إذاً فهي في الأصل هدى شخصية، مهما كانت على هامشها هدى الطريق لأهله ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾[2].

وترى أكانت معه زوجته فقط لمكان «أهله»؟ أهله هنا هم جماعة، منهم زوجته لمكان «امكثوا - تصطلون»! وقد تركهم بعد هذه القالة المردِّدة ثم لا خبر عنهم حتى نهاية الرسالة.

وإن قصص موسى هي أكثر القصص المقصوصة في الذكر الحكيم، محلّقة على الحياة الولادية والرسالية الموسوية في بنودها الأصيلة، التي تمتُّ بصلة في الدعوة الرسالية وما تبنّاها أو تبنّته من موادها.

وهي تُعرض بمختلف المسارح المناسبة في سُوَر عِدّة كما تناسب جوَّ السورة، وهنا في «طه» يسبقها مَطْلعٌ يشفُّ عن رحمته تعالى ورعايته لمن يصطفيهم لحمل أعباء الرسالة، ويلاغ الدعوة، طَمْئَنةً وذكرى لخاطر الرسول الأقدس ﷺ القريح الجريح من أذى المشركين ولظاهم وكما هي الحال في ذكريات سائر الرسالات ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾[3].

وكما هي في سائر مجالاتها وحلقاتها، إذاً فلا تكرار في جلواتها، إلّا تكراراً لمجالاتها المناسبة لها، كلٌّ على قَدَر.

وترى كيف «رأة ناراً» وهي في الحق كان نوراً تشبه النار؟ إنها في رؤيته البدائية ومن بُعد كانت ناراً! ولأنه لم يتأكد كونها ناراً قال ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٠.

دون «رأيت ناراً» ثم ﴿لَعَلِّيٓ﴾ مرددة بين ﴿ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ تؤكد أنه لم يتأكد كونها ناراً، مهما احتملت ﴿لَعَلِّيٓ﴾ عدم التأكد من أحد الأمرين إذا كانت ناراً، وهي قائمة مقام إن شاء الله!.

والنيران خمس: نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى، ونار محرقة بلا نور وهي نار جهنم، ونار تجمعهما وهي المعروفة لدينا، ونار لا حرقة فيها بالفعل ولا نور وهي نار الشجر الأخضر فمنه توقدون، ونارُ كلِّ مادة تظهر في التفجرات الذرية.

و﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ هو ما حدث له بالفعل لأوّل مرة في بزوغ الوحي الرسالي، ولماذا ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ دون «من النار» لأن قضية الحال في النار الموقدة في الصحراء أن عندها أهلاً عليها فهم يهدوننا الطريق، أم أن على النار نفسها هدى وكما اهتدى بما أوحي له منها.

ثم «قبس» كما هنا، و«جذوة» كما في القصص هما بمعنى، وهو قطعة منها تتجزى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾(١) وتستوقدون فتعملون بها لأنفسكم ناراً بها تكتفون(٢).

---

(١) سورة النمل، الآية: ٧.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٩٠ - أخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسيراً حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تفور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضر يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحسناً فوقف ينظر لا يدري ما يصنع إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق وأوقد إليها موقد فنالها فاحترقت وإنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها وكثافة ورقها وعظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك أهدى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها ولم تزل تطمعه ويطمع بها ثم لم يكن شيء بأوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه وفكر موسى في أمرها فقال: هي نار ممتنعة لا يقتبس منها ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين فلما رأى موسى ذلك قال: إن لهذه شأناً =

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾:

وأخيراً أتاها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أمن النار أم من الشجرة الطالعة منه النار، تقص لنا القصص إنها من الشجرة المنوَّرة المباركة: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] وطبعاً من النور المتطلعة عليها ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا...﴾.

أو كان هناك في الشجرة أم نارِها النورِ تجلٍ من الله، حتى نودي موسى منها ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؟ حتى يهرف هارف ويخرف خارف ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ قائلاً:

روا باشد «انا الحق» از درختي چرا نبود روا از نيكبختي!:

إذاً جاز لشجرة أن تقول: إني أنا الله، فلماذا لم يجز من سعيد مثلي:

= ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة لا يدري من أمرها ولا بما أمرت ولا من صنعها ولا لم صنعت فوقف متحيراً لا يدري أيرجع أم يقيم، فبينا هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو أشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها يغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنوراً تصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه فرد يده على عينيه ولصق بالأرض وسمع الحنين والوجس إلا أنه سمع حينئذٍ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى الكرب واشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل: يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه وما كان سرعة إجابته إلا استئناساً بالأنس فقال: لبيك مراراً إني لأسمع صوتك وأحس حسك ولا أرى مكانك فأين أنت! قال: أنا فوقك ومعك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي هذا إلا لربه فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي فكلامك أسمع أم رسولك، قال: بل أنا الذي أكلمك، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ولم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه ثم زحف على ذلك وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى: ما تلك بيمينك...

(١) سورة القصص، الآية: ٣٠.

منصور الحلاج - أم بايزيد البسطامي - أن أقول: أنا الله، حيث تجلى فيّ الله كما في الشجرة.

نص الآية «نودي يا موسى - من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة -: إني أنا الله» فالشجرة - إذاً - هي - فقط - مذياع النداء من نورها، وليس يلزمه أن يكون المذيع بذاته فيها، وكما الملائكة يحملون نداءات الله ولا يحملون ذات الله، فالنداء - كما الشجرة والنار النور - هي من فعل الله، ومهما كان لنداء الله سمت وصوت، فليس لذات الله سبحانه سمت ولا صوت، وإنما خَلْق منه كسائر خلقه، من دون لسان ولا شفه ولا أي عضو، فإنما صوت مخلوق في الشجرة، كما يخلق في الألسنة، والفارق هو خرق المتعوَّد من الصوت النداء، وكما أن أصل الوحي خرق لعادة التعليم، فذلك النداء خارقة في خارقة، بارقة في بارقة نور النار في الشجرة المباركة الميمونة.

لقد كان هذا النداء الرباني من نور من هذه الشجرة من جانب الطور الأيمن ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[1] وهي الزيتونة ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾[2] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[3] ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾[4] ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[5].

آيات بينات تتجاوب مع بعض في مذياع النداء لموسى أنه النور الساطع من الشجرة الزيتونة في البقعة المباركة من شاطئ الواد الأيمن، دون أن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الطور، الآيات: ١-٣.
(٥) سورة التين، الآية: ٢.

يكون المذيع ماكناً فيها، أم متجلياً لها، اللهم إلّا بأنوار وحيه في صوغ كلامه لسوق وحيه إلى موساه، ولذلك يقول هنا ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وهي هنا ربوبية الوحي، وهناك ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث الوحي موجَّه إلى العالمين «ربك» وحياً إليك و«رَبِّ الْعالَمِينَ» فإنه بلاغ منك إلى العالمين!.

فلقد كان يرجو ناراً فأوتي نوراً فـ «كن لما لا ترجو أرجي منك لما ترجو فإن موسى عليه السلام ذهب يقتبس ناراً فانصرف إليهم وهو رسول نبي فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه موسى في ليلة وكذلك الله تعالى يفعل بالقائم الثاني عشر من الأئمة يصلح الله أمره في ليلة كما أصلح الله أمر موسى ويخرجه من الحيرة والغيبة إلى نور الفرج والظهور»[(١)].

وقد عبر عن مجيء وحيه بجيئته تعالى لأنه إتيان ربوبيته وحياً إلى رسله وكما في الأصل العبراني في التوراة تبشيراً بمهابط الوحي الثلاثة:

«وِزُئْتْ هبَّر أخاه أشِرْ بِرَخ مُوشِه إيش ها إلُوهيم إتْ بني يِسرائيل لِفْني مُوتوا وِيُّومِرْ يِهْواه مِسِيني باوْ. زارَح مِسِّعِير لامُوا هُو فيعَ مِهَر فَارَانْ وِآتَاهُ مِربِبُتْ قُدِشْ مِي مِينُوا إشْ دَاتْ لَامُوا». (سفر التثنية ٣٣: ١ - ٢).

«وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته ١ وقال: الله من سيناء جاء. تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران، وورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية»[(٢)].

وقد جاء مثلها في دعاء السمات «وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران، وبطلعتك في ساعير، وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين».

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٤ عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٤٤ - ٥٣ تجد تفصيل البيان حول هذه البشارة الموسوية ومن حبقوق النبي عليه السلام.

وعلى أية حال فلا تجلّي هناك للذات ولن يكون، وإنما جلوات من ربوبية الوحي على موسى كما على المسيح ومحمد عليهم السلام وسائر المرسلين مهما اختلفت الدرجات والكيفيات.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ وفي خلده أن يقتبس منها قبساً لعلهم يصطلون أو يجد على النار هدى، فإذاً فاجأته هذه الجيئة بنداء من الرب، وطبعاً هو عرف أنها نداؤه دون ريب، فإن ذلك هو طبيعة الحال في الوحي وإن لم تسبق له سابقة، فالذي يوحي إلى عبده، يوحي له معه أنه وحيه، فإنه لزام استقرار الوحي في مستقره، دون أية ريبة فيه، ولا شبهة تعتريه.

لا فحسب رجالات الوحي يعرفون نداء الوحي، بل الإلهامات الإلهية - كذلك - معروفة لدى أهليها قضية تقوى الله، والتوسم الحاصل منها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[1] وكلما كانت التقوى أقوى فالفرقان على ضوئها أقوى، حتى إذا كانت عاصمة معصومة، ففرقانها أيضاً عاصم معصوم، لا يخالجه شك ولا ريبة.

وقد يروى أنه «لما نودي يا موسى قال عليه السلام: من المتكلم؟ فقال: أنا ربك - فوسوس إليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان! فقال عليه السلام: أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء!».

ومهما يكن من شيء فلا ريب أنه عرف كونه كلام الرب وحياً ومن سائر الجهات، إذ كان الكلام دون جهة من النور خارق العادات، سمعه بكل كيانه سمع الأذن والقلب، وسمع الفؤاد المتفئِّد بنور المعرفة القمة، فأصبح هو بكله سمعاً وسماعاً.

وقد تنادي ﴿نُودِىَ﴾ مجهولاً، دون «ناديته» أن لم تكن نور الشجرة مجلّى لذات الرب سبحانه، وإنما خلق فيها صوت النداء دون جهة خاصة.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

وعلى أية حال كان ذلك وحياً دون وسيط ملك الوحي، مهما كان بوسيط كلام من لسان النور الساطع من الشجرة، حجابان اثنان، حيث الوحي درجات عدة كما يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾(١).

فَقَرْنُ «وحياً» بـ ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرينة أنه يعني وحياً بلا أي حجاب، اللهم إلّا حجاب الذات القدسية الألوهية، وقد حصل ذلك الوحي - فقط - للرسول الأقدس محمد ﷺ ليلة المعراج، أم وليلة القدر حيث أنزل عليه القرآن المحكم، دون أي وسيط، لا ملك الوحي، ولا كلام ولا نور ولا نار ولا شجرة أمّاهيه من وسائط وحجب، وإنما من الرب إلى قلبه القدسي الرسالي القمة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

وهو في مقام «أو أدنى» وهو لما تدلّى، خالعاً نعل نفسه وحجاب ذاته بعد سائر الحجب، فلم يكن حينئذٍ بينه وبين الله أحد حتى نفسه!(٢).

وقد لا يكون سائر الوحي إلى سائر رجالات الوحي وحياً أمام ذلك الوحي وكما في الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾(٣).

كما وأن صاحب ذلك الوحي القمة كأنّه هو الرسول النبي لا سواه، بما طواه وحواه، وهو لامح من آيات عدة تخاطبه كأنه هو الرسول لا سواه.

وأما متن النداء الأولى لموسى - وما أمتنها وأمكنها في قلبه بما طواه وحوى - فهو:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٢) راجع الفرقان تفسير سورة النجم حول آيات المعراج.
(٣) (٤٢: ١٣).

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إني المكلِّم إياك «أنا» لا سواي ﴿رَبُّكَ﴾ بربوبية رحيمية خاصة ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

وفي مفاجأة هذه الجيئَة، بهذه المشاهدة المنيعة، لقد كان القلب يجف والكيان يرتجف، موسى الفريد في صمت مخيِّم، بليل دامس، وبرد قارص وهو كارث، وأهل بلا حارس، فإذا بنداء لم تسبق لها نظير ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ. . .﴾!

فأين هذه الذرة الصغيرة الهزيلة التي تتلاعب بها الرياح، وواجهة الجلال الذي لا تدركه الأبصار، وتحار دون معرفته الأفكار، وتتضاءل في ظله الظليل كل حقير وجليل، أين هي كما هيه وتلقي ذلك النداء العال من الرب المتعال، لولا اختياره؟!.

وإنها لحظة ترتفع فيها البشرية، فبحسبها أن يَليق في جزء من أجزائها أن تتصل هكذا بالملأ الأعلى، وأفضل منه وأعلى، أن يخاطبها الله بذلك النداء!.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ فأنت الآن يا موسى بقرب من الحضرة العلوية، فتجرد عن نعليك، ولا تطإ الوادي بهما وهو مجلى الطلعة المقدسة الربانية!.

أترى ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ لـ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؟ وقد كان يعلم موسى أنه هو ربه ولم يكن خالع نعليه، وليس الذي حدث الآن معرفةٌ له جديدة أنه هو ربه حتى يخلع نعليه لـ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾!

ثم وليس على كل موحِّد لله أن يخلع نعليه على أية حال، وإنما ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ لـ ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

والواد المقدس الذي طواه، هو واد الوحي الرسالي، وهو أقدس وادٍ في الكون، فليكن طاويه أقدس مَن في الكون، وخلع النعلين هو من كمال القداسة المناسبة لواد الوحي.

عرفنا الواد المقدس وهو مهبط الوحي فما هي «طوى» التي طوى ذكرها آيتا طوى ثانيتهما النازعات ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[(١)].

قد تكون ﴿طُوًى﴾ اسماً للواد المقدس، أم اسم وصف له لأن الوصول إليه بحاجة إلى طي مسافات بعيدة من مسالك المعرفة والعبودية أمّاهيه، ولكنه يقتضي قلب التعبير كـ «إنك بطوى الواد المقدس» فالواد بَدَلٌ - إذاً - عن طوى أم عطف بيان.

أم هي مصدر الطي، منصرفةً خلاف الأولى، حالاً عن الواد المقدس وعن موسى، فهي بمعنى الفاعل والمفعول مبالغة في الطي، فاعلاً للواد المقدس حيث طوى موسى، ومفعولاً لموسى المطوي به عما سوى الله، وعما سوى الوحي، فليخلع نعليه اللذين طوياه عن نور الوحي، فليكن موسى طوًى كما الواد المقدس طوى، طياً عما طواه وحواه من حجُب، إلى ما طواه من الوحي وحواه في الواد المقدس، فلما طوى ما طوى عن أهله وتجلل عنهم وسِواهم، طواه الله بالوحي بعد انتشار حاله وتفرق باله.

وقد تكون ﴿طُوًى﴾ مثلث المعنى، اسماً وصفياً للواد المقدس وحالاً عنه وعن موسى، ويا له من سمو المعنى.

ثم وما هما النعلان اللذان أمر هنالك بخلعهما ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾؟ أهما نعلا رجليه؟ إذ كانتا من جلد حمار ميت»[(٢)] ولبس الميتة غير مشكور، وهو في الصلاة محظور، وطوى الواد المقدس هي كالصلاة بل أولى، لذلك فرعت ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ على ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١٦.

(٢) تفسير البرهان ٣: ٣٣ ابن بابويه في الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن الآية قال: كانتا من جلد حمار ميت وفي الدر المنثور ٤: ٣٩٢ أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاكم عن علي عليه السلام مثله.

طُوًى﴾ وكان الواجب عليه خلعهما دون أمر، مع ما في لبسهما في الصلاة والواد من غضاضة»(١).

إلا أننا لا نعرف غضاضتها في الشرعة الموسوية وحتى في الصلاة! ولبس الميتة لا يلازم صحبتها في الصلاة، بل ولا يصح لبس النعل الطاهرة فيها لقداسة الموقف، وقدسية الواد كانت بحاجة إلى بيان وقد تبيّن ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

قد يعني ﴿نَعْلَيْكَ﴾ مصاديق لهما عدة، أولاها في المظهر وأولاها في

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه قلت: فأخبرني يا بن رسول الله عن أمر الله لنبيه موسى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] فإن فقهاء الفريقين يزعمون أنها كانت من إهاب الميتة قال صلوات الله عليه: من قال ذلك فقد افترى على موسى واستجهله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين: إما أن تكون صلاة موسى فيها جائزة أو غير جائزة فإن كانت صلاته جائزة جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة وإن كانت مقدسة مطهرة فليست بأقدس وأطهر من الصلاة وإن كانت صلاته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى عليه السلام أنه لم يعرف الحلال من الحرام وعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يجز وهذا كفر، قلت: فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال صلوات الله عليه: إن موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال: يا رب إني قد أخلصت لك المحبة مني وغسلت قلبي عمن سواك وكان شديد الحب لأهله فقال الله تعالى: اخلع نعليك أي انزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل إلى من سواي مغسول».

أقول هذا الحديث معارض بما تقدم، ثم هو متهافت من جهات عدة، منها «جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة» وهي مقدسة حسب نصّ الآية! اثم «فليست بأقدس وأطهر من الصلاة» وهي أقدس منها لأنها بقعة الوحي ومعراجها أرفع من معراج الصلاة! ثم «فقد أوجب الله على موسى أنه لم يعرف الحلال من الحرام» ولماذا، فحين لا يعرف أنها بقعة مباركة، على الله أن يعرفه كما عرفه ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ولما عرف خلع نعليه، ثم «وعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يجز وهذا كفر»، ماذا يعني؟ فهل هو علمه بالنسبة للصلاة وجهله حكمه بالواد المقدس، وأين الكفر هنا أو الفسق والوحي يعلّمه هنا أنه الواد المقدس فاخلع، ثم لا نعلم أن ذلك الخلع كان واجباً في الصلاة كما هنا أم لا، إذاً فالحديث متضارب في نفسه بعد تعارضه الحديث الأول، وعلَّ الحق ما قلناه في المتن - تأمل.

الظهور هما النعلان الملبوستان، وهذه طبيعة الحال في كل واد مقدس يطوي وارده طياً وينطوي فيه انطواءً، فكما أن أدب الحضور في الصلاة - وهي معراج المؤمن - يقتضي إصلاح الأدب الظاهر على ضوء الباطن، لبساً لطاهر الثياب ومحلَّلها ونظيفها، كذلك خلع النعلين مهما كانا نظيفين فإنهما للمشي في الطرقات دون الغرف المفروشة فضلاً عن الواد المقدس طوى، الذي هو أقدس من الصلاة وأطوى، حيث العلوم الربانية فيها مطوية، فالحفاء هناك أقرب إلى التواضع والحفاوة، ولأنه يلاصق قدمه الوادي فيتبرَّك به، كما هو يتبرك ببركة الوحي الرباني، فكيف يقدم الواد المقدس طوى وهو مطوي تعلقاً بغير الله، أم في رجليه بنعليه، أمّا هي من تعلقات تنافي الحضور المطلق.

وفي هذه الآية لمحة أكيدة أن لبس النعلين حالة الصلاة غير مشكور، بل هو محظور، ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ولأنهما لم تقرنا بوصف الميتة أم سواها من محظورات، نتلمح أن أصل النعلين غير صالح بالواد المقدس، وأي وادٍ أقدس لنا من وادي الصلاة وهي معراج المؤمن، وحالة التطامن والذل لا يناسبها الوقوف بمظهر الماشي في الطرقات، ووقايةً عن القذارات، اللهّم لمن اضطر غير متجانف لإثم فلا إثم عليه، كحالة الحرب والفرار عن المحظور، والرواية القائلة إن النبي ﷺ صلى في نعله قاحلة مفترية عليه جاهلة[1].

ومن ثم الأهل زوجة وأولاداً، حيث يتمشى بهما الآهل في حياته،

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ٢٢ : ١٨ وقد صلى النبي ﷺ في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال: ما لكم خلعتم نعالكم؟ قالوا: خلعت فخلعنا قال: فإن جبريل أخبرني أن فيها قذراً أقول وأقذر منه نسبة هذه الفعلة الهاتكة إلى النبي ﷺ تاركاً أمر ربه ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

و﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١) والنعل من اللباس(٢) والسالك إلى الله، وإلى وادي المقدس طوى، عليه أن ينسى أهليه وعبأهم في هذه السبيل، قدر ما هم يصدون عن السبيل، أم عن تكملتها، أم يخرج حبهم عن قلبه، مهما يهتم بأمرهم قدر الواجب في شرعة الله، فخالص الحب في الله، ولا سيما بالنسبة لمن يحمل رسالة الله، لا يلائمه حب غير الله، ف ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾(٣) وليكن قلب الرسول مليئاً كافة من حب الله والحب في الله.

وكذلك الأمر «خوفيك» خوفه من ضياع أهله وقد خلفهما بمخض، وخوفه من فرعون»(٤) فـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(٥).

فحين يريد الله أن يبلغ موساه إلى مدرجة الوحي، بالواد المقدس طوى، وهو مطوي قبله بالكثرات، يبتليه بالعسرات، حيث يسلط عليه البرد وهو مع أهله في الصحراء، وظلمة الليل، وتفرق الماشية، ومخاض المرأة، وعدم انقداح الزندة، وضلال الطريق حتى اندهش بغاية الدهشة، واستوحش بالغ الوحشة، ثم يريه نوره بمظهر النار المؤنسة، ويبلغه إلى الواد المقدس طوى، طالباً منه ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

ومن ثم رابعة: الخلع، أن يخلع نعلي الدنيا والآخرة، ألا يهوى فيهما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) ورؤيا النعل والحذاء في المنام تعبر بالزوجة، ومن يقظته أن إبراهيم لما ذهب إلى مكة ليزور إسماعيل فلم يجده في بيته ولم تستقبله زوجته، قال لزوجته: إذا جاء إسماعيل فقولي له: بدِّل حذاءك، فلما سمعها إسماعيل طلقها تعبيراً للحذاء بالأهل.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٤) تفسير البرهان ٣: ٣٣ - ابن بابويه بإسناد متصل إلى الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال في قوله عز وجل لموسى: اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك.....

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

ولا منهما إلا رضوان الله، دون هوات النعيم في الأولى، ولا لذاته في الأخرى، فإن نعيم القرب والرضوان أنعم من نعيم الآخرة والأولى.

وخامسة هي انخلاعه عن نعلي الحجب: حجاب الإنية الذاتية، والحجب الخارجية، حتى يستعد للوحي في مقام قاب قوسين دنواً إلى الله حيث ليس بينه وبين الله أحد، وكما يسأل الإمام الصادق عليه السلام ما تلك الغشية التي تعتري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: ذلك هو الوحي، ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد».

وسادسة هي انخلاعه عن نعلي الروح والجسم، حيث الحيوية المتعودة تتبناهما، فليتركهما وحالهما، متجرداً بقلبه إلى الله، سفراً سافراً إلى الله، لا يحسب نفسه شيئاً بجنب الله، متغافلاً عما لديه عند الله، متحللاً عما سوى الله، متعلقاً ككلٍّ بالله.

هذه أماهيه من نعال فيها انشغال عن الله، عليه أن يخلعهما ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾! فالنعل ما يمشى بها إلى بغية، مادية أم معنوية، فإذا موسى واصل إلى بغيته القصوى، إلى الواد المقدس طوى، فليخلع نعليه، واقفاً حافياً بقدميه، حيث يمشي منذ الآن ويُمَشّي براحلة الوحي من الله، فلا حراك له بعد ولا سكون إلا بالوحي، دون سائر التعلقات والوسائل الماشية سوى الوحي، فإنه منذ الآن مختار الله.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾:

وترى موسى المختار لربه هو أدنى من الواد المقدس حتى يؤمر بخلع نعليه؟ أجل! إنه كموسى قبل أن يوحى إليه أدنى من الوحي وواديه، وليست قدسية الوادي إلا بقدسية الوحي، فإن شرف المكان بالمكين، فلا قداسة ولا نحوسة لمكان أو زمان، إلا بما حل في مكان أو زمان، وقد حلت بارقة الوحي البازغة لموسى في ذلك الواد، فقدس بها كما قدس موسى، وأمر أن يخلع نعليه ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

وذلك حكم عام لكل وادٍ مقدس، كالمساجد وحضور الرسول ﷺ والأئمة[1] أم قبورهم، حرمة لله، وتبجيلاً للمقربين إلى الله.

هنا موسى خيرة الله - وطبعاً على علم - على العالمين، وإلّا فكيف يُبعث رسولاً إلى العالمين، كما هو الصيغة الشاملة لكافة المرسلين، إنهم خير العالمين باختيار رب العالمين.

و﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ هنا هي بصيغة أخرى هي أدل وأحرى في ﴿طه﴾ نفسها. ﴿. . . فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾[2] و﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3] أجل ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[4]: تصريحات أربع تبين محتدة الرفيع التربوي الرسولي والرسالي!.

أجل والرسل كلهم صنائع الرب لنفسه، ليحمِّلهم رسالاته آمنين مأمونين، حتى لا تشوبهم شائبة، ولا تنال منهم نائلة نائبة، فتصبح مساعيهم خائبة.

فيا لموسى تكريماً كريماً أن يختاره الله ويصطنعه لنفسه، وهكذا تكون رسالة الوحي، لا تُستحق على الله، فإنها خيرة الرب لا سواه، وليست سائر الأسباب للمختار برسالة الله، إلّا تقدمة لظرفها الصالح لها، دون أن تكون المساعي الشخصية، أو الشوراءات، لها مدخل قاطع في تلقي الوحي،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٤ في الخرائج والجرائح قال علي بن أبي حمزة: كنت مع موسى عليه السلام (أي موسى بن جعفر) بمنى ثم مضى إلى دار بمكة فأتيته وقد صلّى المغرب فدخلت عليه فقال: اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى فخلعت نعلي وجلست معه.

(٢) سورة طه، الآيات: ٤٠ - ٤٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.

(٤) سورة طه، الآية: ٣٩.

فإنما هي خيرة الله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[(١)].

فهي إذاً رعاية الرحيم الرحمن لهذا الإنسان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٢)]؟

والاختيار افتعال من الخير، فقد يختار الإنسان نفسه بما يعتمل من صالحات فيكتمل، ولكنه لقصوره في ذلك الاختيار لا يصل إلى القمة وهي العصمة علمية وعملية وتطبيقية.

ولكنه حين تمتد إليه يد الرحمة الإلّهية الخاصة، بعدما سعى سعيه وقد اختار له ربه ظروف السعي العليا منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وإلى الولادة والنضوجة العقلية، آنذاك تشمله الخيرة الإلّهية الثانية لإفاضة العصمة والتسديد الرباني، فهو مختار الله في أبعاد ثلاثة، والزاوية الوسطى بينها هي مساعي العبد باختياره على ضوء ما قدم الله له من قبل، ونَظَرة ما يؤخره له من بعد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وهاتان آيتان بدائيتان من الوحي القدامي أمام وحي الرسالة، تهيِّئان لموسى ظرف الاستماع لذلك الوحي بسمع القلب وقلب السمع، ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ وكان سامعاً لما أوحي قبلها ولكن منذ الآن عليه الاستماع بعد سمع، تحضيراً لمسامع قلبه ولبه وفؤاده، بعد سمعه.

فحين يتم الاختيار الرباني لرجل رباني يحين حين استماع الوحي بعد سماعه، وبعد تحمل مشاق في سبل التخيُّر، التي فيها أشلاء ودماء وحرمانات وكل ما هو آت في هذه السبيل المليئة بالأتعاب والأشغاب.

وفي تفريع الاستماع ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ على الاختيار ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ دليل أن الاختيار دليل الاستماع، فلولا الاختيار لم يك استماع لما يوحى، فهو اختيار لوحي الرسالة، بعدما اختير لعبودية كاملة هي ذريعة للرسالة.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

وموسى هنا بطبيعة الحال يستعد للاستماع بكامله وقد يصح ما قيل فيه إنه وقف على حجر واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره وأصغى بشراشره، فأصبح كله أذناً صاغية واعية، ومن أدب الاستماع حضور المستمع بكل محاضره ومسامعه، تأهُّباً لتعلمه وتفهمه، ثم تطبيقه ونشره، وذلك هو الاستماع الكامل الحافل لغايته، وهو استماع الرسالة ورسالة الاستماع، وإلا فلا سماع ولا استماع.

فموسى الرسول هنا يستمع كرسول، دون ما استمعه من قبل بما يتبنى شخصه قبل رسالته نبوءة شخصية: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فقد كان اصطناعه مرحلياً كسائر الرسل، شخصياً كما يجب ثم رسالياً ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾:

وهنا يختصر الوحي في بدايته الرسالية في بنود ثلاثة مترابطة مع بعض، التوحيد والعبودية والساعة، وهي بصيغة أخرى: المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، وهذه هي الأصول الموضوعية الرئيسية للشرعة الإلٓهية ككل وفي كافة الرسالات.

ولماذا ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ بعد ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ دون «ما أوحي»؟ علّه لأنه مما يوحى لكافة الرسل ككل، لا فقط لموسى، بل ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ على طول خط الرسالات، إيناساً له بعامة الوحي وهامته:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾:

كلمات ثلاث هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ومن ثم إلى إحدى عشرة آية، عرض لواجب الرسالة تدريباً لآياتها ﴿وَمَا تِلْكَ

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.

بِيَمِينِكَ... لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ ثم ذهاباً إلى فرعون وهو رأس الزاوية في متاهة الضلالة، ومن ثم اثنتي عشرة آية أخرى يتطلب فيها موسى من ربه شرح صدره، وتيسير أمره، وحل العقدة من لسانه، وشد أزره بوزير من أهله تكملة لأمره.

فقد فصِّلت الأصول الثلاثة هنالك بعدما أجملت، خلال ثلاث وعشرين آية، عرضاً موجزاً عن كل الرسالة الموسوية وكافة الرسالات فإنها سلسلة موصولة في خيوطها وخطوطها على مدار الزمن الرسالي إذ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1].

﴿إِنَّنِىٓ﴾ لا سواي ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ لا سواي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ لا سواي، توحيداً في كافة جنبات الألوهية والربوبية.

وهذه هي قضية الحضور في الوحي، تعريف المسمى الحاضر باسمه في توحيده، تعريفاً للذات بوصف الاسم، لا تعريف الاسم بوصف الذات، فالنص ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لا «إن الله أنا».

فالله ذاته هو حاضر بذاته، يعرف نفسه باسمه الذي يخطؤه الجاهلون إلى سواه: «إنني أنا» المسمى بـ «الله» لا سواي، فـ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[2]؟

وهنا بعد إثبات أنه هو الله دون سواه، إذاً فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ لأن الكل غير الله، فكيف يشرك غير الله بالله، والألوهية الأصيلة خاصة بالله كما يعترف بها المشركون، ولكنهم يشركون به من لا يسمونهم باسم الله، وإنما آلهة دون الله، متهمين الله أنه أشركهم بنفسه، أم هم يشركونهم به إذ لا يصلون إليه نفسه، فليصلوا بآلهة أخرى هم من خاصة عباده ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

وهنا ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ يفرّع عبوديته الوحيدة على ألوهيته الوحيدة، فأصل عبوديته لـ ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ وانحصارها فيه حيث ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ والعبودية وهي خالص الخضوع والخشوع للمعبود لا تحق إلا لخالق الوجود ومدبر كل موجود، وهو هو الله الخالق المدبر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

فالألوهية الوحيدة هي قوام العقيدة وقضية العمل وفقها، والعبادة تشملها توجهاً إلى الله الواحد في كل نشاطات الحياة وواجهاتها، فليكن العبد بشراشره ظاهرة وباطنة عبداً لله وتعبداً في الله، وليست العبودية إلا بعد المعرفة حيث تتبناها في البداية ثم زائد المعرفة تتبنى العبودية كما تتبنى سائر وسائلها.

ولأن الصلاة هي قمة العبودية وعمود الدين العبادة، لذلك تختص بالوصية بعد مطلق العبودية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فيا لهذا الوحي الحبيب من طلاوة، وفي تلاوته من حلاوة، حيث يؤثر فيمن يحمل غضاضة بكل هزازة وهو الخليفة عمر حيث يأخذ سيفه ليقتل محمداً ﷺ لأنه صبأ وأصبأ معه جماعة آخرين، فلما يقرأ طه إلى هنا يؤمن!(٢) أجل

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٢ - أخرج ابن سعد وأبو يعلي والحاكم والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: خرج عمر متقلداً بالسيف فلقيه رجل من بني زهرة؟ فقال له: أين تغدو يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً ﷺ قال: وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك قال: أفلا أدلك على العجب أن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما خباب فلما سمع خباب بحسٌ عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم وكانوا يقرؤون طه فقالا: ما عدا حديثاً تحدثنا به قال: فلعلكما قد صبوتما فقال له ختنه: يا عمران كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤه فقالت أخته: إنك رجس نجس =

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾[(١)].

ولأن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ تحمل قمة البيان للصلاة والدافع لها وغايتها، لأنها بداية الوحي على موسى، وهي موجَّهة كذلك وبأحرى إلى محمد آل طه، فلتكن حاوية كل ما للصلاة من صِلات بالعبد وبالله وبنفسها شروطاً وأجزاءً ومقارنات ومقدمات، بهذه الصيغة الاجمالية الجميلة، وهي كذلك حين نتأملها كيف نتعملها.

فـ «أقم» تحمل كافة القيامات الظاهرية والباطنية، فردية وجماعية للصلاة، فإنها قد تؤتى غير مقامه بما يتوجب فيها، وهذا قيام إليها دون إقامة لها ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[(٢)] ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾[(٣)] ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[(٤)] وهذه وأشباهها هي من إضاعة الصلاة ولم نؤمر في كل القرآن إلا بإقام الصلاة.

والصلاة تعمها قالاً وحالاً وأفعالاً، فلتكن مُقامة في مثلثها على أية حال.

= وإنه لا يمسّه إلا المطهرون فقم فتوضأ فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى إلى ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] فقال عمر: دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ . . . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حدثنا رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام قال: قال الله عز وجل : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني من جاءني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالإخلاص دخل في حصني ومن دخل في حصني أمن من عذابي.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.

ومن ثم «لذكري» تحمل احتمالات عدة تلائم أدب اللفظ وحدب المعنى:

فالذكر هنا بين دافع وغاية، والاضافة في كلٍّ بين ما هي إلى فاعل أو مفعول، واللام في ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ بين توقيت وتعليل، والظرف بين تعلقه بـ ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ ﴿وَأَقِمِ﴾ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ثم الذكر بين قال وحال وأفعال، تواصلاً في ذلك المثلث البارع، من ذكر اللسان وذكر الأفعال وذكر الأحوال، فطرية وعقلية، وفكرية وصدرية وقلبية، ولبية، وفؤآدية، حتى يصبح المصلي كله ذكراً لله كما كله عبد وعبادة لله.

فدافع الذكر للصلاة هو بإضافة المصدر إلى فاعله: لذكري إياك، فكما إني أذكركم في عطيات دائبة فأقيموا الصلاة ذكراً لي كما أذكركم، ذكراً بذكر وأين ذكر من ذكر.

ودافع ثان أن ذكري مفطورٌ في فِطَركم وعقولكم فأقيموا الصلاة بدافع ذكري الفطري، حيث فطرتكم بتوحيدي، حتى وإن لم آمركم بها، حيث الأحكام الفطرية ليست بحاجة إلى أوامر منفصلة، اللهم إلا أن تكون لها ذكرى، وكذلك سائر ذكري في الآفاق وفي أنفسكم، من وحي العقل ووحي الرسالات ووحي الكائنات أن لا اله إلا أنا فاعبدني حيث الكائنات برمتها هي ذكر لله بما قرره الله!.

ثم وغاية الذكر بالصلاة هي بإضافة المصدر إلى مفعوله، أقم الصلاة لذكرك أياي، لتذكرني بها فإنها خير ذكر قالاً وحالاً وأفعالاً، وإلى فاعله لغاية ذكري إياك في أولاك وأخراك، وهذه كلها في وجه التعليل المستفاد من اللام، دافعية أم غائية.

ومن ثم ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ توقيتاً، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حين تذكرني، لا حين الغفوة والغفلة كمن يأتون الصلاة كسالى أم سكارى، ثم لوقت ذكري الذي

قررته لي ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[١] ومن ثم توقيتاً هامشياً لمن نسي صلاته في وقتها فـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ حين تذكرها كما ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾[٢].

وإنما كررت - فقط - هذه الأخيرة فيما يروى عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، لأنها أخفى مصاديقها بين المحتملات بما هي هامشية غير أصيلة.

فقد «سئل رسول الله ﷺ عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس أو غربت ما كفارتها؟ قال: يتقرب إلى الله ويحسن وضوءه ويصلي فيحسن الصلاة ويستغفر الله فلا كفارة لها إلا ذلك أن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٣].

ومن هنا يتبين أن الفائتة مقدمة على الحاضرة، إلا إذا خيف على فوت الحاضرة كما استفاضت به الرواية عن الأئمة الطاهرة[٤].

وهناك ذكر القال في قيلات الصلاة، بحال ومنها النية الصادقة الصافية، وبأفعال هي كل أفعال الصلاة، وهذه المحتملات بضرب بعضها في بعض تصبح (٢٤٠) احتمالاً وإن كان بعضها مكروراً وآخر بين منكور ومشكور، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، ولأن الصلاة هي خير موضوع لذلك «لا تترك الصلاة بحال».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٩٤ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: سئل...
أقول: وقد أخرج قضاء الصلاة هكذا سناداً إلى الآية بعدة طرق عن الرسول ﷺ.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت أخرى فإن كنت تعلم أنك إذا صليت التي فاتتك كنت في الأخرى في وقت فابدأ بالتي فاتتك فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ - وإن كنت تعلم أنك إذا صليت التي فاتتك فاتتك التي بعدها فابدأ بالتي أنت في وقتها فصلّها ثم أقم الأخرى.

وهكذا نرى أن للصلاة صِلات عريقة دافعية وغائية وزمنية، كلها تحور على محور ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وكيف لا؟ وإنها أكمل صورة من صور العبادة وسِيَرِها، وأفضل وسيلة من وسائل الذكر حيث تتمحَّص لهذه الغاية، وتحصل بذلك الدافع، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى، فتجمِّع الإنسان للاتصال بالله، حيث تُعَلِّقه بالله بما دنى بها العبد أو تدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، ولذلك يروى عن صاحب المعراج قوله «الصلاة معراج المؤمن»!

ثم وفي تقسيم خاصر يحوي كل هذه التقاسيم ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ إنه بين قلبي وقالبي، وقلب الذكر هو ذكر القلب، وليس القالب إلا حاكياً عن القلب فمزيداً لذكر القلب، والجمع فيهما هو جمع الذكر، أن يصبح الإنسان كله ذكراً لله، إيصالاً للصلاة القالبية إلى الصلاة القلبية، ومن ثم إلى كافة المراحل الروحية.

فحين تحلّق الصلاةُ الذكر والذكرُ الصلاة على الإنسان ككل، يصبح كله صِلات بالله بصَلاة لله، وآنذاك ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

ومن أفحش الفحشاء الرئاء، فصلاة المرائي ليست ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ بل لذكر الناس في أسفل درك من الرئاء، ولجمع الذكرين في سائر دركاتها، وإن ذكر الفطرة وذكر العقل وذكر الوحي لله، وكذلك ذكر الله وكل ذكر دافعاً وغاية، إنها تنافي الرئا وتنافيها الرئاء!.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾:

وفي هذه الزاوية الثالثة من أركان الشرعة الإلٓهية تكتمل أصول الدعوة

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

مبدأً ومعاداً وما بين المبدأ والمعاد، وهذا هو الوحي بأحكام العبودية وفي قمتها الصلاة، فتمت بذلك أصول الدين بفروع في صيغة مختصرة محتصرة، هي لكل شرعة إلّهية، مهما اختلفت الشرائع في طقوس عبادية حسب المظهر والصورة.

ولأنه ليس ليلتزم عبودية الله - فقط - لأنه الله لا إله إلا هو - إلّا من شغفه حباً وهي عبادة الأحرار، وهم قلة قليلة بين عباد الله، ثم الثلة الباقية هم بين عبيد وتجار، لذلك يثنى دافع المبدأ بالتوحيد المعرفة الخالصة، بدافع المعاد، فبين المبدأ والمعاد يكثر العباد رغبة في الثواب وخوفة من العقاب.

وعرض المعاد في ذلك المثلث البارع، عرض عريض في المعنى الاجمالي عن المعاد واقعاً وغاية قصوى، وهنالك تتم الشرعة الإلّهية أصولاً وفروعاً في مطلع الوحي الموسوي كما هو في كافة المطالع الرسالية السامية، وقد جمعت لسيد المرسلين وإمام النبيين أتمها وأعمها وأهمها كما يناسب الخلود.

نجد ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ المعنية بها القيامة في إحدى وأربعين آية بين (٤٨) مرة «الساعة» في سائر القرآن، وهي ثانية الأسماء كثرة وشهرة بعد القيامة السبعين، مما يدل على مدى أهميتها تعبيراً عن ذلك اليوم العظيم.

وأصل الساعة من ساع الشيء إذا زال وضاع، فهي إذاً وقت ضياع الكائنات عن بكرتها في قيامة التدمير، وإطلاق الساعة على جزء من الزمان إنما هو لتصرفه وضياعه دونما رجعة، وكذلك أمر الساعة إذ لا رجعة فيها إلى الأولى، وإنما هي الأخرى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

وقد تعني ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ الساعات الثلاث كلها «ساعة الرجعة والموت والقيامة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ حيث المجهولية في كل منها تدفع إلى

السعي خوفة منها، مهما كانت الأخيرة هي الأصيلة بينها، والأوليان تتبنيانها.

ثم ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ في مواصفة الساعة، قد تعني سلب الخفاء وإيجابها معاً، فلو عنت السلب فقط، فقضية الفصاحة: أكاد أظهرها، حيث السلب في مادة الإفعال بحاجة إلى قرينة تسلبها عن إيجابها كما في ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[(١)] أي مسلوبي الطاقة في الصيام، ثم وعناية الإيجاب هي قضية ظاهر الإيجاب.

والجمع هنا بين سلب الخفاء وإيجابها جمع بين ما يعني من الساعة، فـ ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ سلباً لخفائها لمدى الحتمية القاطعة لوقوعها، لحد أكاد أظهرها قبل أوانها، أم أعلن بوقتها قبل مرساها، ولكن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

فذلك السلب مستحيل، و﴿أَكَادُ﴾ فيه مبالغة لتحقق وقوعها لحد أكاد أسلب الآن خفاءها، ومن ثم سلب الخفاء عن واقعها وهو إقامتها في وقتها، وذلك ممكن، وأكاد فيه تقريب لوقوعها: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[(٣)].

وإيجاباً: أن الساعة خفيَّة حسب الحكمة العالية والمصلحة الملزمة، لحد ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ على نفسي[(٤)] كما أخفيتها على غيري، فـ ﴿أَكَادُ﴾ هنا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥١.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في مجمع البيان وروي عن ابن عباس «أكاد أخفيها من نفسي» وهي كذلك في قراءة أبي وروي ذلك عن الصادق عليه السلام أقول هذه القراءة مطروحة أو مؤولة إلى =

مبالغة لطيفة تعني غاية الخفاء لها، لحد لو أمكن لكنت أخفيها على نفسي!.

و﴿أَكَادُ﴾ هنا لا تكاد تعني قرب الزمن لإخفائها سلباً أو إيجاباً، وإنما هي تأكيدة لامعة لتأكد واقعها في وقتها، واستحالة إظهارها قبل وقتها حيث «ثقلت في السماوات والأرض لا يجليها لوقتها إلا هو»! وما ألطفها وأعمقها تعبيراً عن مدى خفاء الساعة، ولماذا؟

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ...﴾ ﴿لِتُجْزَىٰ...﴾.

و﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ﴾ فأصل الجزاء هو غاية الساعة في إتيانها، وخفاؤها غاية ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أم ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ غاية لهما.

فإن الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العدل والفضل، فتتجه إليها النفوس المؤمنة فتحسب حسابها، سائرة في الطريق مراقبة تخشى الانزلاق بجيئتها المفاجئة الفجيعة.

فإذا كانت المجازاة هي المقصودة من إتيان الساعة، فلتكن قاطعة الإتيان لحد ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ إزالة لخفائها، ولتكن خفية في وقتها ليكون الخلق في كل حين على حذر من مجيئها ووجل من بغتتها، فيستعدوا لها قبل حلولها، ويمهدوا أنفسهم قبل نزولها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

والمجهول زمناً، القاطع إتياناً، هو عنصر أساسي في حياة الإنسان أم أي مكلف كان، لتكوينهم النفسي، متطلعين إليه، متبنين حياتهم عليه، فلو كانت الساعة لهم مكشوفة لوقفت نشاطاتهم، وأمنت حياتهم، ولكنهم وراء المجهول المأمول يُجرُّون، فيعملون لما يأملون، ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وسائر الطاقات، فيرون آيات الله في الآفاق

= أنها كتفسير لأخفيها وفي الدر المنثور أخرج تفسير «من نفسي» عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي صالح وعن ابن مسعود: أكاد أخفيها من نفسي يقول: أكتمها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت، وعن أبي: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلعكم عليها.

وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

تلك الساعة المجهولة الأمد تبشرهم بثوابها إن عملوا الصالحات، وتحذِّرهم عن عقابها إن عملوا الطالحات، فهم بذلك مندفعون إلى كل خير، دافعون عن أنفسهم كل شر، حتى إذا أتتهم ساعة الجزاء فتبغتهم رابحين، ساعة الموت أو الرجعة أم القيامة الكبرى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ - ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١].

وهنا نعرف أن السعي - فقط - هو عامل الجزاء ليس إلا، فلا فوضى هنالك في الجزاء، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم ولا جزاء بنيّة دون عمل فإنها ليست مما ﴿تَسْعَىٰ﴾ اللهم إلا نية الصالحات لمن لم يستطع أن يعملها، فلصاحبها الجزاء الحسنى فضلاً من العلي الأعلى، وذلك بدلالات أخرى غير ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وكما أن آيات حصر الجزاء بالأعمال ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] تخص العقوبات - فيما تخص - بالأعمال الطالحة دون النيات فقط.

ثم ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ دون «بما تعمل» قد تلمح بكدح في العمل، فالصالحات المتفلتة دون سعي، والطالحات مثلها كما اللمم، قد لا يجزى بها أم يقل، ففي الأولى القلة حاصلة، وفي الطالحات العفو على شروطه المسرودة في الذكر الحكيم.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ تأكيد صارم صداً عن الصد عنها، تفريعاً على ﴿إِنَّ

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.

﴿ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ صداً عقيدياً عن إتيانها، أو خفاءئها، أم جزاء كل نفس فيها بما تسعى، أم صداً عملياً رغم التصديق بها، والصاد عنها هو ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في نكرانها والدعاية ضدها، فلو صددت عنها ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ في جحيم الضلالة والمتاهة، بما تتردى في همجية الأعمال بسفاسف الأخلاق.

وهناك ردًى في نكران المبدأ والمعاد هي أردىء، وهنا أخرى بنكران المعاد عقيدياً، وثالثة عملياً، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ تشمل ذلك الثالوث كله، حيث الصد عن المعاد بعد الصد عن المبدأ أردئ فتشمله ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ بأولى وأحرى.

وقد تعني ﴿عَنْهَا﴾ و﴿بِهَا﴾ - فيما عنتا - كلمة التوحيد المستفادة من ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ والعبادة المعنية من «فاعبدني» والصلاة المذكورة بنفسها وفي خلالهما الرسالة المبيِّنة لهما كما تعني الساعة أخيراً، وقد تقتضيها طبيعة الحال في بنود الرسالة المسرودة هنا، فإن إثباتها يقتضي تأكيد السلب عن الصَّد عنها، وهنالك تردِّيات عدة في الانصداد عن كلٍّ منها، فهنا في المرجع لضميري «عنها وبها» احتمالات يحتملها اللفظ والمعنى[١].

﴿فَتَرْدَىٰ﴾ في هوّات الإشراك بالله عند الصد عن كلمة التوحيد، فتهلك في هذه الردى.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾ في الشهوات واللهوات في صدك عن عبادته وعن الصلاة لذكره تعالى.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾ عن التزامات العبودية والصلاة ولزاماتها عند الصد عن الساعة، فهنالك - إذاً - ثالوث من التردِّيات والتهلكات في الانصداد عن مثلث المعتقدات.

---

(١) رجوعاً للأول تارة إلى المجموعة المستفادة مما سبق، وأخرى إلى كل واحدة منها، توحيداً ونبوة وعبادة وصلاةً وساعة، وهكذا الأمر في الثاني، والمحتملات ٢٨.

وقد تعني كلٌّ من «عنها وبها» فيما عنتا، كلاً من هذه الثلاثة، حيث اللاإيمان في كلٍّ منها يصد عن الأخرى كما يصد عن نفسها، فنكران التوحيد صدٌّ عن العبودية والساعة، ونكران العبودية والصلاة صد عن المبدأ والمعاد، ونكران الساعة كذلك صد عنهما.

ومن هنا نعرف أن الواجب في أصول الدين وفروعه ليس هو الاعتقاد بها والعمل لها فحسب، بل والتصلب والصمود فيها لحد لا تنفصم عراها.

وهنا في واجب العلم بالأصول وفروعها مراحل: القناعة الشخصية دون تزعزع ولا تلكُّؤ، ثم الحفاظ عليها في المخالطات الضرورية مع الناس، ومن ثم في السَّبح الطويل في خضم المجتمع، ثم الدعوة إليها والدعاية الصالحة لها.

فالمرحلتان الأوليان مفروضتان، إذ لا بد للإنسان من مخالطة حيوية مع المجتمع، كضرورة للحياة، والثالثة لا تصح إلا لمن صحح يقينه لحد لا ينفصم بمن يصد عنه، وإلا فذلك تورط وتردٌّ في ورطات وهوات.

والرابعة هي للدعاة إلى الله على شروطاتها، أخذاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى القيادة الربانية الشاملة غير المعصومة، وإلى قيادة العصمة في أئمة الهدى، إلى قيادة الرسالة، وكلٌّ درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوٓاْ وَمَا رَبُّكَ﴾ ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

والبلاء العام في ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ هو ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ إذ لا برهان على الصد عنها فطرياً ولا عقلياً ولا أياً كان، اللهم إلا اتباع الهوى، ولا يتبع هوى أصحاب الهوى إلّا من هو من أصحابها، تغافلاً عن فطرته وتجاهلاً عن عقليته، وتعامياً عن آيات الرسالات الإلَهية.

فـ «إنما أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل أما اتباع الهوى

فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[1] و«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[2].

وترى موسى المختار من ربه لوحيه ما كان موحداً يعبد ربه ويصلي لذكره ويعلم آتية الساعة، حتى يخاطَب في بازغ وحيه جملة عن تفصيل ما أوتي في الألواح، بهذه الأصول المعرفية والعملية.

أجل ولذلك اختاره الله، ولكنه كرسول يحمل - بما يوحى - رسالة الله إلى العالمين، إضافة إلى تكملته نفسه بأكمل مما كان كما هو قضية الحال في كل رسول على آية حال، وقد أمر محمد ﷺ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[3] وما إلى ذلك من أوامر، تصطنع شخصه أكثر مما كان، ورسالته إلى العالمين.

هنالك تمت المرحلة الأولى لنداء موسى، حاوية جملة الرسالة، وبينما هو في شغف الاستماع وشعفه بكل كيانه حيث أصبح كأنه كله سمع واستماع، إذاً بمرحلة ثانية في مسائلة حبيبة:

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾:

«و» هنا عطفاً على نبوءة الوحي قد تلمح أن في سؤاله بجوابه وحي آخر نبوءة أخرى كما مضت، أم رسالة أماهيه من خارقة إلهية.

(١) نور الثقلين ٣: ٣ عن أصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ...

(٢) أصول الكافي بسند متصل عن أمير المؤمنين عليه السلام ومثله في النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

ثم «ما» سؤال عن الماهية دون فاعليتها، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى عصاه تأشيراً أنه تعالى يعرفها كماهيه ولكنه يعني بسؤاله موسى أن يعرفها كما هي، يعرفها لبيان البون بينهما، الذي لا يعرفه موسى.

و﴿بِيَمِينِكَ﴾ دون «يدك» علّه لبيان الموضع، فعلَّ بيساره شيئاً آخر كالخاتم وسواه.

فلم يكن السؤال استفهاماً، بل هو اختبار لمدى معرفة موسى بعصاه حتى يزيد أخرى لا يعرفها، وما اختيار موسى لما يوحى بالذي يدل على أنه يعرف الأمور كلها، بل هو كما كان هو الآن بحاجة في معرفة عصاه إلى تعريفٍ من ربه، فضلاً عما سواها من معرفيات.

ونرى موسى بدلاً عن أن يجيب عن ماهية عصاه، يكتفي بذكر اسمها ثم مآربها عنده، وقد كان يكفي ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ عسى أن يزيده ربه تعريفاً بعصاه، ولكنه لشغفه البالغ لتلك المحاورة الحبيبة مع ربه، حين ما يسأله عن أبسط شيء متعطفاً عليه، لذلك يطوّل في الجواب بأقصى ما يعرفه عن عصاه، عساه أن يزيده ربه علماً بعصاه.

وقد عنى من هذا السؤال أن يستحضر موسى معرفته بعصاه، وأنها كعصاه منسوبة إليه ليست إلا كما عرفها، فلما تصبح حية تسعى أو ثعباناً مبيناً بما ألقى، يعرف أن ذلك من ربه وليس منه، فقد كانت معه ردحاً كثيراً من الزمن فلم تكسب من معيته ما كسبت من مفارقته بإلقاء موسى، ثم ليؤكد أنها خشبة كسائر الأخشاب حتى إذا قُلِّبت حية تسعى فلا يخشاها، بل يعرف أنها قلبة الهية عصا رسالية لموسى بعدما كانت عصا بشرية، وأين عصى من عصا؟.

وترى أن موسى بذلك الخطاب دون حجاب يفضَّل على نبينا؟ كلا حيث خوطب نبينا ﷺ دون أي حجاب، ولموسى حجاب النور والشجرة،

ثم موسى لم يصل في وحيه إلى مقام «أوْ أدْنى» ومحمد ﷺ وصلها، وقد أعلن الوحي الخاص إلى موسى في إذاعة توراتية وقرآنية، ووحي محمد الخاص به لم يعلن بعد: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1]!

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِىَ﴾ التي بيميني ﴿عَصَاىَ﴾ وفي الخبر أنها «قضيب من آس من غرس الجنة»[2].

«كانت لآدم عليه السلام فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى وإنها عندنا»[3] أي أهل البيت عليهم السلام، ولا تصدقها ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾... أو تكذبها، ولئن كانت فيها من قبل خوارق عادات لذكرها في عداد العاديات من فوائدها، اللهم إلا أن تكون معنية فيما يعنى عن ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ولو أن ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ تعني ما قد يروى من خوارق العادات، فكان موسى - إذاً - تعودها منها، فلماذا يخافها إذا هي حية تسعى؟! ﴿قَالَ خُذْهَا

(١) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٢) تفسير البرهان ٣: ٣٤ عن الكافي بسند عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: كان عصا موسى قضيب آس من غرس الجنة أتاه بها جبرائيل لما توجه تلقاء مدين وهي وتابوت آدم في بحيرة طبرية ولن يبليا ولن يتغيرا حتى يخرجهما القائم عليه السلام إذا قام.

(٣) المصدر عن الكافي بسند عن محمد بن الفيض عن أبي جعفر عليه السلام قال: كانت عصا موسى لآدم فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى بن عمران وإنها لعندنا وإن عهدي بها آنفاً وهي خضراء كهيئته حين انتزعت من شجرتها وإنها لتنطق حين استنطقت، أعدت لقائمنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى عليه السلام وإنها لتروع وتلقف ما يأفكون، وتصنع ما تؤمر به أنها حيث أقبلت تلقف ما يأفكون يفتح لها شعبتان إحداهما في الأرض والأخرى في السقف وبينهما أربعون ذراعاً تلقف ما يأفكون بلسانها.

وفيه عنه عليه السلام قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة بعد عتمة وهو يقول همهمة وليلة مظلمة خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصا موسى.

﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾! ومن المحتمل أن الخوارق من هذه العصا بدأت منذ ألقى، وإلى ضربها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، والبحر فحصل بها فيه اثني عشر طريقاً يبساً، ثم إلى القائم منا عليه السلام وعساه يعمل بعصاه هذه أكثر من موسى وكما قد يروى.

وموسى هنا بعد تسمية العصا ذكر لها مأربين من مآربه، قاصداً تطويل الجواب آنساً طائلاً في نداء ربه، إذا بالكلام متفلتاً عنه استحياء منه أم لعدم مساعدة الحال واضطراب البال فأجمل سائر مآربه إلى قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أو يعني بها ما يجهله الآن وقد تلمَّحه من ملامح البيان عساه يذكره ربه لعصاه، وبينهما مآرب التوكؤ والهش، فلنفسه: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ اعتماداً في مثلث القيام والمشي والوقوف، ولغنمه: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ خبطاً لأوراق الأشجار الهشّ وهو الرخو اللين سريع الحث والكسر لحد يكفيه هش العصا.

ثم ومن ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ التي أجملها، الاستظلال بها ركزاً لها وجاه الشمس وإلقاءً لكسائه عليها، ودفعاً لذئب وسواه من الضاريات حين تعرضه وغنمه أماهيه من مآرب أخرى معنيَّة.

والمآرب جمع المأربة وهي الحاجة، وقد ذكر منها اثنتين بعد تعريفه بما بيمينه، ثلاثة غير مسؤول عنها حيث السؤال بـ «ما» ليس إلا عن الماهية، دون «كيف» وأضرابها التي هي للكيفية، ولكنه ما كان ليعرف من ماهيتها إلا ﴿هِيَ عَصَاىَ﴾ ثم الله أبرز لها ماهية أخرى فإذا هي حية تسعى.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾:

ترى ولماذا إلقاءها هنا لتكون حية تسعى؟ إن ذلك تدريب له بما تعدُّ له من آيات ربه الكبرى، وليكون على معرفة وأهبة بما سوف يفعله الله عند فرعون آية لموسى!.

وقد يعني على هامش ذلك المعني إبرازاً لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير الله أنه حية تسعى، تخليصاً. لموسى أن يتوكأ نفسياً على أي متكيءٍ سوى الله، كما خلع عنه نعليه إذ هو بالواد المقدس طوى، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي، وهنالك ينعكس خلع النعلين - لتخلِّيه عما سوى الله - وحياً يوحى، ثم إلقاءه عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى.

وكيف تنقلب العصا حية تسعى كما هنا، أم جاناً مهتزاً كما في النمل (٣١) والقصص (١١): ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أم ثعباناً مبيناً كما في الشعراء (٣٢) والأعراف (١٠٧) والأوليان حالة واحدة، والأخيرة حين ذهب إلى فرعون؟.

إنها خارقة إلٓهية كآية تدل على وحي الرسالة ورسالة الوحي، وركب العلم السائر مهما كان حائراً فيها وحق له أن يحتار، ولكنه ببلوغه ذروة من رقيّه يختار ما فيه يحتار، إنه في إمكانية الانقلاب يوافق الأصول العلمية الثابتة، ولكنه لا يسطع عليه إلا الله دون سواه، حيث العناصر تتركب من جزئيات، وهي من ذرات، وهي من أجزائها من الكترونات وبروتونات..

إذاً فالأصول الفيزياوية والكيماوية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية إلى أجزائها معروفة وسواها، وما اختلاف العناصر والجزئيات والذرات إلا باختلاف التركبات مادة ومُدة وعِدَّة وعُدَّة.

وقد أتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر إلى أخرى! أفلا يتاح للقدرة الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها، اختصاصاً بساحة الربوبية كما هو في أصل الخلق وفروعه.

فالأجزاء التي تتشكل منها الحية هي هي التي شكلت منها العصا، ثم هنالك. خارقتان اثنتان، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعاً، وقد

يحتاج إلى الآفات من السنين وتوافقات لا يعلمها ويقدر عليها إلا الله، وثانيتهما خلق روح الحية كما في سائر الأرواح على الإطلاق.

إذاً فليست الخارقة الإلٓهية خرقاً لضوابط العلية، وحرقاً للعلل، بل هي تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أماهيه من جانب علة العلل، فهو الخالق للأسباب والمسببات، وله الأمر في شروطاتها وكافة لزاماتها وتدبيراتها وتقديراتها ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[(١)].

ثم وما خَلْقُ حية تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها، أم في أصلها الأول حيث خلقت من تراب، والأفعال الإلٓهية كلها من اختصاصات ساحة الربوبية ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين، فإنهم ليسوا إلا أداة ومظاهر لفعل الرب، وحياً أم آية تثبته.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[(٢)] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[(٣)].

لقد خاف موسى من حية تسعى وهي من عصاه؟ عساها تلدغه علّه ظلم وعصى، فنهاه ربه «لا تخف» بعدما ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[(٤)] كمن معك، و﴿لَا يَخَافُ... إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ كما ظلم فرعون وخاف ثعبانه العظيم ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وهي حية تسعى ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بعد أخذك إياها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهي العصا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣١.
(٣) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.
(٤) سورة القصص، الآية: ٣١.

وترى كيف يجوز لموسى أن يخاف فعل الله الآية، وهو لدى الله، رسالة من عند الله، يخاف آية الرسالة الإلَهية؟.

موسى هنا وفي بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف أنه آية إلَهية لرسالته، فعلّه حسبها امتحاناً من الله ببلية جلية عما قدم فأخره عن رسالته وكما قال حين قضى على القبطي ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾[1] أم خافها خوفة أن تكون هي الحية التي أضل آدم وأغوى.

ثم وخوفه منها دليل أن قلب العصا إليها لم يكن من فعله فما هو إذاً بسحر حيث السحر من فعل الساحر فلا يخافه، وهكذا تكون آيات الرسالة كلها أنها من أفعال الله تظهر على أيدي رسل الله لتدل بذلك على اختصاصهم بالله فيصدَّقون في وحي الله.

وهنا ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ دليل أمره بأخذها وهي حية تسعى، ولكنه تعالى طمأنه أنه سيعيدها بعد أخذها سيرتها الأولى، وهي آية أخرى، فكما أن قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصا آية، وفيها كرامة لموسى أن أظهرهما بيده، ولكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بيِّنة.

فإنما عليه الإلقاء وعلى الله قلبها بذلك حية تسعى، ثم عليه أخذها وعلى الله أن يعيدها سيرتها الأولى، وقوعاً للمعجزة في صورتها الأخرى كما كانت العصا في حالتها الأولى.

ولماذا ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ دون صورتها، حيث الصورة الأولى لا تلازم السيرة الأولى، فقد يجوز أن تتصور الحية بصورة العصا، ولكن السيرة الأولى وهي الخشبية تلازم صورتها الأولى.

وترى ما هو عامل النصب لـ ﴿سِيرَتَهَا﴾ أنصباً بنزع الخافض؟: إلى

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.

سيرتها الأولى، أم بفعل مقدر من نفس السيرة: تسير سيرتها الأولى، والحذف دون مرجح ولا قرينة خلاف الفصاحة!.

«نعيدها» أدبياً تتطلب مفعولاً ثانياً هو بطبيعة الحال ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو المتعين معنوياً حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى، والمُعاد هنا ليست الصورة الأولى بل مثلها ضمن السيرة الأولى الخشبية، والمادة نفس المادة، زيدت لها صورة حية تسعى بسيرتها، ثم أعيدت المادة نفسها إلى ما كانت سيرة وصورة، وذلك إعادة مثل الصورة الأولى إلى المادة وليست هي إلا هيه.

وإعادتها صورتها الأولى نفسها مستحيلة في بعدين، إعادة المعدوم فإنها ممتنعة، وتبديل المادة صورة بلا مادة، وأما إعادتها سيرتها فليست إعادة شيء بل هي تعني قلب الصورة الثانية وسيرتها إلى الصورة الأولى وسيرتها والمادة هي المادة.

فهنا في قلب العصا حية تسعى، قلب لصورة العصا وسيرتها، إعداماً لهما إلى أخرى، ثم في إعادتها سيرتها الأولى سلب أوّل هو سلب روحها، وسلب ثان هو سلب صورة الحية، وبينهما خلق لمثل الصورة الأولى، ومجموع هذه الثلاث عبَّر عنها بإعادتها.

هناك قال موسى عن عصاه ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا...﴾ عصاً لمآربه كموسى، وهنا انقلبت إلى عصا الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها، ويهش بها على غنمه - وهي أمته - هشاً، ولانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر، ولنفس العدد طريقاً يبساً في البحر، ثم له فيها مآرب أخرى قدَّرها الله لهذه العصا، علَّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات الله عليه) من هذه العصا أفضل مما كان لموسى.

هذه آيتا العصا، ومن ثم آية اليد البيضاء، وهي ألصق به من الآية الأولى:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[١].

الجناح هو الكتف والإبط تشبيهاً بجناح الطائر حيث يعني منه هنا أن يجنح طائر الرسالة الموسوية إلى محطة الدعوة القاسية الفرعونية، فأصبحت اليد والعصا برهانين من ربه إلى فرعون وملائه.

و﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تعني أن بيضاءها سليمة دون برص أو مرض[٢]، فلذلك، ترجع إلى ما كانت كما أعيدت العصا إلى سيرتها الاولى.

وقد خرجت يد موسى - وعلّها هي اليمنى - بيضاء مشرقة وقد كانت سمراء[٣] وقد تكون إشارة إلى إشراقة اليد الرسالية الموسوية في بلاغها، وكما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده ويدخلها تحت إبطه، وقد صور له صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة في ذلك الموقف المُجنح الطليق من رتبة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾:

﴿لِنُرِيَكَ﴾ قد تتعلق بـ «ألقها» و«اضمم» كبداية وتقدمة: قلنا لك ألقها واضمم لنريك... وأخرى بـ «اذهب» كغاية: اذهب لنريك من آياتنا

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في كتاب طب الأئمة بإسناده إلى جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في الآية قال: يعني من غير مرض وفي البرهان ٣: ٣٥ عن ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: من غير مرض.

(٣) البرهان ٣: ٣٥ - عن تفسير القمي بسند عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان موسى شديد السمرة فأخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا.

الكبرى، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثالاً ونموذجاً للكبرى، وحقاً إن الآيات التي أوتيها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى، لها دلالالتها البالغة القصوى، آيات لفرعون وملائه، وأخرى لهم ولقوم موسى.

وترى إذا كانت العصا واليد البيضاء ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فكيف تكون آية القرآن هي الكبرى وهي في القمة العليا، لا نظير لها ولا تسامي؟.

﴿مِنْ﴾ هنا تعني أنها البعض من الكبرى، مهما كانت الكبرى درجات، كما أولو العزم من الرسل خمسة وهم درجات، أم تعني - فقط - الآيات البصرية وهي في الحق من الكبرى، وقد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى، وأما الآية البصيرية فهي منحصرة في القرآن، منحسرة عما سواه من كتابات الوحي، فلا تعنيها هنا ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ لأنها الوحيدة لا تناظر أو تسامي، فلا تدخل في نطاق الجمع من ﴿ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأيَّة نظيرة في آيات الرسالات، لأنها منقطعة النظير بين كل بشير ونذير!

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾:

يُذكر فرعون في أربعة وخمسين موضعاً من الذكر الحكيم، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة، ثم «الشيطان» في (٦٨) مهما ذكر إبليس (١١) مرة، والمجموع تزيد خمسة وعشرين على فرعون، فهو - إذاً أخ له كبير بين الملائين الملاعين من إخوته الشياطين!

ولما تبلغ الفرعنة إلى ذلك الطغيان على الله ادعاءً للربوبية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١)، وعلى عباد الله استخفافاً فتعبداً له: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾(٢) عند ذلك التنمرد والتمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب إليه، دون نظرة لذهاب فرعون إليه، إذ صده طغيانه عن الله فضلاً عن رسول الله!

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٤.

فالى هنا كان الوحي بآياته لموسى نبوءة دون رسالة، وهنا بزغت الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية، فلقد عاش جواً من طغيان الفرعنة ردحاً من عمره، فلا يرى من نفسه بنفسه نجاحاً تاماً في هذه الرسالة إلا بإمدادات ربانية، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة الخطيرة، ويكفل له قوامه في هذه الرسالة، فلذلك:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾:

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة، ومن ثَمَّ نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي أزرٌ للأولى وأولى له ثم أولى أن يستعد بزاد أزيد وراحلة أرحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة، لا لأمر إلا لـ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾[1]!

نرى سؤل موسى هنا في إحدى عشرة آية، لم يكن ليسألها قبل أمر الرسالة، مما يدل على أنها كلها سؤل الرسالة بمسؤولياتها الخطيرة.

والبند الأول من سؤله الأول ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وذلك شرح لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس - إذاً - سؤالاً لسؤل حاصل، فإنه سؤال جاهل، وسؤل قاحل، فقد اختاره الله حين أوحى إليه، وكيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي؟ وكما شرح الله صدر محمد ﷺ وإن كان دون سؤال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2] «لك» كرسول إلى قوم لدٌّ وأمة خالدة، وكذلك لموسى إلى فرعون اللدود وأمة لدودة.

فانشراح الصدر لنبوءة الوحي أمر، وانشراحه للرسالة بعدها والنبوة أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الأمة، ومكذبو الرسالة، فلكلٍّ مجال حال

(١) سورة طه، الآيات: ٣٣-٣٥.
(٢) سورة الشرح، الآية: ١.

ولكل حالٍ مجال، ولكل هدًى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ...﴾(١).

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحوّل مشقة المسؤولية الكبرى إلى متعة، وعناءها إلى لذة، مهما كانت السبيل شاقة شائكة وملتوية طويلة، وهنالك ينجح الرسول وتنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا.

أجل إنه وجد لنفسه ضيقاً في هذه الرسالة دون ما قبلها: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾(٢) فشرح الله صدره عن ضيقه في نفسه وبوزيره هارون.

وفي تقديم نداء الرب في الدعاء «رب» تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدأ باسم الربوبية، فإن من قضيتها الاستجابة بعد الدعاء بشروطها، والتربية الرسالية تتطلب في سؤلها شرح الصدر عطاءً من الله، كما تتطلب العصمة الإلّهية.

و«لي» هنا دون «لنا» دليل الاختصاص لذلك الشرح، فللمؤمنين به، الصابرين معه، المثابرين على إيمانهم، أن لهم شرحاً كأمة، ولموسى الرسول شرح كرسول وأين شرح من شرح؟.

أجل ﴿ٱشْرَحْ لِى﴾ فأنا الذي أمرتني بالذهاب إلى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق إذا ازدحمت عليّ عقبات الدعوة وخلفيات الدعاية.

والبند الثاني: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ وطبعاً هو أمر الرسالة المعسور، يتطلب

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٠-١٤.

إلى ربه أن يجعله الميسور، وليس ذلك سؤالاً لتخفيف في رسالته، أم تطفيف عن وحيه ودعوته، كأنه يباين سؤل الرسالة، فإنه مزيد منها في كل حلقاتها، وحياً وآية وسعة في دعوة ودعاية.

إنما هو يسرها لموسى على عسرها، بمثلث من التأييد الرباني، مزيداً في تصبُّره، ووزيراً من أهله، وتأييداً في نجاحه من عنده تيسراً للعسير، لا تقليلاً للكثير، فإنه حط من ساحته، ومسٌّ من كرامته، وكيف يدعو عاقلٌ ربه هكذا فضلاً عن نبي كموسى!.

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة، مهما أوذي الرسول في سبيلها، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها، لا أريحية الرسول في حياته الدنيوية دونما أية صعوبة، فإن طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها، المحتفة عليها، كلما كانت الرسالة أوسع، والمرسل إليهم أشرس، فدوائر السوء عليها أكرس وأكرث.

والبند الثالث: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾.

ففقه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة، فلتحلل كافة العُقَد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول.

أترى ﴿عُقْدَةً﴾ هنا كانت حبسة في لسانه لخلل عضوية[1]؟ وتلك حبسة في أوصل وسائل الرسالة، ونقص في الرسول، فإن السنة القولية هي من

(١) في نور الثقلين ٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: وكان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون ويربي موسى ويكرمه ولا يعلم أن هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين - فأنكر فرعون ذلك عليه وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلبها أي قلعها فآلمه ألماً شديداً فهمَّ فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بل يدري فقالت له: ضع بين يديه تمراً وجمراً فإن ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمراً وجمراً وقال له: كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرائيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل فعفى عنه.

مثلث السنة المعصومة الرسالية، بل هي أولاها دلالة مهما كانت العملية أولاها تأثيراً، فقصور اللسان أم تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة الهية، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾[(١)]!

ثم ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[(٢)] إنها تكذب نقص العضو، وتحبس عن لسانه حبسته العضلانية، فإن معقود اللسان ليس فصيحاً حتى يكون هارون أفصح منه.

ثم الفصاحة ليست سبب التصديق، ولا خلافها سبب التكذيب، فرب فصيح يكذَّب، ورب غير فصيح أم أخرس يصدق!.

فتلك إذاً عقدة عن الإفصاح تقية أمّاهيه، فحل عقدة هنا هو إزالة التقية عن لسانه وكفاية سطوة فرعون وغواته، حتى يؤدي عن الله آمناً، ويقول متمكناً لا خائفاً ولا وجلاً، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة.

فتراه يقول: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾[(٣)] فكما أن ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة، كذلك عدم انطلاق لسانه لأنه رُبي عند فرعون وليداً، وَقتل من غواته نفساً، وطبيعة الحال هنا تقتضي بتثاقل اللسان مهما كان فصيحاً، ويتكذيبه وهو أصدق الصادقين: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٨-٢٢.

فقد يعقد لسان المتكلم الفصيح لعقد نفسانية أم خارجية، فلا يسطع إفصاحاً لمرامه، أو مضياً في مَرامه، أو يطلق لسان غير الفصيح، وحتى المعقود اللسان أو الأخرس، لطلاقة نفسية وتجاوب خارجي، وموسى على سابقته، بمجابهة فرعون أن قتل منه نفساً، رغم تربيته الولادية عنده، ما كاد ليفصح عما يروم، صداً نفسياً عن إفصاحه، وآخر خارجياً وجاه فرعون وغواته، فلا بد له إذاً من وزير تخفيفاً عن وزره، وشداً لأزره، ورداءً لكلامه.

هذا وإن كنا قد نصدق حسب الرواية هذه الحبسة العضوية إلى حين الرسالة، حفاظاً على حياة موسى، ولكنها حلّت منذ الرسالة بدعائه المستجاب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ وقد تلمح ﴿عُقْدَةً﴾ منكرة دون «العقدة» إنها تعني العقدتين وقد حلهما بإزالة الرتّة العضوية والضيقة النفسانية، ثم بأخيه هارون رداءً يصدقه.

ومن هنا يبدأ بتطلب سؤله الثاني في بنود ثلاث ليكتمل الأول في إنجاح رسالته.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾:

وهنا البند الأول ﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ وهو حامل وزر الرسالة الموسوية وحياً ودعوة ودعاية، فكما الله وضع عن محمد ﷺ وزره بوزيره علي عليه السلام أخيه، كذلك يضع عن موسى وزره بهارون أخيه، وكما تواتر عنه ﷺ «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فعلي يحمل وزر الرسالة المحمدية دون وحي ورسالة، وهارون يحمل وزر الرسالة الموسوية بوحي ورسالة، والوزارة هنا كالوزارة هناك إلا النبوة.

والوزير من الوزر: الثقل - حيث الوزير يحمل ثقل المُلك مع الملك، أم من الوَزَر: الجبل الذي يُلتجئ إليه، حيث المَلِك يلتجئ إليه في مهامه،

والأول أسلم لساحة النبوة حيث يكون فيه الوزير الحامل الثاني لحِمل المُلك وعبئه، وهو الشخصية الثانية لمسؤولية القيادة العليا، زمنياً أو روحياً أم كليهما، كما هما حق للقادة الروحيين أنبياء وأئمة وعلماء ربانيين.

ثم البند الثاني والثالث هما كتفسير وإيضاح لحدود الوزارة، فشد الأزر هو تحكيم القوة الرسالية والعون فيها، والشركة في الأمر هي في أمر بلاغ الرسالة بالوحي، وليس الوحي فقط إذ لم يكن عبئاً عليه شخصياً، وإنما هي في حمل الرسالة بكل مسؤولياتها، وأما الدعاية لها والدعوة إليها بعد بلاغها الرسالي، فهو على عواتق المؤمنين بها ككل، دون اختصاص بوزير من أهله، فإنهم كلهم وزراءه في ذلك الأمر قضية الإيمان به، فالوزارة - إذاً - منصب خاص يتلو منصب القيادة العليا بانتصاب إلهي ليس إلا.

فلتكن الشركة المعنية هي في شؤون الرسالة وقيادتها الشاملة روحياً وزمنياً، فهو النائب الأول، والوزير الوحيد في كل ما قلّ وجلّ من الشؤون الأصيلة الرسالية كما هي على عاتق موسى، إزراً ورِدءاً وتصديقاً لتلك الرسالة السامية ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[1].

وقضية الحال هنا أن لو دام هارون بعد موسى لكان خليفته في رسالته، فإن الوزير في حياة الأمير هو الشخصية الأولى بين الشعب في كافة شروطات القيادة، فهو الأمير بعد وفاته دون سواه.

هنا ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ تقتضي الشركة في كافة شؤون الرسالة، وحياً وبلاغاً وحجة أمّاهيه، ولذلك نرى الرسول ﷺ يجعل علياً منه كما هارون من موسى ثم يستثنى النبوة.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.

ولا فحسب أن علياً عليه السلام وزير الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في متواتر السنة تنظيراً بآية الوزارة، بل وهو أخوه وولده بل ونفسه المقدسة لآية المباهلة ومتواتر السنَّة، فقد كملت الشروط وافية فيه لعرش الخلافة الاسلامية، ولادة وأخوة ووزارة ونفسية نفيسة هي أنفس القواعد الأربع لعرش الخلافة.

ولنرجع هنا إلى مادة الدعاء لموسى في هذه الوزارة السامية، لكي نتعرف إلى الوزارة العلوية العالية، وعلى ضوء متواتر الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على غرار الآية وقرارها.

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا...﴾ دليل أن جعل الوزارة الرسالية مخصوص بالله، وليس للرسول أن ينتصب لنفسه وزيراً في أمره فضلاً، عن أمته فكما الرسالة هي من الله، كذلك وزارتها من الله، وإلا فلماذا يسأل الله أن يجعل له وزيراً.

و﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ وطبعاً هي الأهلية الرسالية دون النَّسبية فحسب، ولا سواها من أهليات لا تؤهل لوزارة الرسالة.

﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ ويا للأهلية من جمع جميل أن تعم جانبي الرسالة والرسول، فهارون أهل لذلك الرسول رسالياً، وأهل له نسبياً، فهو أخوه في كلتا المرحلتين.

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ والأزر من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده إذا استعد لصعاب الأمور، وهارون يشد أزر موسى في بلاغ الرسالة رسالياً، لا فقط إيمانياً، فإنه يعم كافة المؤمنين بهذه الرسالة، ولذلك يلحِّق إشراكه في الأمر بشد الأزر.

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ شركة رسالية في كافة بنودها دونما إبقاء لواحدة منها، إلا أن موسى هو القائد الرسالي وهارون وزيره.

فالأزر هنا هو ظهر الرسالة الموسوية، لا يُشد إلا بُمظاهر رسالي من

نفس النمط وهو عضد الرسالة كما قال ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾[1].

وقد تنطبق هذه المواصفات بصورة أجلى وسيرة أسمى وأعلى في وزارة علي عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فسورة الانشراح تشرح آية الوزارة، ومتواتر الرواية عن طريق الفريقين يؤكد ذلك الشرح.

هنا تعالى معي إلى سرد لألفاظ ما أخرجه الحفاظ والرواة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتعرف أبعاد هذه الوزارة العَلَوية العِلوية.

لقد روى حديث المنزلة أول ما روى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى إذ «هبط جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبي بعدك»[2].

ومن ثم يكرره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عدة مواطن وقد رواه عنه صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من الصحابة منهم الإمام علي عليه السلام نفسه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يغزو غزاة فدعى جعفراً فأمره أن يتخلف على المدينة فقال لا أتخلف بعدك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعزم علي أن أتخلف قبل أن أتكلم قال: فبكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا علي؟ قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكيني خصال غير واحدة، تقول قريش غداً ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله، وتبكيني خصلة أخرى كنت أريد أن أتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] فكنت أريد أن أتعرض لفضل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما قولك يقول

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٢) أخرجه جماعة عن أسماء بنت عميس عنه صلى الله عليه وآله وسلم منهم محب الدين الطبري في الرياض النضرة (٢: ١٤٤) وفي ذخائر العقبى ص ٦٤ والقندوزي في ينابيع المودة ص ٢٠٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

قريش ما أسرع ما تخلف عن رسول الله ﷺ وخذله فإن لك بي أسوة، قالوا لي ساحر وكاهن وكذاب، وأما قولك: أتعرض الأجر من الله أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير إنه لا نبي بعدي»[١].

ومنهم عمر بن الخطاب أنه رأى رجلاً يسب علياً فقال: إني أظنك منافقاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[٢].

ومنهم معاوية بن أبي سفيان حيث سأله رجل عن مسألة فقال: سل عنها علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه أعلم، قال: يا أمير المؤمنين قولك فيها أحب إلي من قول علي فقال: بئس ما قلت ولؤم ما جئت به لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغره العلم غراً ولقد قال له رسول الله ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ولقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه ولقد شهدت عمر إذا أشكل عليه شيء قال: ها هنا علي، قم لا أقام الله رجليك ومحى اسمه من الديوان»[٣].

ولقد روى حديث المنزلة عن رسول الله ﷺ بألفاظ عدة في مواطن متعددة ثلة من الأصحاب[٤].

---

(١) رواه جماعة من القوم منهم النيسابوري في المستدرك ٢ : ٣٣٧ والحمويني في فرائد السمطين والذهبي في تلخيص المستدرك والهيتمي في مجمع الزوائد ٩ : ١١٠ والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥ : ٥٥ والبدخشي في مفتاح النجا ص ٤٥ والحلبي في إنسان العيون (٣: ١٣٢) والبغدادي في تاريخه ٧: ١٩٤.

(٢) أخرجه عنه جماعة منهم البغدادي في تاريخ بغداد ٧ : ٤٥٢ ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢ : ١٦٢ وقلندر الهندي الحنفي في الروض الأزهر ص ٩٨.

(٣) أخرجه عنه جماعة منهم ابن المغازلي في كتاب مناقب أمير المؤمنين عليه السلام والطبري في ذخائر العقبى ص ٧٩ عن الإمام أحمد في المناقب وفي الرياض النضرة ٢ : ١٩٥ والحمويني في فرائد السمطين والواسطي في المناقب ص ١١٨.

(٤) مثل سعد بن أبي وقاص ٣ - وجابر بن عبد الله الأنصاري روى عن عشرة كتب ٤ - وأبي سعيد عن ١٥، ٥ - وحبشي بن جنادة السلولي عن ٤، ٦ - وسعد بن مالك عن ٥، =

وهؤلاء الأعاظم كلهم سمعوا حديث المنزلة عن رسول الله ﷺ

= ٧ - وأسماء بنت عميس عن ٨، ٨ - وابن عمران عن ١٠، ٩ - وابن أبي ليلى عن كتب عدة، ١٠ - ومالك بن الحريث عن كتب عدة، ١١ - وسفيان الثوري عن ٣، ١٢ - وابن عباس عن ستة، ١٣ - وأم سلمة عن عدة كتب، ١٤ - وعبد الله بن مسعود، ١٥ - وأنس بن مالك، ١٦ - وزيد بن أرقم، ١٧ - وأبي أيوب، ١٨ - وأبي بردة، ١٩ - وجابر بن سمرة، ٢٠ - وغيرهم من الصحابة والتابعين من الحفاظ والمحدثين كلهم عن كتب معدودة هنا وغير معدودة وإليكم أسماء قسم من الكتب:

٣ - فسعد بن أبي وقاص يرويه عنه إبراهيم بن سعد رويناه عن أربعة وعشرين من كتب أعاظم محدثي العامة، وعائشة بنت سعد عن تسعة كتب وعامر بن سعد عن خمسة عشر ومصعب بن سعد عن أحد وثلاثين وسعيد بن المسيب عن تسعة عشر، وحديث آخر عنه عن أربعة، وعبد الدين سعد عن ثلاثة وعبد الله بن بديل عن عدة كتب.

٤ - وجابر بن عبد الله أخرجه عنه أحمد بن حنبل في المسند ٣: ٣٣٨ والترمذي في صحيحه ١٣: ١٧٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣: ٤٨٨ وابن الأثير في جامع الأصول ١: ٤٦٩ والحمويني في فرائد السمطين والقرشي في البداية والنهاية ٧: ٣٤١ والعسقلاني في لسان الميزان ٥: ٣٧٨ والسيوطي في ذيل اللئالىء ص ٥٩ والميبدي في شرح الديوان ١٧٣ والواسطي في المناقب ١١٨.

٥ - وأبو سعيد أخرجه عنه وابن سعد في الطبقات الكبرى ٣: ٢٤ والقشري في تاريخ الرقة ١٣٣ وابن المغازلي في المناقب والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ والهروي القاري في شرح العين ٣٥٦ والقندوزي في ينابيع المودة ٥٠ والنبهاني في الفتح الكبير ٣: ٣٤٣ والهيتمي والنعساني في تعليقته على تاريخ الرقة ١٣٣.

٦ - وحبشي بن خباءة أخرجه عنه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١: ٢٨١ والنعساني ١٣٣ والطبراني في المعجم الصغير ١٩٠ والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩.

٧ - وسعد بن مالك أخرجه عنه ابن سعد في الطبقات ٣: ٢٤ وأحمد بن حنبل في مسنده ١: ١٧٣ و٣: ٥٧ و٦٦ و٧٤ وفي المناقب ٣: ١٢٤ والنسائي في المخصص نص ١٧.

٨ - وأسماء بنت عميس أخرجه عنها الإمام أحمد في المستدرك ٦: ٤٣٨ والفضائل ٣: ١٠٧ والنسائي في الخصائص ١٧ والبغدادي في تاريخه ١٠: ٤٣ و١٢: ٣٢٣ وابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٤٥٩ والحمويني في الفرائد والذهبي في تاريخ الإسلام ٤: ٩٤١ والهيتمي في مجمع الزوائد.

٩ - وابن عمران أخرجه عنه الهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٠.

١٠ - وابن أبي ليلى أخرجه عنه المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٣٠.

١١ - ومالك بن الحريث أخرجه عنه البخاري في التاريخ الكبير ٤: ٣٠١.

أخرجه عن كل منهم جماعة من الأساطين وهم حسب ترتيب العدد يذكر بعضهم في الهامش.

وكل هذه الإخراجات متفقة في «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» أم بزيادة «أما ترضى» ثم «إلا أنه لا نبي بعدي»[١] «لا نبوة بعدي»[٢] «لا نبوة بعد نبوتي»[٣] «إلا النبوة»[٤]. . . . .

١٢ - وسفيان الثوري أخرجه عنه الخطيب في ٤: ٧١ من تاريخه وفي موضع أوهام الجمع والتفريق والطبري في الرياض النضرة ٣: ١٦٣.
١٣ - وابن عباس أخرجه عنه أبو نعيم في تاريخ أصفهان ٣: ٣٢٨ وابن المغازلي في المناقب وابن عساكر في التاريخ الكبير ١: ١٠٧ والهيتمي في المجمع ٩: ١٠٩ والبدخشي في مفتاح النجاة ٤٤ والقندوزي في ينابيع المودة ٢٣٤.
١٤ - وأم سلمة أخرجه عنها الدمشقي في البداية والنهاية ٧: ٢٤١ والهيتمي في المجمع.
١٥ - وابن مسعود أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقبه.
١٦ - وأنس بن مالك أخرجه عنه ابن المغازلي والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٢١.
١٧ - وزيد بن أرقم أخرجه عنه الشفشاوي في سعد الشموس والأقمار ٣٠٩ والهيتمي في مجمع الزوائد.
١٨ - وأبو أيوب أخرجه عنه الهيتمي في المجمع ٩: ١١١.
١٩ - وأبو بردة أخرجه عنه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣.
٢٠ - وجابر بن سمرة أخرجه عنه القندوزي في الينابيع ٥٠ والهيتمي في المجمع.

(١) هذا هو الأكثر المطلق ويعني «من بعدي» من بعد نبوتي لا بعد وفاتي، كما يفسره سائر النصوص.
(٢) أخرجه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ١٤٨ عن عدة طرق عن سعد بن عامر عنه ﷺ وأحمد بن حنبل في المسند ١: ١٨٥ وجماعة آخرون من الحفاظ.
(٣) أخرجه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء ٧: ١٩٥ والنسائي في الخصائص ١٥.
(٤) أخرجه الشيباني المروزي في المسند ١: ١٧٠ وفي الفضائل، والنسائي في الخصائص ١٤ و١٦ والحمويني في الفرائد والدمشقي في البداية والنهاية ٧: ٣٤٠ والمتقي الهندي في كنز العمال ٦: ١٥٣ وعبد الرحمن الرازي في علل الحديث ٢: ٣٩٠ والخطيب في تاريخه ٨: ٥٢ وابن المغازلي في المناقب كلهم عن عائشة بنت سعد عن رسول الله ﷺ والبخاري في التاريخ الكبير ١: ١١٥ عن سعد عنه ﷺ.

«لا نبي معي»[١]. «غير أنه لا نبي»[٢] «ولو كان لكنته»[٣] «إلا أنك لست بنبي»[٤] «إلا النبوة وأنت خليفتي»[٥] «إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي»[٦] صارخة صارخة أن لا استثناء عن تلك المنزلة إلا منزلة النبوة، حيث ختمت بمحمد ﷺ بهذه التصريحات العشر.

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «يا علي أنت مني بمنزلة هبة الله من آدم، وبمنزلة سام من نوح، وبمنزلة إسحاق من إبراهيم وبمنزلة هارون من موسى، وبمنزلة شمعون من عيسى إلا أنه لا نبي بعدي»[٧].

وحديث المنزلة على ضوء آيتها ليس يثبت لعلي عليه السلام فقط الخلافة بعد الرسول، بل الوزارة زمن الرسول ﷺ والوزير في حياة الرسول، أحرى أن يكون الأمير بعد وفاته.

وهذه قلة من ثلة من أحاديث المنزلة والتفصيل إلى المفصلات.

---

(١) أخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب والقندوزي في ينابيع المودة ٨٦.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦: ١٠٧ دخل سعد على معاوية فقال له بعد مكالمة بينهما: إنك لتأمرني أن أقاتل رجلاً سمعت فيه من رسول الله ﷺ يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي فقال له معاوية من سمع هذا معك قال: فلان وفلان وأم سلمة.

(٣) الخطيب البغدادي في تاريخه ٣: ٢٨٨ بسند متصل عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ولو كان لكنته.

(٤) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه والبدخشي في مفتاح النجا ٤٤ مخطوط وابن سعد في طبقات الكبرى ٣: ٢٤ عن البراء بن عازب وزيد بن أرقم.
وأحمد بن حنبل في مسنده ١: ٢٣٠ والفضائل ٢: ٢٤٠ والنسائي في الخصائص ٨ والنيسابوري في المستدرك ٣: ١٣٢.

(٥) أخرجه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ عن أبي بردة قال خرج علي...

(٦) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٧: ٣٣٨.

(٧) البحار الطبعة الحديثة ٣٧: ٢٠٤ بالإسناد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال رسول الله ﷺ والإخراجات السابقة نقلناها عن تعليقات إحقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٥ ص ١٣٢ - ٣٣٤.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾:

والسؤل هو الحاجة وهي هنا حاجة عضد الرسالة وأزرها، وقد أوتيت لموسى، وكذلك سأل الرسول محمد ﷺ لأخيه علي عليه السلام ما سأله موسى لأخيه هارون فأوتي سؤله»[1] وأين سؤل من سؤل وسؤال من سؤال، فقد سجل سؤال موسى بسؤله في الذكر الحكيم في آيات بضع، وسجل سؤل الرسول دون سؤال في سورة الانشراح!

هذه هي المنة الثالثة على موسى، وقبلها أصل الوحي والرسالة، وقبلهما: ولقد مننا...



(١) الدر المنثور ٤: ٢٩٥ - أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٢٥-٣٤] وفيه أخرج السلفي في الطيوريات بسند عن أبي جعفر محمد بن علي قال: لما نزلت: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ [طه: ٢٩-٣١] كان رسول الله ﷺ على جبل ثم دعا ربه وقال: اللهم أشدد أزري بأخي علي فأجابه إلى ذلك وروى أبو نعيم الحافظ بإسناده عن رجاله عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وبيدي ونحن بمكة وصلى أربع ركعات ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن نبيك موسى بن عمران سألك فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾.. وأنا محمد نبيك أسألك ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٥-٣٢] قال ابن عباس: فسمعت منادياً ينادي: قد أوتيت سؤلك.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾:

وهي المنة الأولى وإن كانت هي الأخرى بالنسبة لما هنا:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨)﴾:

مهما بان البون بين وحيين، فثانيهما ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ إلى رسول الهدى وحي رسالي، والأول وحي إلهامي إلى أم موسى وقد شمل ذلك الوحي نبأ عن وحي التكوين إلى اليمِّ وأن يأخذه عدو لله وعدو لموسى.

وذلك المن الأول دون سؤال يؤكد تحقيق منّه بسؤال، ولا سيما بعد الرسالة، وعلّ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ تشمل كل سؤله منذ ولادته إلى تربيته وإلى رسالته ومتطلباتها، فإن ذلك قضية المضي المؤكد بـ «قد» في ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ فمنُّه تعالى مرة أخرى وهي الأولى داخل في سؤله فإنه ليس سؤالاً حتى يختص بالحال، بل هو حاجة تقتضيه الحال على أية حال، سألها بلسان القال أو الحال أم لم يسألها في مقتضى الحال.

ولماذا ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ والمذكور في ما يوحى منن ثمان؟ علّه لأنه نظراً إلى حياته الرسالية وقبلها، فالمنن عليه في كل منهما مرة مهما كانت شتى، فقبل رسالته منة هي ثمان أم تزيد، وقبلها أخرى هي ستة أم تزيد فهما منتان كمجموعتين، وهما منن - لأقل تقدير - هي أربعة عشر كعديدها.

فالمن الأول من الأخرى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ فإن مادة الوحي كانت لصالح الحفاظ على حياة موسى:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾:

أترى هذه المادة الهامة الخطيرة من وحي الإلهام كانت رؤيا في المنام، كان تأويلها قذفه في التابوت ثم في اليم؟ وليست هنالك قاطعية في تأويلات الرؤيِّ إلا أن يكون المؤوِّل من الأنبياء، والنص هنا لا يشير إلى رؤياً ولا تأويله ولا نبي في البين!.

إنها - بطبيعة الحال - وفي هذه الهامة الخطيرة، إلهام إلى قلبها في حدٍّ من الظهور والبهور لا يقبل أي تردد، وكأنها تحس الواقع المستقبل من نجاة موسى، لحدٍّ ألقته في التابوت إلى اليم.

كيف لا و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[١].

أو ليست أم موسى من هؤلاء - وهي تحمل أمانة الرسالة الإلهية - حتى تستحق نزول الملائكة عليها بذلك الوحي، حفاظاً على رسالة الوحي؟! وكما تمثل لأم عيسى روح الأمين ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢] لكي يلقي إليها غلاماً سوياً.

فهنا أم موسى يوحى إليها ما فيه الحفاظ على وليدها، وهناك أم عيسى يوحى إليها ليلقي إليها بشراً سوياً، وهما من أفضل الوحي فيما سوى النبوءة والرسالة، ومن أدناه الوحي إلى النحل ثم للأرض.

فما كل ما يسمى وحياً، يحمل رسالة إلهية، وهو في الأصل إشارة في رمز تكويناً أو تشريعاً، خيراً أو شراً، كما ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٣]!.

وكما أن وحي الشيطان دركات، كذلك وحي الرحمن درجات، أدناها للأرض، وأعلاها إلى المرسلين وبينهما متوسطات.

فلقد قذف في قلب أم موسى لأول ما يوحي ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾...

أم حنون تلد ولداً كموسى، فبدل أن تحتضنه تقذفه في التابوت، وهي ما يلقى في الماء!

صحيح إنها تأكدته وحياً من الله، ولكنها كيف تجرؤ على الإقدام بما تؤمر، والعاطفة المرهفة والهيمان البالغ تمنعانها عن ذلك، مهما الوحي يأمرها بذلك؟!.

هنا قذف في التابوت، ثم قذفٌ في أليم، قد يلمحان بسرعة في العمل

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

دون أية رعاية، تعجيلاً دون أي تأجيل، مما يوحش ولا سيما الأم الحنونة، لولد تعرفه من هو؟!.

ولكنما النص التالي يُطَمْئِنُها أن ليس في إلقائه إلغاءه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أمراً تكوينياً لليم أن تلقيه من خضمها إلى الساحل، ثم أمر آخر كما الأول لأقسى قلب وأعصى عبد: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهو فرعون الطاغية، عدو الله إذ ينكر ربوبيته بل يدعي هو الربوبية بديله، وعدو لموسى إذ يعلم أن بيده قضاء فرعنته وملكه، ولذلك أخذ يقتل الذكران من بني إسرائيل(١) ولكنه مأمور تكوينياً باختيار أن يأخذ عدوه موسى ويحتضنه

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢٥ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط تحفظهن وذلك لما كان بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون إنه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك: لأقتلن ذكور أولادهن حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المحابس فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت إليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: تذبح الساعة، فعطف الله الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى ما لك قد اصفر لونك فقالت: أخاف أن يذبح ولدي فقالت: لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه وهو قول الله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فأحبته القبطية الموكلة به وأنزل الله على أم موسى التابوت ونوديت: ضعيه في التابوت فاقذفيه في اليم وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فوضعته في التابوت وأطبقت عليه وألقته في النيل وكان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره ومعه آسية امرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج وتضربه الرياح حتى جاءت به على باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع إليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال: هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية وأراد أن يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون أنه موسى ولم يكن لفرعون ولد فقال: التمسوا له ظئراً تربيه فجاؤوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحد من النساء وهو قول الله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ...﴾ [القَصَص: ١٢]. وفي بحار الأنوار ١٣: ٤٦ فض ضه روى مجاهد عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في=

ليحتزن به على جهله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑦ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا. . .﴾[1].

هنا وهناك يُطلِعه ربه عرضاً عليه من منِّه قبل رسالته، ليزيد علماً وطمأنينة إنه لم يذهب ولن. . غَفَلاً عن عين الله ورعايته حين ضعفه على أية حال، فكيف يذهب غفلاً في تلك الحال وقد بلغ أشده وأرسل بالوحي وآيات الرسالة القاهرة الباهرة؟.

أترى لماذا الإلقاء في التابوت وهي لحمل الجنائز مما يخيف بدل أن يُطَمْئِن؟.

﴿ٱلتَّابُوتِ﴾ معرفاً دليلاً أنه صندوق خاص، وعلّ أصله «تابوه» من «تباه» العبرية (؟؟؟) وهي بين: الصندوق - فلك نوح وتابوت العهد، والهاء في آخر (تباه) إذا أضيفت إلى كلمة أخرى تقلب تاء فيقال: تِبَتْ مِكتابيت صندوق الرسائل.

إذاً فالتابوت لغوياً صندوق خاص فيه صيانة تامة لما فيه، وشاهداً له قرآنياً ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

= خبر طويل قال: إن موسى بن عمران عليه السلام كان فرعون في طلبه يبقر بطون النساء الحوامل ويذبح الأطفال ليقتل موسى عليه السلام فلما ولدته أمه أمرها أن تأخذه من تحتها وتقذفه في التابوت وتلقي التابوت في اليم فقالت وهي ذعرة من كلامه يا بني إني أخاف عليك الغرق فقال لها: لا تحزني إن الله يردني إليك فبقيت حيرانة حتى كلمها موسى وقال لها: يا أم اقذفيني في التابوت وألقي التابوت في اليم قال: ففعلت ما أمرت به فبقي في اليم إلى أن قذفه الله في الساحل ورده إلى أمه برمته لا يطعم طعاماً ولا يشرب شراباً معصوماً مدة.

وفيه عن الكافي عن سدير الصيرفي عن الصادق عليه السلام قال: إن فرعون لما وقف على أن زوال ملكه على يد موسى أمر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه وأنه من بني إسرائيل فلم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى إياه.

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧، ٨.

وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فكما في هذا التابوت سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، كذلك التابوت الذي قذف فيه موسى وقذف في اليم تحمله رعاية الله في خِضِمِّ اليم ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾! وعلّه هو التابوت الأوّل نفسه وقد وضع موسى فيه المن وعصا هارون ولوحي العهد، كما في الرسالة إلى العبرانيين الإصحاح التاسع: وأمر اللاويين أن يضعوا فيه كتاب التوراة بجانب عهد الرب في التابوت كما في تثنية التوراة ٣١: ٢٥.

وعلى أية حال هو فاعول يدل على مبالغة في معناه، يوضع فيه الثمين الثمين حفاظاً عليه - بالغاً - عن الضياع، وقد يسمى تابوت الميت باسمه، لأنه يصونه عن الضياع حيث كان يوضع في صندوق ويدفن معه بماله من حاجيات ضرورية حيوية علّه يحتاجها في قبره!.

ولماذا ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ دون «إلى الساحل»؟ علّ الساحل هنا مأمور كما اليم، فاليم يلقيه بواسطة الساحل الذي يلتقيه، فقد يلقي اليم ولا يتلقى الساحل ما ألقاه، أم يتلقى الساحل ولكن اليم لا يُلقي، فهنا هما مأموران تكوينياً دون اختيار إلقاءً وتلقياً، وكما فرعون مأمور قذفاً في قلبه تكوين الإختيار!

إذاً فهنا أوامر أربعة، أولاها لأم موسى «وثانيها لليم: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ وثالثها للساحل: ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ ورابعها فرعون: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

وترى ﴿ٱلْيَمُّ﴾ هنا هو البحر؟ أو النيل النهر؟ فلماذا لم يأت كلٌّ باسمه الخاص!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

إنه البحر وعظيم النهر، فلأن النيل كان في عظمه كالبحر الملتطم، لذلك جاء بصيغة اليم.

والضمائر الأربعة كلها راجعة إلى موسى «اقذفيه. فاقذفيه.. فليلقه.. يأخذه» فإنه الأفصح الأصح من اختلاف المراجع، في أدب اللفظ وأدب المعنى، حيث المحور الأصيل هنا هو موسى، وما التابوت إلا حاملاً له كسفينة مأمورة في أمر اليم والساحل.

وكيف ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾؟ حيث ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فإن فرعون كان يعادي كل إسرائيلي علّه موسى، فكان يعاديه كأحدٍ منهم بهذه الحائطة، وأصل عدائه لأن بيده انهياره، فلم ينج بهذه الطريقة الخارقة للعادة أن يأمر بأخذه من الساحل إلا بما ألقي عليه محبة منه ولحدٍّ تقول أهله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]! أحبته فأحبه فرعون خلافاً لما يحكمه الجو الفرعوني!.

فـ «ألقيت» إلقاء خاص بإلغاء كل بواعث العداء وكوارثه، و﴿عَلَيْكَ﴾ تجعل المحبة الملقاة ستراً له يشمله كله، فظاهره يجلب وباطنه يجذب، اللهم إلا فيمن يعرفه من هو وهو يعاديه لأنه هو، كفرعون الطاغية، ولكنه عرفه بعد وعانده ما عاند.

وترى ﴿مِّنِّي﴾ متعلقة بـ «ألقيت»: إلقاءً مني؟ أم بمحذوف كـ «حاصلة»؟ أو المعنيان معنيّان، فكما المحبة ملقاة من الله كعناية خاصة، كذلك هي حاصلة من قبل الله لمن يحب الله فيحبه الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2].

فموسى وإن لم يكن منذ ولادته كما وصف الله حتى يجعل له وداً -

---

(١) سورة القصص، الآية: ٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

وهو كما وصف وفوقه - ولكنه يوده لأنه سيجعله رسوله، فهو يصنعه على عينه، وذلك فوق الإيمان شريطةً لاستحقاق الود من الرحمن.

ثم ﴿مَحَبَّةً﴾ منكرة تلمح إلى ضخامتها وفخامتها القليلة النظير، و﴿مِّنِّي﴾ تجعلها خاصة من لدنه، فقد استقرت عليه محبَّةٌ ربانية، فلا يراه أحد إلا أحبه دون أن يعرفه، إلا أن يعرفه عدوٌّ له.

فيا للقدرة العجيبة التي تجعل من المحبة اللينة الهينة درعاً تتكسر عليها الضربات، وتتحطم عليه الأمواج، وتعجز كل قوّات الشر والطغيان عن أن تمس حاملها بسوء وإن كان طفلاً رضيعاً، كيف وقد بلغ أشده، ثم حين عرفه عدوه يتربص به كل دوائر السوء فلا يقدر عليه أو يغدر به حتى إذا أدركه الغرق ونجى موسى ومن معه!.

فالقوى الطاغية المتربصة بالطفل لا تقوى عليه على طغواها، حيث ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ تحرسه عنها، دون نزال له ولا صيال، وهي بكل صيال ونزال!.

ولماذا ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؟ لأمور عدة تستحقها رحمة مني ولتُصنع على عيني» وهكذا يصنع الله على عينه من يشاء أن يلقي عليه محبة منه.

أم «ولتضع على عيني» - ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ حيث الرسل صنائع الله يصنعهم على عينه كما يشاء ويصلح لحمل أعباء الرسالة الإلّهية.

فـ «عيني» هنا، وهي ككل الرقابة، تعني عين العلم والقدرة والتربية الربانية، فمثلت العين التربوية الإلّهية تصنعه كما يريد، وليس يعني أن في الكون شيئاً يغيب عن رؤية الله، ولكنه يفيد الاختصاص بشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة أن تتربى بحيث أراك وأرعاك، فلأن الحافظ لشيء في الأغلب يديم رعايته بعينه، جاء هنا باسم العين بدلاً من الحفظ، تلطيفاً في الكلام، ومشابهة لما بين الأنام، فإنه تعالى يكلمنا بألسنتنا.

وهذه الصناعة تحلّق على كل كيانه وكونه، منذ أصلاب الآباء وأرحام

الأمهات، إلى الولادة، إلى التربية، وإلى النبوءة والرسالة والنبوّة، وإلى أن قضى نحبه.

وقد تعني ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ فيما عنته، أمَّه، فإن صناعتها هي من صناعته في طيب الحمل والولادة، وحسن الصنيعة بائتمارها أمر ربها في قذفها في اليم، وما أجمله جمعاً بين الصناعتين فإنهما صناعته، ولأنه صيغة التذكير، ليست لتختص بها فإنها «لتصنعي» خطاباً، اللهم إلا في غياب الصيغة وهو بعيد عن السياق، والجمع أجمع وأجمل.

أنت تُصنَع على عيني تحت عين فرعون عدواً لي وعدواً لك، كما تحت عيني أمك، فكما أنت على عين أمك بكل حنانها، كذلك تحت عين فرعون وفي متناوله بلا أي حارس وعلى أشراف كل كارث، ولكن عينه لا تمتد إليك إلا على عيني، لأني ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾!.

وترى ﴿مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ ميِّزة لموسى وحتى على خاتم الأنبياء ﷺ إذ لم يشمله النص، ولم يختص بنص آخر؟ إن الرسول محمد يفوق موسى ومن فوقه بفائقات عدة، منها أن «لا تتم الشهادة إلا أن يقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ينادى به على المنابر فلا يرفع صوت بذكر الله عز وجل إلا رفع بذكر محمد ﷺ معه»[1] وذلك قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[2]! وإنه رسول إلى النبيين كما إلى جميع العالمين: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٩ في كتاب الاحتجاج روى موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين ابن علي عليه السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام فلقد ألقى الله على موسى عليه السلام محبة منه؟ قال علي عليه السلام لقد كان كذلك ولقد أعطى الله محمداً ﷺ ما هو أفضل منه لقد ألقى الله عز وجل عليه محبة منه فمن هذا الذي يشركه في هذا الاسم إذ تم من الله عز وجل به الشهادة فلا تتم الشهادة...

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[2].

هنا - وبعد قذفه في اليم والتقاط آل فرعون له - تقصه أخته بأمر أمّه فتبصر به عن جنب وهم لا يشعرون، ولأنه لم يكن يرتضع من أي ثدي حيث حرمت عليه المراضع من قبل إلا أمه، عرضت لهم من يكفله رضعاً ونصحاً، كفالة لحاجته روحية إضافة إلى بدنية، وهم بطبيعة الحال يفتشون عن هكذا مرضعة.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ﴾ علّه ظرف لـ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أخذاً لصناعته منذ رضاعته وهو صنيع ربه قبلها وبعدها حتى ارتحاله إلى رحمة ربه، ولكنما الرضاعة لأهميتها هنا كأنها بداية صناعة الرب، وهو صنيعه منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى النهاية في تطواف الرسالة وقضاء أمرها.

فلقد كان من صناعته له على عينه أن جعله لا يقبل ثدي المرضعات ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[3] فآل فرعون يبحثون له عن مرضعة مرضية،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة القصص، الآيات: ١١-١٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ١٢.

وتتسامع المرضعات هذه الطلبة الفرعونية فتتسابق إلى القصر تكسّباً لهذه المفخرة أن تصبح إحداهن مرضعة فرعونية، فيدبر الله أمره أن تمشي أخته ضمن المشاة فتقدمهما لما يتطلبون ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ولكي يتم وعد الله له حيث حرمت عليه المراضع من قبل، وذلك من قرير عينها ألا يرتضع إلا منها جمعاً بين حق الربوبية وصالح الرسالة وبغية الأمومة!.

وهكذا يتم التدبير الرباني للطفل وأمه، حيث تأتمر وحيه، وتقذف فلذة كبدها في اليم، ليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لله وعدو له ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ فيكون الأمن بإلقائه في خِضمِّ اليمِّ الملتطم، وتكون النجاة من فرعون بإلقائه بين يديه بلا حارس ولا معين وبكل كارث!.

وهنا يتناسى السياق مساغ موسى منذ ارتضاعه إلى بلوغ أشده، إلى عرض منة أخرى:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ

﴿ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

فلقد اغتم موسى بهذه القتلة الخاطئة غير القاصدة كما تلمح له ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ - ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ - ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فقد وكزه وكزة فأصبحت قتلة خاطئة[2] وحتى لو كانت عامدة ما كانت منه خطيئة، فإن القبطي كان وثنياً محارباً وحكمه واضح، ولكن هذه القتلة غير العامدة خلَّفت تأخيراً للرسالة الموسوية، وهي من هذه الناحية كانت خطأ وغماً فنجاه الله من غمه.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ عدة، منذ رضاعتك وصباك وبلوغ أشدك في البلاط الفرعوني، إلى قتل النفس، وإلى قضاياك في مدين، وفتن الرسالة هي طبيعة الحال لمن يعدُّ لها عُدَّة، ولكي يتمرن على المصائب المصاعب، ويتدرب على درب الرسالة الشاقة الملتوية، ويتجرب بما يحضِّره لكل نائبة.

وتراه كيف قتل نفساً خطأً وهو صنيع ربه، معصوماً عن كل وصمة عامدة أو خاطئة؟ علّه من فتن الله، المعني من «فتوناً» ولكي يعرف أنه لو وكله إلى نفسه طرفة عين لتطرَّف وانحرف، وذلك قبل الرسالة الرسمية حيث حصلت بعد سنيّ مدين الفاتنة له، المربية إياه.

يمتحنه ربه بالخوف والهرب من القصاص، وبالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وبالخدمة ورعي الغنم، نحلة لأهله ونفقة، وقد تربى منذ ولادته حتى حينه في قصر أعظم ملوك الأرض!

---

(١) سورة القصص، الآيات: ١٤-٢٢.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٩٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً يقول الله: وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفي المجمع روي عن النبي ﷺ أنه قال: رحم الله أخي موسى قتل رجلاً خطأً وكان ابن اثنتي عشرة سنة.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾:

وهذه السنون هي من ضمن فتنة الفتون، حيث يصنعه ربه على عينه في شغل رعاية الغنم ورعيها، نحلةً عن زواجه، واستعداداً لرعاية الرسالة العالمية ورعي الأمة الاسرائيلية.

و﴿سِنِينَ﴾ هذه بين ثماني حجج وعشر، وعلّه قدم العشر تقديماً لأفضل الأمرين الإمرين وأتمهما[١] كما هي شيمة الرسل بجنب الله.

وطالما النص يلوي عن عرض أشغاله في سنّي مدين، حيث الأهم هو عرض هامة الرسالة ببنودها، ولكن ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ تقدّر مقادير تحضُّره في سنيّه الفاتنة الفائتة.

وذلك القَدَر هو قَدَر ولاية عزم الرسالة كما قدّر الله، الوقت المقدر لما نضج واستعد وخرج عن كل هرج ومرج، حيث ابتلي وصبر وامتحن فجاز الامتحان، كما وتهيأت الظروف في مصر لتقبُّل الدعوة الموسوية، إذاً فهو قَدَرَ التقدير وقتاً، وقَدَر المقدار حالة نفسية كما ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] وأين قدر عام من ذلك القدر، ومن قدره عمره الأربعون.

فموسى قبل جيئته هذه كان «إلى قدر» ولكنه بعد ردح من الزمن، وذوق الفتن كما الذهب غير الخالصة تفتن لخلاصها فخلوصها ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ واصلاً إليه، محيطاً عليه، لائقاً لابقاً لحمل أعباء الرسالة إلى فرعون وملئه، وفي هذه الجيئة الثانية:

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾:

وهي افتعال من صنعتك، إذ ليست الصناعة الرسالية الموسوية كسائر

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في تفسير القمي قيل للصادق عليه السلام أي الأجلين قضى؟ قال: أتمها عشر حجج.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

الصنعة لسائر الناس، فإن فيها مزيداً عليهم، يحضِّره رسولاً إليهم و﴿لِنَفْسِى﴾ بيان لغاية ذلك الاصطناع، حتى يكون رسولاً معصوماً أميناً من الله.

فليس موسى لنفسه ولا لسواه إلا لله، يعيش حياته الرسالية في الله ولله، دون اتباع لهواه أمّن سواه، فإنه بعين الله ومختار الله وصنيع الله، فكيف يكون لغير الله!.

ثم المنتفع من غاية اصطناعه ليس إلا هو ومن ثم المرسل إليهم، فإن الله ليس لينتفع من عباده ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾(١) وما لم يكن العبد لله لم يكن لنفسه ولا لعباد الله.

ولأنني ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ وجعلت لك وزيراً من أهلك هارون أخاك فـ :

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾:

﴿ٱذْهَبْ﴾ بحمل الرسالة العالمية لبلاغها ﴿أَنتَ﴾ كأصل فيها ورأس الزاوية لها ﴿وَأَخُوكَ﴾ أزراً ووزيراً، ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ الدالة على رسالتكما الإلٓهية ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ من الوني: الفترة والضعف والكلال والإعياء والإهمال والتقصير.

ثم ﴿ذِكْرِى﴾ هي من إضافة المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول: ذكري إياكم وذكركم إياي، قالاً وحالاً وأفعالاً، في أنفسكم وفي المرسل إليهم، حيث العقبات أمام ذكر الله كثيرة خطيرة، فلتكافح الرسالة كافة العراقيل، لتجتازها إلى تحقيق رسالة الله في عباد الله.

ولقد كان الأمر قبل استجابته في سؤله يخصه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ وهنا يُشفَّع به أخوه تحقيقاً لسؤاله، وترى هارون الغائب الآن عن هذا المحضر كيف يؤمر بما يؤمر به موسى؟ إنه يؤمر ضمن ما يؤمر موسى،

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

وبلاغه إليه على عاتق موسى، وكما أوحي إلى هارون نفسه في نفس الوقت مهما كان بعيداً عن ذلك المحضر، حيث الكون كله محضر لله، يخاطب من يريد خطابه مهما اختلف الزمان والمكان.

أم أنه خوطب بعدما اجتمع إلى هارون، ودليلاً عليه ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[1] والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان ويترك فجوات بين مشاهد القصص، هي معلومة من نفس السياق، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر الأعمق في سير القصص وفي وجدان الناس.

وفي جمعية الآيات ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ ولم يؤت من ذي قبل إلا آيتي العصا واليد البيضاء، تبشير لهما إلى آيات أخرى.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾:

وهنا تخص دعوة الداعية بعد عمومه فرعون الطاغية لأنه رأس الزاوية في عرقلات الدعوة، وكل دعوة إلهية تبدأ بالسلب وتنتهي إلى الإيجاب، فما دامت الفرعنات قائمة، لا تجد الدعوة الإلّهية مجالاً لتحققها، إذاً ف ﴿ٱذْهَبَآ﴾ في بداية الدعوة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ولماذا؟ لـ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ استعباداً لبني إسرائيل، واستبداداً بالحكم عليهم، فلتبدأ بَحسمه وقصمه لكي تجد الدعوة سبيلاً إلى تطبيقها.

ترى وكيف يصلح ذهاب الداعية إلى الطاغية، إصلاحاً له، أم سداً عن بأسه وصداً عن سلطانه؟

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾:

ونص القول اللين نجده في النازعات ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾

(١) سورة طه، الآية: ٤٥.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[1] وكما نجده هنا ﴿فَقُولَا...﴾.

ونرى الداعية موسى طول حواره مع فرعون الطاغية لا يقول له إلا قولاً ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى» ولكنه زاد طغوى على طغوى، وهذه طبيعة حال الدعوة الصالحة أن تكون لينة بالتي هي أحسن، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، استنباطاً لدفين الحق المستور تحت ستار الهوى، وفي آخر المطاف ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[2] [3].

ثم القصد من هذا الذهاب إلى فرعون بقول لين ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ فتحصل له تقوى بعد طغوى، أم إذا لم يتذكر هكذا ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ لأقل تقدير، فتلك عبادة التجار وهذه عباد العبيد وقبلهما للأحرار أن يعبدوا الله لأنه الله.

ولأن موسى قد تربى عند فرعون، ثم قتل منه نفساً، ثم يأتيه رسولاً، وهو الطاغية الباغية، فهذه الأربع تدفع الداعية إلى قول لين معه أكثر من

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ١٦-١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٣) الدر المنثور ٤: ٣٠١ - أخرج أحمد في الزهد عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال: لا يغرنكما لباسه الذي ألبسته فإن ناصيته بيدي فلا ينطق ولا يطرف إلا بإذني ولا يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت أن ازينكما من زينة الدنيا بشيء يعرف فرعون أن قدرته تعجز عن ذلك لفعلت وليس ذلك لهوانكما علي ولكني ألبستكما نصيبكما من الكرامة عن أن لا تنقصكما الدنيا شيئاً وإني لأذود أوليائي عن الدنيا كما يذود الراعي إبله عن مبارك الغيرة وإني لأجنبهم كما يجنب الراعي إبله عن مراتع الهلكة أريد أن أنور بذلك صدورهم وأطهر بذلك قلوبهم في سيماهم الذين يعرفون بهم وأمرهم الذي يفتخرون به وأعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني وأنا الثائر لأوليائي يوم القيامة.

أقول: مثل ابن عباس لا ينقل حديثاً قدسياً عن الله دون أن يسمعه من رسول الله ﷺ إذاً فهو عنه ﷺ.

الواجب في طبيعة الحال الرسالية حيث القصد - لأقل تقدير - سدُّ أذاه وإخماد لَظاه، وخشن القول مما يزيد لظى في أذى.

وكيف ﴿لَعَلَّهُ﴾ ولا تردُّد في علمه سبحانه أنه لا يتذكر ولا يخشى؟ إنه ترجٍّ للداعية نتيجة الدعوة بصورة عامة، وحتى إذا تأكد أنه لا يتذكر ولا يخشى، فإنها ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[(١)] فالنذر بين تذكر وخشية، والعذر لبلاغ الحجة، ولكي لا تكون للناس على الله حجة، حيث الناس في انقسامات ثلاث، ناس وأشباه ناس ونسناس، فالناس بين دعاة يدعون، ومدعوين يتقبلون الدعوة، والنسناس هم المصرون على الباطل، وأشباه الناس عوان بينهما متوقفين بين الأمرين.

وعلى الدعاة أن يكونوا في دعوتهم ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فالعذر أمام النسناس لبلاغ الحجة، والنذر للذين يتقبلون الدعوة دون إمهال فهم المتذكرون، وللعوان المترددين المتقبلين بإمهال فهم الخاشون، و﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يخص الأخيرين ويجمعهما ﴿نُذْرًا﴾ ثم ﴿عُذْرًا﴾ على الأولين.

والباعث القوي للدعوة أن يتذكر المدعو أو يخشى، وأما أن يطغى كفرعون فباعث الدعوة فيه ضعيف، ورجاء التأثير في الدعوة هو الباعث لها بقوة.

فـ ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ هما رسم لخطوط الدعوة وخيوطها بصورة عامة، وأما الدعوة الخاصة كما إلى فرعون، فلا تصلح أن يؤكد فيها أنه ﴿عُذْرًا﴾ قطعاً بعدم التأثير، فإنه ونيٌّ للدعوة شاء الداعية أم أبى، «فإنما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ليكون أحرص لموسى على الذهاب»[(٢)] أم وبأحرى أنه تذكر

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في علل الشرائع بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال: قلت لموسى بن جعفر عليه السلام: أخبرني عن قول الله عز وجل لموسى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا =

وخشي ولكن متى؟ عند رؤية البأس، حين لا تنفعه الخشية والذكرى[1].

وعلى أية حال فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف التي يعيشها الطغاة، بل ومن شأنه إيقاظ القلب غير المقلوب، والحجة القاطعة على القلوب.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا خوف الداعية في سبيل الدعوة، يعرضه على الله، لا إعراضاً عن أمر الله، وإنما سؤالاً لمزيد التأييد كما سأل من ذي قبل فأعطي سؤله.

= لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤] فقال: أما قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أي كنّياه وقولا له يا أبا مصعب وكانت كنية فرعون أبا مصعب الوليد بن مصعب، أما قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] فإنما قال ليكون أحرص لموسى على الذهاب وقد علم الله عزّ وجلّ أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى إلا عند رؤية البأس ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يقبل الله إيمانه وقال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وفيه عن تفسير القمي عن عدي بن حاتم وكان مع أمير المؤمنين عليه السلام في بعض حروبه أن علياً عليه السلام قال ليلة الهرير بصفين حين التقى مع معاوية رافعاً صوته يسمع أصحابه: لأقتلن معاوية وأصحابه ثم قال في آخر قوله: إن شاء الله - يخفض به صوته وكنت منه قريباً فقلت: يا أمير المؤمنين إنك حلفت على ما قلت ثم استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال: إن الحرب خدعة وأنا عند أصحابي صدوق فأردت أن أطمع أصحابي في قولي كي لا يفشلوا ولا يفروا فافهم فإنك تنفع بهذا بعد اليوم إن شاء الله تعالى، وعن الكافي مثله وفيه بعد إن شاء الله تعالى: واعلم أن الله جل ثناؤه قال لموسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقد علم أنه يتذكر ولا يخشى ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى عليه السلام على الذهاب.

(١) البحار ١٣: ١٣٥ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث له طويل حول القصة قال له سفيان: قلت يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله هل يجوز أن يُطمع الله عزّ وجلّ عباده في ما لا يكون؟ قال: لا فقلت: فكيف قال الله عزّ وجلّ لموسى وهارون ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقد علم أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى؟ فقال: إن فرعون قد تذكر وخشي ولكن عند رؤية البأس حيث لم ينفعه الإيمان.

فلم يكن خوفاً للداعية على نفسه ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1] إذ طمأنه ربه لما أعطاه سؤله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[2].

فـ ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ كرسولين، فرطاً على الدعوة تعجيلاً بالعقوبة قبل الآية المعجزة، و﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ هي طغوى عليهما وعلى بني إسرائيل، بعدما طغى، فهي مزيد الطغوى، إظهاراً لدفينها.

فذلك - إذاً - خوف على الدعوة أن يسبقها فرط من فرعون بقتل الداعية، أم يزيد طغوى على طغوى، فلا تفيد - إذاً - هذه الدعوة إلا بنصرة إلٓهية هي المطلوبة في ذلك العرض.

فها هما ذان الرسولان المأموران الخائفان على بلاغ الرسالة يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما، ويُطَمْئِنهما ربهما فيطمئنان على طول الخط إلى نهاية المطاف.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿لَا تَخَافَا﴾ على أية حال لـ ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ معية العلم والقدرة والنصرة و﴿أَسْمَعُ﴾ المقال ﴿وَأَرَىٰ﴾ الحال، ولست أهمل الرسول والرسالة، أو أمهل الفارط والطاغي على الدعوة، فإن ذلك نقص في الرسالة، ونقض للهدف من الدعوة!.

وهذه المعية الربانية تعم المرسلين كافة والذين معهم على درجاتهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[3] ولا تعني النصرة الضمان على حياة الرسول والمؤمنين، وعدم أذاهم، وإنما هي

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

الضامنة لحياة الرسالة والإيمان وتقدمهما وثباتهما مهما صعبت الظروف والتوت.

فلا تعني ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عدم مسهما بأي أذى وقدمتّهما أذى كثيرة، حتى ولا عدم قتلهما مهما لم يقتلا، وهذه هي سنة الربوبية في الرسالات كلها ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

وترى كيف خافا على أي أمر كان وهما رسولان و﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1]؟

المهم هنا موقف «لدي» وقد حصلت لهما لما طَمْأنهما ربهما ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فزال عنهما كافة المخاوف في سبيل الدعوة إلى فرعون الطاغية ومن معه!.

ومن ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ هنا بعدما في النازعات ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2]: بصيغة أخرى تفصيلاً للأخرى:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

وتراهما كيف أتياه ومن عادة الطغاة عدم السماح لمن يستأذن منهم، إلّا إذا كان لصالحهم وهم يعرفون بصدق لهم وإخلاص؟.

يروى أنه «أتى بابه فاستأذن عليه ولم يؤذن له فضرب بعصاه الباب فاصطلت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون فأخبره أنه رسول من رب العالمين..[3]

(١) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٣) البحار ١٣ : ١٢٠ عن القمي أبي عن ابن فضال عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام =

ولكنه خلاف اللين في اللقاء مهما كان مع البواب، وقد تعامت الآية عن كيف دخل فنسكت عما سكت الله عنه.

ونرى هنا ألين اللين في بزوغ الدعوة، فلم يقولا «إنا رسولا رب العالمين» كي لا ينبري لإدخاله في العالمين، وهو داخلهم! ولا «إنا رسولا ربنا» فصلاً له عن ربهما وهو فصل عن قبول أصل الدعوة، وهو الطاغية الداعية: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] وإنما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك، فلست أنت رباً لنفسك، ولا لغيرك ممن هو مثلك من العالمين، ولا أنت رب العالمين، وإنما لك رب رباك كما ربانا وربى سائر العالمين، تهديماً لصرح الخرافات الوثنية أن لكل قوم إلهاً أو آلهة كما كانت سائدة بينهم.

فـ ﴿رَبِّكَ﴾ هنا اختصاصاً له بربوبيته تعالى يوافق طبيعة حاله، ويستحثه على سؤاله العجاب، من هو ذلك الرب، وطبعاً هو ربكما كما هو ربي، ولذلك أرسلكما إلي على زعمكما.

= قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون أتى بابه.. وفيه ١٣: ١٠٩ الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن فرعون بنى سبع مدائن فتحصّن فيها من موسى فلما أمره الله أن يأتي فرعون جاءه ودخل المدينة فلما رأته الأسود بصبصت بأذنابها ولم يأت مدينة إلا انفتح له حتى انتهى إلى التي هو فيها فقعد على الباب وعليه مدرعة من صوف ومد عصاه فلما خرج الآذن قال له موسى عليه السلام: إني رسول رب العالمين إليك فلم يلتفت فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا انفتح فدخل عليه وقال: أنا رسول رب العالمين فقال: ائتني بآية فألقى عصاه وكان لها شعبتان فوقعت إحدى الشعبتين في الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبة فنظر فرعون إلى جوفها وهي تلتهب ناراً وأهوت إليه فأحدث فرعون وصاح يا موسى خذها ولم يبق أحد من جلساء فرعون إلا هرب فلما أخذ موسى العصا ورجعت إلى فرعون نفسه همَّ بتصديقه فقام إليه هامان وقال: بينا أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد واجتمع الملأ وقالوا: هذا لساحر عليم، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم فلما ألقوا لهم عصيهم ألقى موسى عصاه فالتقمتها كلها وكان في السحرة اثنان وسبعون شيخاً خرّوا سجداً ثم قالوا لفرعون: ما هذا سحر لو كان سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ثم خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل يريد أن يقطع بهم البحر..
أقول ثم هنا تفصل بين بداية أمره ونهايته كما هو مستفاد من آيات القصة.

(١) سورة النازعات، الآية: ٧٩.

وقد جمع في ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ حجة بارعة قارعة على لينها، دون أن تؤثر اللينة في قاطعية الحجّة فتنقص عنها، ولا أن تؤثر الحجة في تحول اللينة إلى القساوة، وهذه هي الجدال بالتي هي أحسن، أن تذاد عنها مساوئها، وتزاد فيها محاسنها، فتصبح قاطعة على لينونته، ولينة على قاطعيته!.

ثم في هذه البداية لا يفرعان على ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ تَطلُّب الإيمان به من فورهما، وإنما أدنى ما يُتطلَّب من مربوب لربه أن يتخلى عن سلطته الظالمة على مستضعفي عبادة:

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ كان ذلك هو فقط مادة الرسالة إليه لا سواها، ولكي لا تأخذه العزة بالإثم والغيرة، فيأتي بمعرَّة فوق معرَّة.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كإيجاب واحد في هذه الرسالة ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ كسلب واحد فيها، و﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدل «لا تظلمهم» ليونة في التعبير، حيث الظلم يخص القبيح، والعذاب منه قبيح ومنه صحيح، ولأنهما يرأسان بني إسرائيل، فلو أنهم يستحقون العذاب فحوِّل عذابهم إلينا وأرسلهم معنا، فلا لكم ولا عليكم أي شأن منهم شائناً أم سواه.

ولئن تطلب برهاناً على هذه الرسالة فـ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ آية ذات دلالتين، أولاهما أنه ربك، وثانيتهما أنا رسولا ربك.

ولماذا «آية» وقد أوتي موسى تسع آيات حيث أرسل ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[1]؟.

لأن الموقف هنا في مقام إثبات رسالتهما بآية إلّهية، دون كمِّها وكيفها، وإن الآيات التسع هي كواحدة في أصل التدليل على صحة الربوبية والرسالة، فآيات الرسالات كلها تنحو منحى هدف واحد هو إثبات الرسالة الإلّهية، على اختلاف صورها وسيرها.

(١) سورة النمل، الآية: ١٢.

وهنا بعد ثبوت الرسالة والألوهية - وهما الهدى الإلّهية - بخطط مصير كل من أهل الهدى والردى بمسيرهما:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ دون من عارضها، أم لا لها ولا عليها، فهلا تريد يا فرعون أن تكون من أهل السلام باتباع الهدى وترك الهوى.

ثم العذاب وأنت تعذب بني إسرائيل ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ كذب الهدى بعد إتيانها، وتولى عنه إلى غيرها، فهل أنهم كذبوا الهدى وتولوا عنها حتى يستحقوا عذابك؟ وهم موحدون مهتدون!.

أم أنت المكذب للهدى، المتولي عنها ولذلك تطغى، فاترك الطغوى إلى التقوى حتى يسلم السلام على من اتبع الهدى، وذلك تنديد بكل مكذب بحق متولٍ عنه أياً كان[1].

نرى هنا في ذلك العرض الحكيم لتلك الرسالة السامية كل برهنة ساطعة قوية بكل ليونة، فلا ينسبان إلى الطاغية تكذيباً للهدى وتولياً عنها واستحقاقاً للعذاب بصيغة صريحة، وإنما يوضِّحان أسباب الهدى والردى بمسيرهما ومصيرهما، وليعرف فرعون من هو من هذا البين ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾! فهنا ترغيب واستمالة ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فلعله منهم، يتلقى السلام باتباع الهدى، ثم تحديد وتحذير غير مباشرين كي لا يستثيرا كبرياءه أو

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٨١ في أصول الكافي بإسناده إلى عبد الله بن إبراهيم الجعفري قال: كتب أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إلى يحيى بن عبد الله بن الحسن: أما بعد فإني أحذرك ونفسي وأعدك أليم عذابه وشديد عقابه وتكامل نقماته وأوصيك ونفسي بتقوى الله فإنها زين الكلام وتثبيت النعم - إلى قوله -: أحذرك معصية الخليفة وأحثُّك على بره وطاعته وأن تطلب لنفسك أماناً قبل أن تأخذك الأظفار ويلزمك الخناق من كل مكان فتروح إلى النفس من كل مكان ولا تجده حتى يمن الله عليك بمنه وفضله ورقة الخليفة أبقاه الله فيؤمنك ويرحمك ويحفظ فيك أرحام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى.

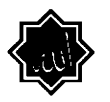
يحطاه من علوائه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فلعله ليس ممن كذب وتولى.

ولماذا هنا ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وفي سائر القرآن «رسول - أو - رسولا رب العالمين»(١)؟.

لأن الذي هو رب فرعون المدعي للألوهية أحرى أن يكون رباً للعالمين أجمعين، إذا ف ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ صيغة أخرى عن «رسولا - أو - رسول رب العالمين» أم أنه قالهما بصيغة عامة لكافة المرسل إليهم وأخرى خاصة بفرعون رعاية لليونة التعبير.

هنا يمتنُّ فرعون على موسى أن رباه وليداً كأنه نعمة تمنعه عن هذه الرسالة جزاءً بها: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٢).

فهنا نرى الطاغية يلوي شدقه متجاهلاً أن الله ربه، سائلاً موسى وهارون عن ربهما دون ربه ولما يعترف به.



(١) ففي الأعراف والزخرف ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] وفي الشعراء ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٨-٢٣.

الفهرس

سورة طه